طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الإمام أبو عمر يوسف
ابن عبد البر

(368 هـ / 463 هـ — 978 م / 1071 م)

حياته، آثاره
ومنهجه في فقه السنة

دراسة وإعداد:

الأستاذ محمد بن يعيش

أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان

1410هـ - 1990م

بسم الله الرحمن الرحيم

«قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد»[1]

(1) قرآن كريم، سورة الاخلاص.

تقديم

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإنه من جلائل الأعمال وعظيم الأمور التي تتوجه إليها النفوس الزكية والعزائم القوية، وتتسابق إليها الهمم العالية، والإرادات المومنة الحسنة، العناية بكتاب الله وسنة رسوله حفظاً وتبييناً، وفهماً وتفسيراً، والعمل على نشر معارف الأمة الإسلامية وتراثها العلمي الأصيل من مصنفات ومؤلفات، والتعريف بأئمتها وجهابذتها وإبراز مكارمهم، والتنويه بمزاياهم وفضائلهم حتى يكونوا قدوة للأبناء والأحفاد ورمزاً للمفاخر والأمجاد من خلال التعرف على تراجمهم وأعمالهم، وتاريخهم الحافل.

ومن هذا المنطلق الإسلامي والنظرة المومنة المتبصرة توجهت عناية أمير المومنين جلالة الحسن الثاني حفظه الله ورعايته الكريمة إلى إحياء التراث الإسلامي ونشره، وبعث أمجاده الغابرة، وتشجيع المحققين والمؤلفين له، حتى أصبحت المكتبات في هذا البلد - والحمد لله - زاخرة بالعديد من المؤلفات العلمية الجليلة والدراسات الإسلامية المفيدة، التي أبرزت في مجال التحقيق والتأليف حركة ثقافية نشيطة وحضارة فكرية سليمة زاهرة، يعم نفعها ويشع نورها داخل المغرب وخارجه.

وفي هذا الصدد، وتحقيقاً للتوجيهات المولوية السامية في العناية بشؤون العلم والعلماء، وتشييداً لنهضة علمية إسلامية مغربية مباركة واستمراراً لريادة المغرب في نشر الإشعاع الديني وعطائه الفكري والحضاري في مختلف العصور، وخاصة في العهد الحسني الزاهر الميمون، وإبرازاً لشخصيات مدرسة المذهب المالكي وعلمائها الأفذاذ، ولثمار تلك الشجرة الطيبة، المتمثلة في مؤسسة دار الحديث الحسنية التي أُسست على تقوى من الله ورضوان لتكون مركزاً لتدارس كتاب الله وسنة رسوله، وتخريج العلماء العارفين المتمكنين من فهمهما وفهم ما تفرع عنهما من العلوم الإسلامية الخالدة.

عملت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ وهي تواصل أداء رسالتها الدينية ومسيرتها العلمية الحضارية على أن تصدر هذا الكتاب الذي يحمل عنوان : «الإمام الحافظ أبو عمر يوسف ابن عبد البر مفخرة أهل المغرب» ـ حياته، آثاره ـ خصائص منهجه في فقه السنة.

والكتاب عبارة عن رسالة جامعية أعدها الأستاذ محمد بن يعيش، ونال بها دبلوم الدراسات الإسلامية العليا من دار الحديث الحسنية، وبحث فيها تاريخ أحد شيوخ السنة النبوية، وعلماً من أعلام المذهب المالكي المجتهدين في المغرب الإسلامي ومن القمم الشامخة في الحديث وعلومه والفقه وأصوله في القرن الرابع والخامس الهجري، والذي كان له دور كبير في تدعيم المذهب المالكي وترسيخه في المغرب، من خلال شرحه الجليل لموطأ الإمام مالك، (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) وغيره من الكتب الفقهية القيمة، ذلك الشرح الذي قال فيه الفقيه الإمام الحافظ أبو محمد بن حزم : إنه كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله فكيف أحسن منه، وقيل فيه : إن شرح الموطأ كان دينا على المالكية فأداه عنهم الحافظ ابن عبد البر. هذا الفقيه الجليل المحدث الكبير الذي نال المرتبة العليا والصيت الذائع على مستوى العالم الإسلامي في مجال الدراسات الحديثية والفقهية وغيرها من العلوم الإسلامية لم ينل ما ينبغي من البحث العميق والدراسة المستفيضة التي تبرز جوانب شخصيته اللامعة الفذة، وتجمعها في مؤلف خاص.

ومن هنا تبدو أهمية هذا الكتاب وقيمته العلمية في دراسة شخصية الحافظ ابن عبد البر، وإبراز معالمها ومنزلتها التاريخية والفكرية والحضارية ومنهجها في الدراسات الإسلامية بصفة عامة، وفي فقه الحديث والسنة النبوية بصفة خاصة، والاستدلال والبرهنة، واستخدام منطق إسلامي فريد من نوعه، بعيد عن الجمود والتحجر والتقليد والتعصب المذهبي، مستنداً في كل ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وغير ذلك مما سيجده القارئ بتوسع وتفصيل في ثنايا هذه الرسالة الجامعية.

والوزارة إذ تطبع هذا الكتاب وتخرجه إلى حيز الوجود، يسرها أن تتقدم به أولا إلى السدة العالية بالله، ثم إلى أصحاب الفضيلة العلماء والأساتذة الباحثين والطلبة الدارسين في مجال العلوم الإسلامية وتتوجه إلى الله العلي القدير أن يجعله في سجل الحسنات الخالدة والمآثر الباقية والصفحات المشرقة لمجدد أمر الدين وباعث النهضة الإسلامية في هذا البلد الكريم أمير المومنين جلالة الحسن الثاني، وأن يبارك الله في حياته ويمتعه بالصحة والعافية ويحفظه حصنا حصيناً للعروبة والإسلام، وقلعة منيعة للدين وأمة الإيمان، وأن يقر الله عينه بولي عهده المحبوب سمو الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه المجيد سمو الأمير مولاي رشيد وكافة أسرته الملكية الشريفة إنه سميع مجيب.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه، وعلى آله وصحبه، ومن اقتدى بهم وسار في سبيلهم بقوة وعزم وايمان، لتبليغ رسالته بالقلم والبرهان، وتمكينها من الناس بالحجة والبيان.

مقدمة

ابن عبد البر علم من أعلام الحديث والفقه الاسلامي الممتازين، وقمة شامخة من شواهق العلوم الاسلامية والتاريخية، ترك أثرا خالدا في الحديث والفقه والسير والتراجيم.

وسنرى من خلال بحثنا هذا آثاره في الحديث والفقه والتراجم والسِّير، لم يتردد صداها في الغرب الاسلامي وحده، بل تعداه الى غيره في المشرق، وظل يرسل اشعاعه الوضاء، جيلا بعد جيل.

وعلى الرغم من احتلاله هذه المكانة الممتازة، فانه لم ينل ماهو أهل له من التقدير والعناية، اذ كثير من المؤرخين والباحثين، لم يولوه ما يستحقه من عناية، ولم يُقبلوا على دراسة آثاره دراسة علمية دقيقة، ولعل هذا راجع الى عوامل عديدة، صرفت الباحثين عنه أمدا طويلا.

ومن أهم هذه العوامل :

أولا : فقد معظم آثاره ومصنفاته، في النكبة التي حلت بالأندلس، فقضت على معظم الآثار الاسلامية فيها.

ثانياً : ما بقي من التراث الأندلسي، تبدد بين مكتبات العالم العامة والخاصة، وبعضه لحقه التلف نتيجة الاهمال.

ثالثاً : ما تم طبعه من هذا التراث قليل جدا.

رابعاً : ترجم لابن عبد البر كثير من كتب السِّيَر والتراجم، لكن ترجمته جاءت في كل منها واحدة مكررة، فما تراه هنا تجده معادا بأسلوب آخر هناك، لا يختلف عنه في شيء الا بعض الكلمات.

هذا، ولقد قرأت لابن عبد البر النمري، منذ بضع سنوات خلت، وخاصة موسوعته الكبرى في الحديث والفقه «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» فرأيتني أواجه منهجا وأفكارا وعبارات، لا عهد لي بها فيما قرأت من كتب الأقدمين، ودفعني ذلك الى قراءة ما تيسر لي من مؤلفاته الأخرى، فاذا بي أزداد اعجابا وتعلقا به كلما وقعت منها على جديد، ثم اذا بي أنا مسوق من حيث أدري أو لا أدري الى متابعة حياة الرجل وسيرته في كتب التاريخ والتراجم والسير، حتى اغرتني بالاستزادة والاندفاع نحوه. خاصة وأن العلماء اتفقوا على أنه حافظ المغرب، وامام الأندلس ومجتهد ها في المذهب المالكي، وسني العقيدة وأنه محدث فقيه، ومؤلف كبير.

ومساهمة مني في احياء التراث المغربي الاسلامي، خاصة وأن ابن عبد البر يعد من التراث المغربي الخالد الذي يجب أن يحيى، كما أن له دورا كبيرا في فتح باب الاجتهاد بعد ما أغلق، واحياء السنة النبوية بمؤلفاته وآرائه واستنباطاته، ونظرا لمكانته العلمية، اخترته ليكون موضوعا لرسالتي لنيل «دبلوم» الدراسات العليا في العلوم الاسلامية.

لهذا، عزمت أن أدرس هذه الشخصية التي لم يسبق أحد الى دراستها دراسة شاملة وعميقة في رسالة تنتظم ما تناثر عنها في بطون الكتب القديمة والحديثة، وتشمل ما لها من كتب مخطوطة ومطبوعة أو مفقودة ، ثم تقارن هذه بتلك ليطلع على ما لهذه الشخصية من التأثير والآثار.

وفضلت أن يكون بحثي لهذا الموضوع خاضعا للمنهج العلمي، وقائما على الطريقة الحديثة، خاصة وأن ابن عبد البر لم يكتب عنه أحد، مثلما فعل مع ابن حزم، فسجلت الرسالة في قسم دبلوم الدراسات العليا في العلوم الاسلامية من دار الحديث الحسنية، واخترت للاشراف عليها أستاذا عرف بحدة الذهن، وعمق

التفكير، وسعة الأفق، فيما سبق له من دراسات، كما عرف فيما ألف وكتب، وبما أشرف عليه من بحوث ودراسات، ياخذ بتلاميذه بأقصى ما يقتضيه البحث العلمي المنهجي، من الأناة والصبر، ورحابة الصدر، والوقوف عند كل المسائل الجليلة والدقيقة.

والحقيقة أني لم أكن بطلا في اختياره، بل الفضل في ذلك، يرجع الى الاستاذ مدير دار الحديث الحسنية، فضيلة الدكتور محمد فاروق النبهان الذي لم يبخل علي بنصائحه وارشاداته الغالية.

ولا يفوتني أن أنوه بالأستاذ سعيد أعراب المحقق البحاثة، الذي قدم لي كل ما يملك من مراجع ونصائح وإرشادات، فجزاه الله عنا خيراً.

هذا، وقد سلكت في بحثي منهجاً يجمل بي أن أبينه، ليقف القارىء على الناحية التي تناولت منها الرجل، وإنها لتكاد تنحصر في عصره وحياته وآثاره.

وكنت عزمت أولا أن أضيف إلى هذه النواحي فقهه واجتهاداته، ولكن وجدت، أن ذلك جدير برسالة أخرى، وأنه لا يستحق أن يدرس في مثل هذه العجالة، بل إن فقه السنة المقارن، أو فقه الحديث لابن عبد البر يتطلب وقتا طويلا ومجلدات للإحاطة به، فتركت ذلك للرسالة الثانية (الدكتوراة)، واكتفيت بدراسة حياته وآثاره تمهيدا لفقه السنة المقارن لدى ابن عبد البر، ولا أقول: إنني أعطيب هاتين الناحيتين ما يستحقان من الدرس والتنقيب، بل إن عملي هذا كنقطة في محيط مترامي الأطراف.

ففيما يتصل بحياته، حاولت جهد المستطاع أن آخذها من مؤلفاته وآثاره الشعرية والنثرية وتلاميذه، فإن لم أجد، اقتبست من كتب التراجم والسير التي اقتبسها الأقدمون من معايشته، أو من مؤلفاته التي ضاعت أصولها، ويعلم الله أني كم قاسيت في البحث عن حياته، خاصة وأن الذين كتبوا عنه لم يزيدوا على صفحة، أو صفحة ونصف على أكثر تقدير، ثم إنهم لم يزيدوا شيئا على ما كتبه

الأول عنه، ومعنى هذا أن كل من كتب عن ابن عبد البر لم يَعْدُ أن يكون ناقلا عن غيره، ومكررا ما قاله الآخرون، وهذا ما جعل عملي شاقا وعسيرا.

أما فيما يخص مؤلفاته، فقد حاولت أن أقف على المطبوع منها والمخطوط، وقفة معني بفهم النصوص، مدرك لضرورة فهمها مستوعبا، فخصصت لها قائمة عامة، ثم كررْتُ إلى بعضها لأدرس من خلالها منهجه وأسلوبه، فاستخرجت من ذلك فصولا ومباحث مفيدة.

وبذلك جاءت أحكامي مُنتزَعة من نصوص كتبه.

وهكذا قسمت بحثي إلى خمسة أقسام :

أولا : المدخل، وأعني به تصوير بيئته الزمانية والمكانية، أي عصره ومكانه.

ثانيا : ـــ حياته.

ثالثا : ـــ آثاره، وأعني بها تلاميذه ومؤلفاته.

رابعا : ـــ ثقافته ومعارفه.

خامسا : الخاتمة، وهي عبارة عن ملخص للبحث ونتائجه.

وعليه، سيشتمل بحثي على مدخل وثلاثة أبواب وخاتمة.

ولابد في المقدمة من الاعتراف بأن عملي هذا لا يزيد على دليل يهتدي به من يريد دراسة حياة ابن عبد البر، وإلا فلا تزال هناك جوانب كثيرة مجهولة تحتاج إلى دراسة أعمق، وإلى بحث أوفى، وإلى كفايات دونها كفايتي وجهدي، والله أسأل التوفيق، وهو نعم المولى ونعم النصير.

المدخـــل

يستهدف هذا المدخل التعريف بطبيعة العصر الذي عاش فيه ابن عبد البر ونشأ وترعرع حتى أصبح عَلَما من أعلام الحديث والفقه الاسلامي، وما اشتمل عليه من وقائع وأحداث، وخصائص ومميزات، كما يستهدف توضيح الحياة الاجتماعية والفكرية وما يتصل بها من خفايا وأسرار. وعليه، نتناول بالبحث جوانب هذه العناصر والعوامل التى تتفاعل فيما بينها موزعة على فصول ثلاثة كالآتي :

الفصل الأول : ـــ ونتناول فيه الحياة السياسية وتأثيرها في ابن عبد البر، ومقارنتها بالحياة السياسية بالمشرق الاسلامي.

الفصل الثاني : ـــ ونوضح فيه الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وأثرها في حياة الأفراد والجماعات هناك.

الفصل الثالث : ـــ ونتناول فيه الحياة الثقافية والفكرية ودورها في تكوين ابن عبد البر.

الفصل الرابع : ونصور فيه قرطبة وتأثيرها في حياة ابن عبد البر الثقافية.

الفصل الأول
الحياة السياسية

أولاً : الصراع على السلطة :

بعد وفاة الحَكَم بن عبد الرحمن الناصر، بدأ الضعف والانحلال يتسرب إلى جسم الدولة الأموية، اذ تولى بعده الخلافةَ ابنُه هشام الذي كان لا يزال طفلا في الثامنة عشرة من عمره،[1]، فأدار شؤونه جعفر المصحفي باسم الحاجب، وكان هناك ثلاثة أشخاص بارزين يتنازعون السلطة، هم : محمد بن أبي عامر مدير الشرطة، وجعفر المصحفي الحاجب، (وكان بمنزلة الأمين العام)، وأم الخليفة «صبح» السكنشية. لم يكن هذا الثالوث الحاكم الذي أوصلته المقادر والظروف والمصادفات إلى سُدّة الحكم أن يوفّق إلى الانسجام، وراح كل من أطرافه الثلاثة يعمل خُفيةً على الاستئثار بالسلطة، ويفيد من نقاط الضعف من منافسيه، وكان محمد بن أبي عامر أقوى الثلاثة شخصية وأبعدهم نظرا، وأوفرهم فِطنة وحُنْكة،[2] فتميز بكرم نفسه وشجاعته، وإقباله على المعرفة، وبراعته في التصرف لدى المآزق، حتى تمكن من احتلال أرفع منزلة في قلب السيدة «صبح»[3]، واستطاع عن طريقها أن يرتقي فوراً بعد تولية هشام، منصب الوزارة، ويصبح ذا سلطة مباشرة،[4] مما أوغر عليه صدر الحاجب المصحفي، ولكن هذا لم يستطع أن يبدي ما في نفسه، ويظهر ما يخامره من شكوك وريب، ما دامت السيدة «صبح» هي التي

---

(1) ابن الفرضي : تاريخ العلماء، ص : 7، الدار المصرية للترجمة والنشر.
(2) البُغية، ص : 19 ــ مطبعة مجريط 1884.
(3) نفس المصدر.
(4) البغية ص 19 ــ مطبعة مجريط.

تؤيده من جهة، وما دام الصقالبة الذين وضعوا فيه ثقتهم، واحبط مشروعهم الرامي إلى تنحية هشام، لا يزالون ينطوون على غِلٍّ عميق نحوه، وهو ما زال يخشى كيدهم، ويترقب ما يصدر منهم[5]، وبلغه ذات يوم أن جماعة من الغلمان والأرقاء يدبرون خطة لإحداث انقلاب يطيح بالحكام الثلاثة، ويقضي على الخليفة الصبي، فاتخذ احتياطاته بالاتفاق مع ابن أبي عامر أيضا وقضى عليهم، وتمت له السلطة داخل القصر، إلا أن ابن أبي عامر صرف جل اهتمامه إلى تقوية الجيش، ورد هجمات القشتاليين الذين كانوا يقومون بها على المناطق الخاضعة للسلطة العربية، ولما انتصر عليهم ورجع إلى قرطبة، ظهر في أعين الشعب أنه القائد البطل.

أراد الحاجب المصحفي أن يخفف من قيمة هذا النصر، بإلقاء التبعية على تقصير القائد غالب بن عبد الرحمن عامل مدينة سالم، فأشاع أنه توانى، ولقي القبول، غير أن ابن أبي عامر أسرع ــ عند ما علم بالأمر ــ يخطب «أسماء» لنفسه، وأسرعت السيدة «صبح» تبارك المشروع العامري، وتحث على وضعه موضع التنفيذ، وسرعان ما عدل القائد عن مصاهرة الحاجب إلى اتخاذ ابن أبي عامر صهرا له، وما آن زفت «أسماء» في احتفال تاريخي حتى استدعى الخليفة أباها وقلده منصب الحاجب، إلى جانب المصحفي، ثم لم تمض مدة حتى أمر باقالته، وألقى القبض عليه، وصادر أملاكه وأمواله وسجنه،[6] فخلا الجو لابن أبي عامر، وأصبح سيد الأندلس،[7] وبعد أن تخلص من منافسيه، سعى إلى الاستبداد في الدفاع عن الحدود الشمالية، لكن ابن أبي عامر، استغل هذا الخلاف بين الحاجب والقائد، وسعى في خدمة غالب، ورفع مكانته لدى السيدة «صبح» وابنها الخليفة،واستصدر أمره بجعله قائدا للثغر، وإعطائه لقب «ذي الوزارتين» وهكذا أصبح الجيش بيد ابن أبي عامر، فعزل من عزل، وولّى من ولّى، وطهر العاصمة «قرطبة» والقوات المسلحة من عناصر الشغب والفساد.

(5) البغية ص : 19 ــ مطبعة مجريط.

(6) نفس المصدر السابق.

(7) نفس المصدر السابق.

لم يبق أمام الحاجب المصحفي، إلا أن يعمد إلى خطة يتدارك بها انهيار مكانته، فحاول استمالة القائد غالب، وخطب ابنته «أسماء» لابنه محمد بالأمر، فحجر على الخليفة، وعزله في قصره، وأحاطه بالمغريات والملهيات، وبعد هذه الحوادث، بدأت الوحشة بين أبي عامر والخليفة هشام وأمه «صبح»، فقام صراع عنيف بين الخليفة وابن أبي عامر انتهى باستلائه على السلطة، واستتب له الأمر في ظل الخليفة الأموي.

ثانياً : **أحداث عاصفة** :

لم تكن هذه القلاقل إلا توطئة لقلاقل أدهى وأعظم، رمت بالأندلس من شاهق الذروة التي بلغتها، إلى هاوية الفوضى والاضطراب والعذاب، اذ الأسلوب الذي اتبعه المنصور في تحقيق سلطانه كان حافزا لغيره على اتباعه والعمل بمقتضاه، ولكن هذا الغير لم يكن يتمتع بما تمتع به المنصور من الكفاءات والميزات، اذ لما توفي المنصور في عام 392هـ[8] أقبل ابنه عبد الملك إلى قرطبة، فاستصدر أمرا من الخليفة بتوليته الحجابة،[9] وعاد إلى قصر أبيه بالزاهرة، ليعيد سيرة أبيه في الحياة العامة، حيث استمر فارضا وصايته على الخليفة هشام، على الرغم من أن هشاما قارب الثلاثين سنة من عمره،[10] ولكن وصاية عبد الملك الملقب بالمظفر،[11] لم تدم أكثر من عامين، حيث مات فخلفه في الحجابة أخوه عبد الرحمن[12] فأساء السيرة وبسط يده في أموال الناس، فأبغضوه، وكان خليعا مستهترا.

يقال : انه سمع مؤذناً ينادي «حي على الصلاة» فقال : لو قلت : «حي على الكأس لكان خيرا» ولم يكتف بوصايته على الخليفة، بل تطلع إلى

(8) البُغْيَة، ص 19 ــ طبعة مجريط.
(9) البغية، ص 19 ــ طبعة مجريط.
(10) البغية، ص 19 ــ طبعة مجريط.
(11) البغية 1/ ص 19 ــ طبعة مجريط.
(12) البغية 1/ ص 19 ــ طبعة مجريط.

الخلافة، فأرغم هشاما على أن يوليه عهده، فثارت ثائرة الشغب، وتطلع المخلصون إلى استعادة قوة الخلافة الأموية، خصوصا وأن الحاجب المنصور وأبناءه انحازوا إلى البربر،[13] فهاجمت الجماهير قصر الخليفة هشام، وأرغموه على أن يتنازل عن الخلافة إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار[14] الأموي وبايعوه بالخلافة، وتلقب بالمهدي، ولكنه كان أحمق طائشا، فاضطهد البربر، وأطلق أيديهم في النهب والسلب، وبعد أيام أمر بكف أيديهم، ثم نهب هو ما استطاع، وامتد شره إلى زعماء بني أمية أنفسهم وإلى الصقالبة، فاتجه الجميع إلى سليمان بن الحكم الأموي، وبايعوه بالخلافة باسم المستعين[15] بالله، وقامت فتن عديدة، وثورات عنيفة، وحروب رهيبة.

أولها : ما يسمى في تاريخ الأندلس بالفتنة البربرية،[16] وقد بدأت هذه الأحداث أي أحداث الفتنة البربرية عند ما أراد هشام بن عبد الجبار الأموى الملقب بالمهدي، أن يتخلص من العامرية، وكان العامريون ـــ كما سبق ـــ قد تولوا زمام السلطة في الأندلس، أما الخليفة فكان صوريا، واسما بلا مسمى.

وقد وصف المؤرخون أحداث الفتنة البربرية، بأنها كانت أقسى وأفظع الفتن التي وقعت في الأندلس، فقد كانت حوادثها من الهمجية والقسوة، بل دفعت كثيرا من العلماء إلى الهجرة والرحيل من قرطبة إلى غيرها من المدن الأندلسية، ومنهم الإمام ابن عبد البر مترجمنا، اذ هي السبب في دفعه إلى الهجرة من قرطبة مسقط رأسه، لأنها فتكت بكثير من العلماء أمثال ابن الفَرَضي.[17] الذي قال فيه أبو عمر ابن عبد البر : «قتلته البربر في سنة الفتنة، وبقي في داره

---

(13) احمد الضبي : البغية 1 /19 ـــ طبعة مجريط 1884.

(14) المصدر السابق نفسه.

(15) احمد الضبي : البغية 1 /21 ط. مدريد 1884. تاريخ ابن خلدون ج 4/ 150. والبيان المغرب ج 3/56ـــ61. ونفح الطيب ج 1 /279 ط. الرفاعي.

(16) احمد الضبي : البغية 1/21 ط. مجريط 1884.

(17) احمد الضبي : ص 21، ط. مجريط 1884.

ثلاثة أيام مقتولا، وحضرت جنازته»[18]، وكذلك الزعماء والنساء والأطفال، واستباح العامة لأنفسهم هتك الأعراض، وخطف الحرائر، وبيعهن في الأسواق، ومَدّ المستعين يده إلى الأمراء المسيحيين بالشمال وأباح لهم اقتحام قرطبة، ففتك المسيحيون والبربر بالعرب فتكا ذريعا، وكالوا لهم الصاعَ صاعيْنِ،[19] ويروي ابن عذاري أن المسيحيين قتلوا تحت راية المستعين نيفاً وثلاثين ألفا من المسلمين،[20] وتنازل لهم المستعين عن كثير من الحصون، واقتحم معهم الزهراء، فوجد سكانها محتمين بالمسجد الجامع، فلم يَرْعَ للمسجد حُرْمَةً،وهنا انفرط العِقْد، واقتصر نفوذ المستعين على قرطبة وثلاث مدن أخرى : لأن البربر والصقالبة تواثبوا على المدن الكبرى وأعلنوا إنشاء ولايات جديدة مستقلة، وقامت عدة إمارات عربية، وحاول بعض الأمويين، مثل عبد الرحمن بن هشام المستظهر والمستكفي بالله، وهشام الثالث، أن يعالجوا الموقف، ولكنهم كانوا أقصر وأضعف وأعجز، وانتهت خلافتهم سنة 422.

وهكذا تمزقت الخلافة الأموية شر ممزق، وحلت محلها ملوك الطوائف.

ثانيها : ثورة أهل قرطبة على القاسم بن حمود، وطردهم له سنة 413 هـ.

ثالثها : ثورة أهل قرطبة على الخليفة المستظهر بالله الأموي وفتكهم به سنة 414هـ.

رابعها : ثورتهم ضد الخليفة المستكفي بالله وعزله ونفيه سنة 416هـ.

خامسها : ثورتهم ضد البربر وإسقاطهم حكم العلويين بني حمود وإرجاعهم الأمر للأمويين سنة 418هـ.

---

(18) الصلة، ج1/249.

(19) البغية ــ ص 21، طبعة مجريط 1884.

(20) ابن عذاري : البيان المغرب ج1 /94ــ102.

سادسها : ثورتهم ضد الخليفة المعتمد بالله وإسقاطهم الخلافة الأموية لآخر مرة، ونفيهم آخر خلفائها المعتمد بالله، ونفيهم أمية الذي شاء أن يخلعه ويتمسك لأسرته بالخلافة سنة 422هـ.[21]

وهذه فتن سقناها وذكرنا رؤوسها مختصرة، تلافياً للتطويل، وخوفاً من الخروج عن الهدف الذي سقناها من أجله، وهو تصوير عصر ابن عبد البر، وتجاوبه معه، وتأثره به.

ثالثاً : **ملوك الطوائف** :

انفرط عِقد الخلافة الأموية، وتمزقت الأندلس الى ولايات صغيرة ومتعددة، سميت في التاريخ الاسلامي بملوك الطوائف، وسأذكر هنا لائحة بأسمائها اجمالا، ثم سنتكلم عن بعضها بشيء من التفصيل، نظرا لما لابن عبد البر من الاتصال بهم حيث كانوا خير مساعديه في الحياة، وخاصة الحياة الثقافية والفكرية.

وها هي قائمة[22] بهم تتضمن الزمن والمكان اللذين عاشوا فيهما :

1) الدولة البربرية : (1015ـــ1090) في غرناطة.
2) الدولة الحمودية : (1035ـــ1057) في مالقة.
3) الدولة الهودية : (1039ـــ1110) في سرقسطة.
4) الدولة العامرية : (1021ـــ1065) في بلنسية.
5) الدولة العبادية : (1023ـــ1091) في إشبيلية.
6) دولة بن الافطس : (1022ـــ1092) في بطليوس.
7) الدولة الجهورية : (1031ـــ1070) في قرطبة.
8) دولة بن ذي النون : (1036ـــ1085) في طليطلة.
9) دولة بني الأحمر : (1231ـــ1391) في غرناطة.

---

(21) هذه التواريخ كلها منقولة من مقدمة البغية.
(22) هذه القائمة مأخوذة من تاريخ الادب العربي لحنا الفاخوري، ص 789، ط.2

ظلت الأندلس ممزقة هكذا، الى أن وحدها يوسف بن تاشفين الملك المغربي العظيم، وضمها الى عدوة المغرب سنة أربع وثمانين وأربعمائة.[23]

رابعاً : دول لها علاقة بابن عبد البر :

أما الدول الذين أحاطوا ابن عبد البر بالعناية والرعاية، وعاش فترة من حياته في كنفهم، وتحت ظلهم فهي :

1 ــ الدولة العامرية في بلنسية (412ــ478هـ 1021ــ1080م)

أسس هذه الدولة أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري، وكان مولى روفيا من موالي[24] عبد الرحمن الناصر، كان يحب العلم والعلماء، يقربهم ويغدق عليهم من عطاياه، وكان شجاعا، فجمع موالي العامريين وذهب بهم الى شرق الأندلس، فاستولى على دانية والجزر القريبة منها.

وكان أبو الجيش مجاهد يمتاز بكفاءته الإدارية وحبه الشديد للعلم والعلماء، فاجتمع لديه جملة من مشيختهم، ومشهور طبقاتهم، فكان وزيره أبا العباس أحمد ابن رشيق الكاتب،[25] الى جانب بعض العلماء، كأبي عمرو الداني،[26] وابن سيده،[27] وكان له علماء يصنفون له الكتب، في مواضع مختلفة، وخاصة في علوم القرآن حتى اشتهرت دانية في عهده، فكان أهلها أقرأ الناس وأكثرهم معرفة بعلوم القرآن.[28]

---

(23) أحمد الضبى : 32/1، طبعة مجريط 1884.
(24) أحمد الضبى 1 /457 فقرة 1379، ط. مجريط 1884.
(25) جذوة المقتبس ص 114. بغية الملتمس 166.
(26) نفح الطيب 1 /386. معجم الأدباء 5 /36.
(27) بغية الملتمس 405. وفيات الأعيان 1 /342.
(28) معجم البلدان لياقوت ــ ط. بيروت.

ولما يمتاز به هذا الملك، ولحب أهل دانية لعلوم القرآن، ذهب أبو عمر بن عبد البر إلى دانية، وألقى بها عصا الترحال.[29]

2 ــ دولة بني الأفطس :

قامت دولة بني الأفطس في بطليوس[30] من سنة (421ــ487هـ 1030ــ1094م)، وكانت دولة متحضرة، نهضت بالعلوم والفنون، مع أنها بربرية من مكناسة، ولكنها نشأت في الأندلس، وتخلقت بأخلاق أهلها، ويقال ان ابن عبد البر ألف كتاب البهجة للأمير المظفر بن الأفطس.[31]

3 ــ الدولة الجهورية :

وقامت الدولة الجهورية في قرطبة من سنة 422ــ461هـ (1030ــ1068م)، بعد أن زالت خلافة المعتضد، وسقطت الدولة الأموية، وصار الأمر بقرطبة الى الجماعة الارستقراطية، وكان عميد هذه الجماعة أبو الحزم جهور، فاستولى على الحكم، واستقل بالملك.[32]

وقد أتينا بهذه الأحداث السياسية الرهيبة، لنستخلص منها الأمور الآتية :

أحدها أن هذه الفتن العمياء، وهذا التمزق لرقعة الدولة الاسلامية في الأندلس، كانت الخطوة الأولى التي استولى فيها النصارى على هذه الأرض الطيبة الفردوس المفقود.

---

(29) الجذوة ص : 114 ــ طبعة القاهرة.

(30) هكذا ضبطها ياقوت، وضبطها ابن خلكان بفتح الياء قبل الواو الساكنة.

(31) البغية، ص 22 ط. مجريط.

(32) مقتبس من مقدمة البهجة للاستاذ محمد مرسي الخولي ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.

الأمر الثاني أن مترجمنا الامام أبا عُمر بن عبد البر عاينها وشاهد وقائعها المتسلسلة، فأثرت في نفسه تأثيرا عميقا، جعلته يهرب من قرطبة مسقط رأسه بدون اتجاه، ودون قصد أيّ مكان بعينه.

الأمر الثالث، أن قيام ملوك الطوائف ساهم في انتعاش الحركة العلمية، وخلق تنافسا شديدا بين ملوك الطوائف في الحصول على العلماء والشعراء، وبناء المدارس العلمية، الأمر الذي دفع عجلة الحياة الفكرية الى الأمام.

الأمر الرابع، هو أن الحالة القلقة لدول ملوك الطوائف والاضطرابات التي عمت الأندلس، كانت تعكس ظلالها على نفوس الأدباء والعلماء، فتجعلهم يتحولون من مكان الى آخر باحثين عن الاستقرار، والاطمئنان النفسي والجسمي، حتى يتفرغوا الى الانتاج والابتكار.

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

كان المجتمع الأندلسي يموج بعناصر مختلفة من البشر، فقد أصبح يتألف من عدة طبقات تتفاوت في الحقوق والاعتبار، وهذه الطبقات هي :

1 ــ العرب الذين قاموا بدور هام في تاريخ هذه البلاد، حيث كان لثقافتهم وللغتهم ولصورهم البيانية السلطان الكامل، وكانوا سادة البلاد وقادتها، ولكن قيام العصبية بينهم قد أتاح الفرصة لمسيحيي الشمال الفرصة بشن غاراتهم على المسلمين، حتى استردوا بلادهم نهائيا سنة 1492هـ.

2 ــ البربر الذين تحملوا أعباء الفتح وأكثره، ولكنهم خرجوا على أمرائهم واحتلوا الأماكن الهامة في البلاد، ومن هؤلاء :

ــ أسرة بني ذي النون.
ــ ابن عباد
ــ ابن الافطس
ــ ابن أبي عامر
ــ ابن هود.

3 ــ أهل البلد الذين انقسموا الى فريقين : فريق تمسك بالديانة القديمة، وفريق أسلم وعرف باسم المستعربين أو المسالمين، وقد تمتعوا بنصيب وافر من التسامح الديني والحرية الاجتماعية.

4 ــ اليهود، وقد كان لهم دور هام في الأندلس، حتى كانوا يقاربون المسلمين في الحياة الاجتماعية، اذ تمتعوا بكثير من التسامح الديني والسياسي حيث

أسند اليهم كثير من المناصب، وأصبحت قرطبة مراكز للدراسات العبرية، واشتغل كثير منهم بالعلوم والآداب والطب والفلسفة.[1]

5 ــ الرقيق، وقد نال الرقيق كثيرا من الحقوق المدنية، فزرعوا الأرض، واشتغلوا بالتجارة، إلا أنهم كانوا يؤدون الخراج للدولة.

6 ــ الصقالبة، وكان بجانب هذه العناصر، الصقالبة الذين كانوا يجلبون من أسرى الحروب، ومن القرصنة البرية والبحرية، وقد اعتنقوا الدين الاسلامي، وأصبحوا من سكان الأندلس.

7 ــ الجواري، إن الغزوات الكثيرة التي غزاها المسلمون في جنوب فرنسا وغيرها من حوض البحر الأبيض المتوسط ومن جزره، وعودتهم بكثير من السبايا من هذه الحروب، قد خلقت طائفة من الجواري، الحسان، كان لهن شأن في المجتمع الأندلسي، فانهن تثقفن ثقافة أدبية عالية، فأثرن كوامن النفس العربية المرهفة الحس نحو الجمال.

وقد تكون من هذه العناصر وتلك الأخلاط المجتمع الأندلسي.

وكانت هناك بجانب هذه الطبقات، طبقةُ الفقهاء الذين اشتد نفوذهم بالاندلس منذ أيام الدولة الأموية،[2] ثم زاد اشتدادا في عهد المرابطين الذين يرجع الفضل في تأسيس دولتهم الى الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين. وقد صور هذا النفوذ الفقهي شاعر الأندلس أبو جعفر بن محمد المعروف بابن البني[3] بقوله[4] :

أهل الرياء لبستموا ناموسكم ... كالذئب ادلج في الظلام العاتم
فمَلَكتموا الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتموا الأموال بابن القاسم

---

(1) المقري : نفح الطيب، ج1 / 280ــ281، سير توماس : الدعوة الى الاسلام ترجمة ص 216. وتاريخ الاسلام السياسي والديني ج630/4 ط. 10.

(2) تاريخ الاسلام السياسي والديني ج631/4 الطبعة الاولى.

(3) من أدباء جيان بالأندلس.

(4) غوستاف لوبون : حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص 275ــ276. ط3.

وتميزت الحياة الاجتماعية في الأندلس، بالتسامح الديني الواسع، وعدم التعصب، طبقا لما يدعو اليه الدين الاسلامي من احترام النصارى واليهود.

كان الدين الاسلامي هو الدين الرسمي للدولة في الأندلس، فالقرآن والسنة هما الدستور الذي كان الخليفة يعمل داخل إطاره، وهما القانون المدني والجنائي والتجاري والحربي، الذي يحكم القضاة بمقتضاه، فنصوص القرآن والسنة هي النصوص القانونية التي كان يستند اليها الحكام على اختلاف مراتبهم.(5)

ورغم هذا، فقد كان النصارى واليهود يمارسون شعائرهم الدينية، ويقيمون طقوس عبادتهم داخل الكنائس والبيَع المنتشرة هنا وهناك في البلاد الاندلسية. ومن الأدلة على هذا التسامح، واحترام العرب لمعتقدات الأمم الأخرى، تلك الكثرة من الكنائس التي بناها النصارى في الأندلس، أيام الحكم العربي، وتلك المؤتمرات الدينية التي كانوا يعقدونها، فقد عُقِد مؤتمر في اشبيلية سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة ميلادية،(6) ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عقد سنة اثنتان وخمسين وثمانمائة ميلادية.(7)

وكان مسيحيو الأندلس فريقين : منهم من تمسك بدينه القديم،(8) ومنهم من اعتنق الدين الاسلامي، وهم الأكثرية،(9) والذين ظلوا على دينهم القديم تمتعوا بقسط وافر من التسامح الديني،(10) وكان يحكمهم حاكم من بينهم «الكونت» ولهم ممثل في البلاط، وقاض ومحكمة استئنافية برئاسة الكونت.(11). وكان باب المناصب

---

(5) غوستاف لوبون : حضارة العرب ــ ترجمة عادل زعيتر ص 276 ط 3.
(6) غوستاف لوبون : حضارة العرب ــ ترجمة عادل زعيتر ص 277 ط 3.
(7) نفس المصدر السابق.ج
(8) حسن ابراهيم حسن ــ تاريخ الاسلام السياسي ج4 / 630 الطبعة الاولى.
(9) غوستاف لوبون : حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ص 277 ط 3.
(10) غوستاف لوبون : حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ص 277 ط 3.
(11) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي والديني ج 4 /630 ط. 1.

مفتوحاً للنصارى،[12] بل كانوا يعينون في ارقى المناصب المدنية والحربية[13]، وكان المسيحيون يتكلمون العربية ويصنفون بها الكتب، وينظمون بها الشعر.[14]

ولذلك كان اليهود يتمتعون بجميع الحقوق الدينية والمدنية، وقد ذكر الإدريسي أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلا جنوبي قرطبة، كان أهلها أكثر غنى من بني جلدتها في سائر البلاد الإسلامية،[15] بل وكانت الأندلس في ظل الحكم الإسلامي هي البلد الوحيد في أوربا الذي تمتع فيه اليهود بحماية الدولة ورعايتها.[16]

وقد تكونت البيئة الاجتماعية من عاملين : أولهما اختلاط العرب بالشعوب الأخرى في الأندلس، وثانيهما الرغبة في محاكاة الشرق، فالعرب لما احتكوا بالأندلسيين، تأثروا بعاداتهم وأخلاقهم وطرق معيشتهم، فنشأ عن ذلك مجتمع جديد، له لباسه الخاص، وطعامه، وشرابه. فقد تميزت الحياة الاجتماعية بالفهم الصحيح للمسؤولية الاقتصادية،[17] حيث كان الناس يقدرون العمل، ويحبذون الأكل من عَرَقِ جبينهم، كما كانوا يكرهون التبذير والإسراف، اذ أصبحوا يوازنون بين الانتاج والاستهلاك والدخل والخرج.[18]

كما عاش المجتمعُ الأندلسي في بحبوحة من الترف والنعيم، حيث تمتعوا بجميع أنواع التسلية، من غناء وموسيقى، وخاصة لما دخل زرياب الأندلس، فقد أثر هذا تأثيرا عظيما على المجتمع الأندلسي في الموسيقى والغناء، وفي الطعام وآداب المائدة، فقد علم زرياب أهل قرطبة أرقى أنواع الطهي البغدادي،[19] وأتى بأشكال

(12) غوستاف لوبون : حضارة العرب ــ ترجمة زعيتر ص 276 ط 3.

(13) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني ج4 / 630 ط 1.

(14) نفس المصدر السابق.

(15) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني ج4 / 630 / 1.4. مقتبس من الادريسي في كتابه (صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس) (ليدن 1866) ص 205.

(16) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص 277، ترجمة عادل زعيتر ط 3.

(17) د. احسان عباس : تاريخ الادب الاندلسي : سيادة قرطبة ص 24، طبعة دار الثقافة ــ بيروت.

(18) د. إحسان عباس : تاريخ الادب الاندلسي ص 24، ط. دار الثقافة ـ بيروت.

(19) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي، ج 4 /633، ط. 10.

وأنماط جديدة في تنظيم الموائد، كما فتح في قرطبة معهد جمال كان يدرس فيه فن التجميل، وعلم أهل الأندلس كيف يصبغون شعورهم، ويفرقونه في وسط الرأس،[20] فأصبح الأندلسي، له حياة خاصة به، تختلف كل الاختلاف عن غيرها من الأوطان الأصلية لتلك العناصر.

وهكذا لما احتك العرب بالأندلسيين، تأثروا بعاداتهم وأخلاقهم، وطرق عيشهم، وظهر ذلك بنوع خاص في لباسهم، ومشاركة نسائهم لرجالهم في العلوم والفنون، وفي أساليبهم الحربية الجديدة، وفي نظم حكمهم.

وتميزت الحياة الاجتماعية في الأندلس بالفهم الصحيح للمسؤولية الاقتصادية،[21] فقد كانوا يحبون العمل ويقدرونه، ويقتصدون في معيشتهم، بحيث كانوا يتقيدون بميزان المدفوعات، أي يوازنون بين المداخل والمصارف، وهذه العادة في الاقتصاد، قد نقلها الينا نحن المغاربة الأندلسيون. فنجد في تطوان وفي فاس وغيرهما من المدن المغربية ينزع الناس الى هذا الأسلوب في حياتهم المالية.[22]

ولقد تكون من هذا المزيج، الذي جمع أكرم السلالات، كما جمع أعتقها، فجاء أهل الأندلس كما قال المقري : «... عَرَبٌ في الأنساب والعزة والأنفة، وعلو الهمم، وفصاحة الأندلس وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل والسماحة بما في أيديهم والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية، هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها، وضبطهم لها، وروايتهم، بغداديون في فطانتهم، وظرفهم، ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم، وحسن نظرهم وجودة قرائحهم، ونظافة أذهانهم، وحدة أفكارهم، ونفوذ خواطرهم.[23]

أما المرأة الأندلسية، فقد كان لها نفوذ واسع، لا تقل في ذلك عن أختها المشرقية، في مدى النفوذ السياسي، فقد كانت ذات سلطان واسع في أيام هشام

(20) نفس المصدر السابق.
(21) تاريخ الادب الاندلسي : عصر سيادة قرطبة، ص 24، ط. دار الثقافة ــ بيروت.
(22) معطيات الحضارة المغربية لعبد العزيز بن بن الله ج 1 / 42 ــ دار الكتب العربية ــ الرباط.
(23) نفح الطيب. ج2 / 123 ط. 1 ــ المطبعة الازهرية.

ابن عبد الرحمن، وكذلك طروب جارية عبد الرحمن[24]. ولعل المكانة التي بلغتها المرأة هي التي جعلت فقهاء قرطبة يتجادلون في نبوة المرأة[25].

وكان أهم الخلفاء الأندلسيين، والأمراء، وملوك الطوائف، هو مضاهاة العباسيين، ومنافستهم في كل شيء، فقد بنوا قصورهم مثل قصورهم، وأرق منها[26]، ومن مظاهر هذا التقليد أنهم كانوا يسمون مدنهم وشعراءهم وخلفاءهم بأسماء مدن الشرق وشعرائه وخلفائه، فيدعون غرناطة دمشق، وإشبيلية حِمْص[27]، ويلقبون أبا غالب الأندلسي بأبي تمام، وابن زيدون بالبحتري، وابن هانيء بالمتنبي. ونرى بين أمراء الطوائف الرشيد والمامون والمتوكل والناصر، وغيرهم.

أما من الناحية الدينية، فقد كان بجوار الجِدّ في القيام بالشعائر الدينية، والتستر بالمنكرات، وكسر أواني الخمور، والعناية بجمع الكتب، كان اللهو الماجن أحيانا في منتزهات المدن الأندلسية، وكان للقول الماجن فيها رواد وعشاق.

والواقع أنه كلما تفشى الفسق والفجور في مجتمع ما، إلا وقامت جماعة بجانبه برد الفعل، فيكثر التصوف والزهد.

ولا شك أن هذا الجو الاجتماعي كان له أثر في نفس ابن عبد البر، وفي فكره.

---

(24) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص 25 ط. دار الثقافة بيروت.

(25) الجذوة ص 89. طبعة القاهرة.

(26) غوستاف لوبون : حضارة العرب ــ ترجمة عادل زعيتر ص 282ــ299. ط. 3.

(27) ابن عبد البر : البهجة ج1 / 244، الدار المصرية للترجمة والنشر.

الفصـــل الثالـــث

الحيـــاة الثقافيـــة

بقدر ذلك الاضطراب السياسي، وذلك التباين في العناصر الاجتماعية، في عصر ابن عبد البر، كان الازدهار الثقافي، والنهوض العلمي قائما على أشده، فقد ازدهرت الثقافة الاسلامية، والأدبية، والتاريخية، والطبية، والصوفية، والفلسفية، ازدهارا عظيما، وحسبنا أن نرجع إلى طبقات الأمم لابن صاعد الأندلسي، وإلى المكتبة الأندلسية[1]، وإلى نفح الطيب، وغيرها لنعرف مقدار ما بلغته الثقافة الأندلسية من نمو وازدهار[2]، وكان التعليم على عهد الحكم المستنصر يتسم بأمرين : أحدهما الالتزام، والآخر المجانية[3]، وهذا لم يكن من قبل الحكومة، وانما فرضته البيئة الاجتماعية.

وقد اعتنى حكام الأندلس، عناية فائقة، باستقدام كبار علماء الشرق، وشعرائه وأدبائه، ومن أبرز أعلام الشرق الراحلين إلى الأندلس، أبو علي القالي، صاحب الأمالي[4]، وصاعد الشاعر البغدادي[5]، وزِرياب، الفنان العظيم في الموسيقى والغناء، وطرق الحياة الاجتماعية الراقية.

هذا، ومن أشهر العلماء الاندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق رحلة علمية، عبد الملك بن حبيب، ومنذر بن سعد البلوطي، وابن الفَرَضي شيخ ابن عبد البر، وأبو الوليد الباجي وغيرهم من أعلام الأندلس، وأصبحت الأندلس بهؤلاء سراجا وهاجا يضيء ما حوله.

---

(1) كتب التراجم والتواريخ الاندلسية.

(2) الادب الاندلسي للاستاذين : أحمد بلافريج، وعبد الجليل خليفة ص 39، مطبعة الوحدة العربية بتطوان 1940، مقتبس من محاضرة ريبرا.

(3) المصدر نفسه.

(4) البغية ص 216 ــ طبعة مجريط 1884.

(5) البغية ص 306 ــ طبعة مجريط 1884.

وكانت الثقافة الأندلسية متعددة الجوانب، ومتشعبة الفروع، إذ نهضت جميع العلوم بدون استثناء، إلا الفلسفة التي كانت محاربة من طرف الفقهاء، اللهم ما كان يُدرس منها سرا.

وقد بدأت العلوم الدينية في الأندلس بانتقال بعض الصحابة والتابعين، نذكر منهم : المنيذر أو المنذر على اختلاف فيه[6]، وهو صاحبُ جليل، وموسى ابن نُصير، وهو من التابعين[7]، وعلي بن رباح[8]، وحنش[9] بن عبد الله الصنعاني، كانوا جنودا في الجيش الفاتح، وحملة من حملة العلم، فهؤلاء غرسوا البِذْرة الأولى في العلوم الاسلامية في الأندلس، وكانت العلوم الدينية حينذاك عبارة عن قرآن كريم يُتلى ويُحفظ، ويُقرأ بالقراءات، وحديث يفسر عن النبي ﷺ ، وغزواته.

هذه هي الطبقة الأولى من علماء الدين، أما الطبقة الثانية فكان من أشهرهم ثلاثة رجال : عبد الملك بن حبيب السُلَمي، ويحيى بن يحيى الليثي، وعيسى بن دينار، الذين نشروا العلوم الدينية في الأندلس، وبعدهم جاءت طبقة أخرى دفعت بالعلم نحو الأمام خطوة جديدة، وهم أشياخ شيوخ ابن عبد البر، ومنهم قاسم بن أصبغ[10]، وبقي بن مخلد[11]، وابن وضاح[12]، وغيرهم، وهاتان الخطوتان كانتا مقتصرتين على التقييد والجمع والحفظ، والتقليد، ثم تلتها خطوة ثالثة في العلوم الدينية، وهي التوسع في استنباط الأحكام من القرآن، والأحاديث الصحيحة[13]، ونبذ التقليد والرجوع إلى الأصول، وربما كان خير من يمثل هذه

---

(6) أحمد أمين : ظهر الاسلام 3 /48 — 49 — 50.

(7) تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ج2 / 146، الدار المصرية للترجمة والنشر، واحمد أمين : ظهر الاسلام ج2 /48 — 49 — 50.

(8) تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ج1 /310 — الدار المصرية للتأليف والترجمة 966

(9) البغية ص 263 — طبعة مجريط 1884.

(10) تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ج2 /364، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966.

(11) تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ج1 /91، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966.

(12) تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ج 2 /14، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966.

(13) ظهر الاسلام 3 /50.

الطبقة الإمام أبو عمر بن عبد البر[14]، وقد كثر بين هؤلاء القراءُ والمحدِّثون وشاع في دراساتهم المناداة بالسماع، والدعوة إلى التعويل عليه في مختلف العلوم.

وكانت دراسة القرآن والقراءات والحديث والعلم هي الأمر المطلوب في تلك العهود من تاريخ الاسلام، وكان هذا النوع الأساس الضروري لكل من يرغب في التوسع في العلم والتقدم في المعرفة، والقدر الكافي لمن يريد أن يكون بصيرا بشؤون دينه ودنياه[15].

هذا، ولم تكن المائة الثالثة تؤذن لشمسها بالغروب، حتى أخذ مصباح الاجتهاد ينكشف ضوءه، فبعد أن كانت عقول التابعين مطلقة في رياض القرآن والسنة، تستنبط منهما الأحكام، وتقضي بهما في الوقائع والأحداث، أصبح الناس يشتغلون عنها بأقوال الفقهاء وآرائهم، ينتصر كل لإمامه، ويسعى في تأييد مذهبه، وإن خالف صريح السنة، فانقسم الناس شيَعا وأحزابا في الفروع، وكانت معركة الجدل والمناظرة بينهم، واستمرت عدة سنوات، وقد سجل هذه المرحلة الإمام ابن عبد البر في كتبه، وخاصة كتاب «جامع بيان العلم وفضله»[16].

وخلال هذه الفترة، رحل كثير من العلماء إلى المشرق، أمثال شبطون، وقرعوس بن العباس، وعيسى بن دينار، وسعد بن أبي هند، وغيرهم، في أيام هشام ابن عبد الرحمن، فلما رجعوا قدسوا مالكا وعلمه، فانتشر في الأندلس رأيه ومذهبه[17]، وكثر الفقهاء بالأندلس على مذهب مالك، وضاق أفقهم الفكري، ولم يكد ينتهي القرن الثالث الهجري، حتى أصبح الفقه علما من العلوم الاسلامية الهامة، ونبغ فيه جهابذة، سلمت إليهم الزعامة الدينية.

ومن الكتب التي اهتموا بها، موطأ الامام مالك، فقد تناولوه بالرواية والدراسة، والشروح، ومن العلماء الذين اعتنوا بها، أبو عمر بن عبد البر مترجمنا.

(14) نفس المصدر.

(15) ابن الأبار : حياته، كتبه، لعبد العزيز عبد المجيد ــ طبعة تطوان.

(16) الجزء الثاني / 133 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(17) النفح 1 /350. ط. القاهرة.

وتمذهب بعض الاندلسيين بمذهب الشافعي، وبعضهم بمذهب داود الظاهري[18]، وجاء المذهب الخارجي مع بعض المهاجرين من افريقية، وكان النكارية هم الغالبين على خوارج الأندلس[19]، وعرف بعضهم الاعتزال مثل أحمد بن موسى ابن حيدر صاحب السكة، الذي كان يقول : ان الله عاقل[20]، وكان ابن مسرة يخلط مذهبه بآراء المعتزلة، ويقول بالقدّر[21]، كما اتهم منذر بن سعيد بالميل إلى هذا المذهب[22].

أما في الأدب والشعر، فقد بلغت الأندلس في هذا العصر الذِروة، حيث أنجبت كتاباً ماهرين كابن حزم، وأبي محمد عبد الله بن الإمام أبي عمر بن عبد البر، الكاتب، وأنجبت شعراء يضاهون شعراء المشرق، فقد تطور الشِعْر الأندلسي، كما تطور الشِعْر العباسي، وانتقل من التقليد إلى التجديد، وذلك بدافع عوامل متماثلة، وبيئة جديدة، كان لا بد لها أن تصبغ الأدب بلون خاص ؛ لأن الأدب هو مرآة حياة الأمة.

وكانت اللغة العربية لغة البلاد الرسمية يحميها الأمراء، ويسعون إلى الوقوف على أقرانهم بالاستعانة بكتاب حاذقين في دواوينهم، وقد أنشئت في البلاد معاهد للعلم كثيرة، ويروى عن الحكم المستنصر بالله أنه أسس في قرطبة وحدها، سبعا وعشرين مدرسة، واهتم الأمراء بحشد الكتب، وأرسلوا البعثات إلى الشرق لابتياع النفيس منها، حتى جمعت الخزانة الملكية نحوا من أربعمائة ألف مجلد، واستعملوا الحذاق في النسخ والضبط والتجليد، ووزعوا عليهم المال ليحافظوا على أوعية العلم هذه، وكان البادىء بهذه الحركة المباركة، الناصر، وابنه الحكم، فأقبل الناس ينهلون العلم والأدب، حتى كثر فيهم سواد المثقفين.

---

(18) ابن حزم : سير النبلاء للذهبي (جزء خاص لترجمة ابن حزم) دار الفكر لسعيد الافغاني.
(19) الفصل 4 /191.
(20) نفس المصدر السابق.
(21) علماء افريقية ص 211ـــ212.
(22) طوق الحمامة ص 45.

أما مراكز الاشعاع العقلي، فكانت العواصم الكبرى، حيث تكثر المدارس، ويتقاطر الشعراء والكتاب من كل صوب وحدب، وأهم تلك المراكز، قرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، وطليطلة.

وهكذا ازدهرت الحركة العلمية والأدبية، وراجت العلوم بأنواعها في الأندلس المسلمة، ولكن الفلسفة كانت تصاب بالعقم بمناوأة المغالين في الدين لها، وكانوا يعتبرونها زندقة، وخطراً يهدد الدين، ولهذا لم تظهر إلا في وقت متأخر، وأول فيلسوف عرف، هو ابن باجة، ثم جاء بعده ابن طفيل، ثم ابن رشد.

ولم تكن للأندلسيين مدارس ومعاهد، وجامعات، خاصة بل كان المسجد هو المدرسة، وهو المعهد والجامعة، ويقوم مقامه أحيانا منزل الاستاذ، حيث كان الطلبة يقصدونه، لياخذوا عنه العلم، ويسمعوا منه الحديث والفقه، وغير ذلك من العلوم، وقد أشار إلى ذلك ابن بشكوال : فقال : «كان هناك أستاذ يقصده الطلبة، وهم نيف على أربعين تلميذا، وأنهم كانوا يدخلون داره في شهر نونبر، ودجنبر، ويناير، في مجلس قد فرش ببسط من الصوف مبطنات، والحيطان باللبود ووسائل الصوف، وفي وسط المجلس كانون في طول قامة الانسان مملوء فحما يأخذ دفئه كل من في المجلس، فإذا فرغ من تدريسهم، قدم لهم الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب، أو ثرائد اللبن بالسمن أو بالزبدة»[23].

وكان الفقه والحديث والعربية هي المواد الغالب تدريسها على جماهير المدرسين والمؤدبين، وكانوا يعتمدون في تدريسهم على الكتب الشرقية، ولذلك هاجرت كتب المشارقة إلى الأندلس بكثرة، ورحل الأندلسيون بأعداد كثيرة إلى المشرق في طلب العلم، وكان الواحد منهم يشرف بين قومه حين يروي عن شيوخ مصر وبغداد وغيرهما في بلدان المشرق[24].

(23) الصلة 1 /41، طبعة مجريط 1884.

(24) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ص : 38. دار الثقافة ــ بيروت.

الفصـــل الرابـــع

قـرطبـــة

كانت قرطبة عاصمة الأندلس، ومقر الحكم الاسلامي في أوربا، ومركز اشعاع روحي وثقافي في العالم الغربي، وقد بلغت في عهد خلافة عبد الرحمن الناصر أوج العظمة والازدهار، ويتبارى مؤرخو الأندلس والمغرب في الإشادة بقرطبة، ووصف قصورها ومنتزهاتها، وروعة مناظرها، وطيب هوائها. فالحجاري يقول في المسهب[1] :

«كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الاسلام، ومجتمع أعلام الأنام، بها استقر سرير الخلافة المروانية، وفيها تمخضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية، وإليها كانت الرحلة في الرواية، إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، وهي في الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، ونهرها من أحسن الأنهار، مكتنف بديباج المروج مطرز بالأزهار، تصدح في جنباته الأطيار، وتنعر النواعر ويبسم النوار، وقرطاها الزاهرة والزهراء، حاضرتا الملك وأفقاه النعماء والسراء، وإذ كان قد أخنى عليها الزمان، وغير بهجة أوجهها الحسان، فتلك عادته، وسل الخورنق والسدير وغمدان وقد أعذر بإنذاره، اذ لم يزل ينادي بصروفه لا أمان لا أمان»[2].

ويروى أن الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المومن قال لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي، (ما عندك في قرطبة)، فقال له العنسي : «ما كان لي أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها».

---

(1) الجزء الاول من نفح الطيب، ص 146ـ147، ط. المكتبة التجارية، تحقيق الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد.

(2) نفس المصدر السابق.

فقال يوسف : «إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حاضرة مُلْكهم لعلي بصيرة، الديار المنفسحة الكبيرة، والشوارع المتسعة، والمباني الضخمة المشيدة، والنهر الجاري، والهواء المعتدل، والخارج النضر، والمحدث العظيم، والشعراء الكافية والتوسط بين شرق الأندلس وغربها. فقال العنسي : «ما أبقى لي أمير المؤمنين لأقول». وفيها يقول بعض علماء الأندلس :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شيء وهو رابعها

وقد وصفها المؤرخ الأندلسي بقوله : «قرطبة أم المدائن، وسرة الأندلس، وقرارة الملك في القديم والحديث، والجاهلية والاسلام، ونهرها أعظم أنهار الأندلس، وبها القنطرة التي هي إحدى غرائب الأرض في الصغة والإحكام، والجامع الذي ليس في بلاد الأندلس والاسلام أكبر منه»(3).

ويعود الحجاري إلى وصفها فيقول : «حضرة قرطبة، منذ افتتحت هي كانت الغاية، ومركز الراية، وأم القرى، وقرارة أولي الفضل والتُقى، ووطن أولي العلم والنهي، وقلب الأقليم، وينبوع متفجر العلوم وقبة الاسلام، وحضرة الإمام، ودار صوب العقول، وبستان ثمر الخواطر، وبحر درر القرائح، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض، وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، وبها أنشئت التأليفات الرائعة، وصنفت التصنيفات الفائقة، والسبب في تبريز القوم حديثا وقديما على من سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب»(4).

وذكر المَقّري في النفح أنه «في بعض التواريخ القديمة، كان بقرطبة في الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدا، وتسعمائة حمام،

(3) نفح الطيب ج2 /9، طبعة المكتبة التجارية، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
(4) نفح الطيب ج1 / 146ـ147، طبعة المكتبة التجارية.

وأحد عشر حماما، ومائة ألف دار، وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصا، وربما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها، هكذا نقله في المغرب»[5].

وقد اشتهر في قرطبة مسجدها الجامع، وكان الذي ابتدأ بناءه عبد الرحمن الداخل ولم يكمل في زمانه، وكمله ابنه هشام، ثم توالى الخلفاء من بني أمية على الزيادة فيه حتى صار يضرب به المثل، ولم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء، وكان هذا الثامن هو عبد الرحمن الناصر.

ويقول الدكتور حسين مؤنس : «مسجد قرطبة الجامع هو ــ دون شك ــ أضخم عمل معماري قام العرب به في الشرق أو الغرب على السواء...»[6].

وبعد أن انتقلت الخلافة إلى الحَكَم المستنصر بالله، أنشئت المدارس والمكاتب، وبلغت قرطبة في عهده عظمتها، وقمة مجدها، حتى حق لها أن تسمى دار العلوم، فقد بنى فيها الحكم المستنصر سبعا وعشرين مدرسة، جعلها مجانا للطلاب، وأتم بناء الجامع الكبير أعظم مسجد في العالم، الذي كان العلماء والشيوخ يلقون فيه محاضراتهم المختلفة في الآداب والعلوم[7].

وكانت قرطبة قد تحولت في عهد المنصور بن أبي عامر إلى مدينة واسعة بلغت أرباضها (أحياء ضواحيها) احدى وعشرين ربضا، كل ربض منها يعد أكبر مدينة من مدائن الأندلس، وروى أحد المؤرخين أن «المنصور أحب أن يتعرف مقدار ما يدخل قرطبة من جهاتها من أحمال الحطب في اليوم الواحد، فوكل بإحصاء ذلك عدة من ثقاته، فعدوا له راصدين بسائر طرق قرطبة وأنقابها، وكتب كل واحد منهم ما أحصاه، ورفعوا جميعه، فانتهى إلى ستة آلاف حمل وستمائة حمل على اختلافها. وذكر أن الخليفة الحكم وكل من أحصى له ما يباع بقرطبة من

(5) نفح الطيب ج2 / 79، مطبعة المكتبة التجارية.
(6) رحلة الاندلس ص 72ــ73.
(7) تاريخ الادب الاندلسي (عصر سيادة قرطبة) ص 23ــ24 ــ دار الثقافة ــ بيروت.

السمك المملوح المسمى بالسردين خاصة، المجلوب من الساحل، فانتهى البيع فيه، في يوم واحد، إلى عشرين ألف دينار[8].

(8) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص 104 ــ تحقيق الاستاذ أ. ليفي بروفنسال، ط. دار المكشوف ــ بيروت 1956.

البـــاب الأول
حيـــاة ابـن عبـد البـر

تقسيـم :

نتناول في هذا الباب : التعريف بابن عبد البر، وترجمته، ثم نشأته ودراسته، ومن ثم ننتقل إلى الكلام على شيوخه، ثم نشاطه في الحياة العامة، وأخيرا نبين صفاته وأخلاقه ووفاته.

وعليه، ينقسم هذا الباب بالتالي إلى خمسة فصول هي :

الفـصـل الأول : ونبحث فيه «اسمه ونسبه وأسرته وميلاده».

الفصل الثاني : ونبحث فيه «دراسته للعلوم ورحلاته».

الفصل الثالث : ونبحث فيه «شيوخه».

الفصل الرابع : ونبحث فيه «نشاطه في الحياة العلمية».

الفصل الخامس : ونبحث فيه «أخلاقه وصفاته».

الفصـــــل الأول

التعـريـف بابن عبـد البر وترجمتـــه

نوضح في هذا الفصل اسمه وكنيته، ونسبه وأسرته، ثم ميلاده ونشأته.

أولا : اسمه وكنيته :

هو الإمام الحجة، شيخ الإسلام وحافظ المغرب[1]، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النَّمَري القرطبي[2]، وقد لقبه بعض المؤرخين المحدثين بجمال الدين[3]، وهذا ربما خطأ وغير صحيح، وذلك من وجهتين :

أ ــ أن جميع كتب التراجم والسِّيَر الأندلسية، والمغربية القديمة، لم يَرِدْ فيها ذكر لهذا اللقب.

ب ــ أن هذا اللقب لم يثبت عن أهل الأندلس أو المغرب أنهم كانوا يتلقبون به، وانما هو من الألقاب الشرقية، وقائمة الألقاب الأندلسية والمغربية القديمة، لازالت موجودة إلى الآن في بطون كتب التاريخ والتراجم.

وإلى جانب هذا تضاف إلى اسمه ألقاب علمية، ونعوت تقديرية، وصفات شرفية. فقد وصفه بعض المؤرخين بالإمام الحافظ، وأطلق عليه أصحاب التراجم،

---

(1) الذهبي : تذكرة الحفاظ، مجلد 3 /1128، الطبعة الرابعة.

(2) الحميدى : جذوة المقتبس / 344، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، مكتبة نشر الثقافة الاسلامية، طبعة القاهرة.
الضبي : بغية الملتمس ص : 474، فقرة 1442، طبعة مجريط بطبع روخس ــ ابن بشكوال : الصلة.
ابن خلكان : وفيات الأعيان ج 7 /66، تحقيق الدكتور احسان عباس ــ تذكرة الحفاظ، مجلد 3 /1128.

(3) فؤاد افرام البستاني : دائرة المعارف 32 /333 ــ مصطفى العلوي : الأبحاث السامية في المحاكم الاسلامية ــ المرير معهد فرانكو.

شيخ علماء الأندلس، وكبير محدثيها، وامام عصره[4]، وحافظ المغرب مقابل حافظ المشرق الخطيب البغدادي[5]، وأحيانا يطلقون عليه صفة العالم[6].

وفي يوسف ست لغات : ضم السين وفتحها وكسرها مع الواو، وضمها وفتحها وكسرها مع الهمزة عوض الواو، فالمجموع ست لغات، والياء في أوله مضمومة في اللغات الست[7].

والنمري بفتح النون والميم، وبعدها راء نسبة إلى النمر بن قاسط بفتح النون والميم[8]، وانما تفتح الميم في النسبة خاصة استيحاشا لتوالي الكسرات؛ لأن فيه فرحا واحدا غير مكسور وهو النون، ولأن توالي الكسرات الثلاث المتجانسة يحصل بها الثقل في النطق.

أما كنيته : «أبو عمر» ففيها احتمالان : فهو إما كُنّيَ بأبي عمر جرياً على عادة العرب الذين كانوا يُكنون بأسماء أولادهم أو بأسماء آبائهم فيقال لعلي أبو الحسن أو الحسين والحسن والحسين اسما ولدي علي بن أبي طالب، ويقال ليحيى : «أبو زكرياء»؛ لأن زكرياء والد يحيى، وقد كان ابن الأبّار يُكنى «أبا عبد الله»، وعبد الله اسم أبيه[9].

ولكن هذا الاحتمال لم يشر إليه أحد من المؤرخين وأصحاب التراجم؛ إذ لم يثبت أن ابن عبد البر كان له ابن يسمى عُمر، اللهم إلا إذا كان له ولد، ولم يكن له دور في الحياة الفكرية والسياسية، حتى يخلده التاريخ في سجلاته، أو كان له ولد اسمه : عمر، ومات صغيرا، ثم إن أباه كان يسمى عبد الله حتى يمكن أن يقال إنه كني باسمه، إذن،هذا الاحتمال غير ممكن، والاحتمال الثاني، وهو أن ابن عبد البر

(4) ابن خلكان : وفيات الأعيان 7 /66، تحقيق الدكتور احسان عباس، والديباج المذهب ص : 359. ط.1.
(5) الحميدى : جذوة المقتبس 344، طبعة مدريد.
(6) نفس المصدر السابق.
(7) ابن فرحون : الديباج المذهب ص : 359. ط.1.
(8) ابن خلكان : وفيات الأعيان 7 /71، تحقيق الدكتور احسان عباس، وابن فرحون في الديباج المذهب ص : 359. ط. 1.
(9) عبد العزيز بن عبد المجيد : منشورات معهد مولاى الحسن بتطوان.

كني بأبي عمر؛ لأن اسمه يوسف من الأسماء التي تعطى لها كنية أبي عمر، وهذا ــ والله أعلم ــ هو الصواب؛ لأن هذه الكنية من باب الكنى الاصطلاحية لاسم يوسف، كقولهم لعبد الرحمن أبو زيد، ولأحمد أبو العباس، ولمحمد أبو عبد الله، ومهما كان سبب كنية ابن عبد البر، فإن الجهل بذلك لا يضر، ولا ينقص من قيمة ابن عبد البر، أو من قيمة البحث العلمي.

وقد اشتهر ابن عبد البر باسمه العلمي : ابن عبد البر(10)، أو أبي عمر(11)، سواء في كتبه(12)، أو كتب الذين أخذوا عنه، وقد عبر عنه بعض المؤلفين، ومنهم ابن حزم في كتابه المحلى باسمه : يوسف.

وأثناء قراءتي لكتبه(13)، وكتب الذين أخذوا عنه(14)، ومن استقرائي لكتابة اسمه العلمي أو النطق به، استنتجت أن لابن عبد البر اسمين علميين : أبا عمر، وابن عبد البر، فهو كان يستعمل في التعبير عن نفسه في كتبه العلمية(15) والأدبية(16) أبا عمر، فإذا أراد أن يحلل حديثا، أو ينقد، أو يرجح، أو يبدي رأيا يقول : قال أبو عمر.

أما المحدثون والمؤلفون والكتاب والنقاد، فمنهم من يستعمل ابن عبد البر(17)، ومنهم من يستعمل أبا عمر(18)، ومنهم من يضيف إلى أبي عمر ابن عبد البر، فيقول : قال أبو عمر ابن عبد البر(19).

(10) في جل كتب المحدثين وخاصة شراح الموطأ كالزرقاني والسيوطي.
(11) التمهيد ــ الاستذكار ــ الاستيعاب ــ الانتقاء ــ جامع بيان العلم وفضله.
(12) في جل كتب المحدثين وخاصة شراح الموطأ : الزرقاني ــ تنوير الحوالك.
(13) التمهيد ــ الكافي ــ الاستذكار... الخ.
(14) ابن رشد : بداية المجتهد ــ أبو عبد الله الانصاري القرطبي ــ الجامع لاحكام القرآن ــ ابن الجوزية : أعلام الموقعين.
(15) في الفقه والحديث.
(16) بهجة المجالس لابن عبد البر ــ ط.1.
(17) شرح الزرقاني على الموطأ وتنوير الحوالك للسيوطي.
(18) ابن رشد : بداية المجتهد ــ صفحات متعددة ــ أبو اسحاق الشاطبي. الموافقات : ــ صفحات متعددة ــ وكتب أخرى كثيرة.
(19) ابن قيم الجوزية : أعلام الموقعين ص : 77، وما قبلها وما بعدها، دار الجيل.

والأكثر استعمالا سواء في المؤلفات، أو على الألسن هو ابن عبد البر، الذي هو اسم جده الأعلى، فالمتكلمون أو السائلون، لا ينطقون الا بابن عبد البر، سواء المشارقة أو المغاربة، وخاصة في عصرنا هذا، فإذا وقعت مناقشة حول ابن عبد البر، فلا يعبر عنه الا بابن عبد البر. ونحن نستعمل في دراستنا هذه ابن عبد البر، أو أبا عمر بن عبد البر.

ثانيا : نسبه وأصله :

وينتمي نسب ابن عبد البر إلى النمر بن قاسط بن هنب بن أقصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان[20].

والنمر بن قاسط قبيلة من قبائل ربيعة، وبطن منها، وربيعة[21] عدنانية، وبهذا يكون ابن عبد البر قد التقى مع النبي ــ ﷺ ــ في نزار بن معد بن عدنان، اذن فنسبه عربي أصيل، لم تشبه أية شائبة، ولم يطعن أحد فيه.

وتحدثت كتب التاريخ والأنساب عن قبيلة النمر بن قاسط على أنها قبيلة عظيمة، ومشهورة[22]بالفصاحة والكرم حتى صار ينتسب إليها كل من يدعي الفصاحة والكرم[23].

وكانت لربيعة بن نزار عدة بطون، منها أسَد بن ربيعة، وبنو عطية أعيان غرناطة، ومنها النمر بن قاسط جد أولاد عبد البر، وقد انتقلت بطون ربيعة إلى الأندلس، من بلاد الشام؛ إذ لما استقر أهل الاسلام ببلاد الأندلس؛ وتم فتحها صرف أهل الشام، وغيرهم من العرب المضريين واليمنيين همهم إلى الحلول ببلاد الأندلس[24]، ومنهم ربيعة بن نزار التي نزلت بإقليم وادي آش، حيث اشتهر هذا

(20) المقري : نفح الطيب 1 /292، تحقيق الدكتور احسان عباس، مقتبس عن جمهرة الانساب لابن حزم.
(21) محمد أبو زهرة : ابن حنبل : حياته وعصره وآراؤه ص 13، مقتبس عن تاريخ بغداد ج 4 /415.
(22) الذهبي : سير النبلاء ج 2 /16 الطبعة الاولى.
(23) نفس المصدر السابق ــ وفيات الاعيان 7 /71. تحقيق د. احسان عباس.
(24) المقري : نفح الطيب 1 /292 ــ ورسائل ابن حزم، الورقة 250.

المكان باسمهم، كما اشتهرت عدة أماكن بأسماء القبائل الأخرى، التي نزلت بها إبّانَ الفتح الاسلامي للأندلس.

وذكر المؤرخون أيضا أن قبيلة النمر بن قاسط نزلت بحصن وضاح من عمل «ريــة»،[25] ومن هنا يظهر أن بطون ربيعة نزلت بوادي آش أولا، ثم انتقلت بعض بطونها إلى حصن وضاح من عمل «رية»، ومنها النمر بن قاسط، وبهذا يكون أجداد ابن عبد البر انتقلوا إلى قرطبة من «حصن وضاح». والواقع أن العرب حين فتحوا الأندلس، توزعت قبائلهم، وانتشرت في جميع أنحاء الأندلس. ونحن نذكر هنا بعض القبائل والأمكنة التي نزلت بها، ليتصور القارىء المكان الذي نزلت فيه قبيلة ابن عبد البر[26].

بنو صخر من غطفان	: بناحية قرمونة
بنو مــرة	: بالبيرة، ولهم باشبيلية بيت واحد
بنو منذر بن الحارث من ثقيف	: بباجــة
بنو سلــول	: بالمتوسطة من عمل لبلة
بنو نميــر	: بالبراجــة
بنو قشيــر	: بجيان، ومنهم بالميرة عدد
بنو عقيــل	: بمنتيشة وجيان وواد آش
النمر بن قاسط	: بحصن وضاح من عمل رية
عـــــك	: في الجوف شمالي قرطبة.
دوس	: بتدميــر
بجيلـــــة	: بجهة أربونـة
خثعـــــم	: بشذونة ومنهم بالبيرة قوم
همـــــذان	: بالبيــرة

(25) جمهرة الانساب لابن حزم. ط.1 دار المعارف بمصر 1948.

(26) أخذت هذه الجريدة من مواطن متفرقة في كتاب الجمهرة لابن حزم، ويمكن مقارنتها بما جاء في نفح الطيب ج1 /138 ط. بولاق 1302، ونفح الطيب بتحقيق الاستاذ رينهارت دوزى ورفاقه.

بنو الأشعر	: بريـــة
طـــــيء	: ببسطة وتاجلة وغليار
عنـــــس	: بجهة قلعة يحصب
خـــــولان	: بقرطبة والبيرة
المعافـــر	: ببلنسية وجيـــان
جـــــذام	: بشدونة والجزيرة وتدمير واشبيلية
لخـــــم	: بشدونة والجزيرة واشبيلية ومنهم بنو عباد وبنو نمارة
ذورعيـــــن	: بالفحص المنسوب إليهم برية
بنو هـوازن	: بالقريتين المذكورتين بها باشبيلية
بلـــــي	: شمال قرطبـــة
بنو عـــذرة	: بدلاية ويجبان منهم، وبالثغر منهم بنو فوارتش، ولهم عدد بسرقسطة.
بنو قيـــن	: برية عدد عظيم منهم
بنو خشيـــن	: بجيان وأعمال البيرة ومنهم بلبلة عدد[27]

ويبدو في هذه القائمة أن بطون ربيعة نزلت باقليم وادي آش، ومن ثم فإن أجداد ابن عبد البر لما دخلوا الأندلس، استقروا أولا في وادي آش، ثم انتقلت قبيلة النمر بن قاسط إلى حصن وضاح باقليم رية. لكن إذا كانت بطون ربيعة وفروعها نزلت بوادي آش الذي يقع في الجنوب الشرقي من مدينة قرطبة على نهر «أندريش»[28] ثم انتقلت النمر بن قاسط إلى حصن وضاح بعمل «رية» فمتى انتقل أجداد ابن عبد البر إلى قرطبة، وأقاموا فيها أسرةً اشتهرت بالعلم والأدب ؟.

(27) أخذت هذه القائمة من تاريخ الادب الاندلسي (عصر سيادة قرطبة) ــ دار الثقافة بيروت ــ لبنان ص 15ــ16، بعد مقابلتها لجمهرة الانساب لابن حزم، ونفح الطيب السابقين.

(28) ابن حزم : جمهرة الانساب ــ ط. 1 دار المعارف بمصر 1949.
المقري : نفح الطيب 1 /292.
نفح الطيب طبعة بولاق 1302.

إن التاريخ لا نراه يتحدث عن هذه العائلة إلا وهي مستقرة في قرطبة، فلم يحدد اسم الرجل الذي رحل إليها، ولا تاريخ انتقاله...

وكيفما كان الأمر، فالمهم هو أن نسب ابن عبد البر عربي صريح، وأن جنسيته عربية، لا فارسية ولا رومية.

ثالثا : أسرتــه :

بعد أن عرفنا اسمه ونسبه، ومولده ونشأته، ننتقل الآن الى الكلام على أسرته وأفرادها، وخاصة جده وأباه اللذين كانا من فقهاء قرطبة وعلمائها.

ولنبدأ بالكلام على المكان البارز الذي كانت تحتله أسرة ابن عبد البر في عالم الفقه، والحديث والأدب، وكافة العلوم الاسلامية.

إن عائلة ابن عبد البر، قد أنجبت عددا كبيرا من الفقهاء والأدباء، كما كان لها دور كبير في نشر الثقافة الاسلامية، حيث كان لها مركز اجتماعي هامّ سارت الركبان بذكره.

ومن أهم أفراد هذه الأسرة المعروفين :

أ ــ جد ابن عبد البر :

واسمه محمد بن عبد البر النمري من أهل قرطبة[29]، ولد سنة ثلاثمائة هجرية[30]، كان من العلماء العاملين، ومن الزهاد المنقطعين إلى الله[31]، تلقى الفقه والعلم عن صاحبه يحيى بن مجاهد بن عوانة الفزازي اللبري من أهل قرطبة،

---

(29) التكملة لابن الآبار 1 /371 ــ نشر عزت العطار سنة 1375ــ1956، ط.1

(30) إن هذا التاريخ لم يذكره المؤرخون، ولكن استنبطته من مقارنة موت ابنه عبد الله، بموته هو، اذ ورد في التكملة أنه مات قبل ابنه بسبعة أشهر، وهو ابن ثمانين سنة، وأن ابنه مات سنة ثمانين وثلاثمائة هـ. فتكون اذن ولادته ثلاثمائة هجرية.

(31) التكملة 1 /371 ــ نشر عزت العطار سنة 1375 /1956 ــ ط.1

والذي كان يكنى بأبي بكر الفقيه والراوي[32]، كان على حظ من الفقه والحديث، بدليل صحبته لأبي بكر الفقيه والراوي، إلا أن العبادة كانت أغلب عليه.

ولم تذكر كتب التراجم ولا التواريخ، ولا اليسير، عنه أنه حدّث أو روى عنه، فهو في ذلك مثل صاحبه يحيى بن مجاهد بن عوانة الغزاوي[33].

ولم يشر التاريخ، هل رحل إلى المشرق طلبا للعلم، أو حاجّا، مثل صاحبه يحيى بن مجاهد، وكذلك لم يشر هل كان صاحبه شيخا له في العلم والتصوف، على نمط الطرق الصوفية، لكن يظهر من عبارة ابن الآبار : «كان من أصحاب يحيى بن مجاهد[34]»، أنه كان مريدا ليحيى، وأن هذا كان شيخا من شيوخ التصوف.

ولم يذكر التاريخ شيئا عن ثروة جد ابن عبد البر، ولا عن المهنة التي كان يزاولها. ومن المؤكد أنه لم يترك وراءه أي آثار من كتب ورسائل وشعر.

وتوفي جد ابن عبد البر بقرطبة سنة ثمانين وثلاثمائة هجرية[35] بعد صاحبه يحيى بن مجاهد بثمان وعشرين سنة، إذ توفي هذا الأخير، سنة اثنتين وستين وثلاثمائة هجرية.

ومن هنا يكون ابن عبد البر عاش بجانب جده اثنتي عشرة سنة، ولا شك أنه تأثر به، وأخذ عنه كثيرا من الصفات الحميدة.

---

(32) تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ص : 190—191 الدار المصرية للترجمة والنشر.

(33) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ص 191 — الطبعة الاخيرة.

(34) التكملة لابن الأبار 1 /371 — نشر عزت العطار سنة 1375 /1956 — ط.1.

(35) نفس المصدر السابق.

ب ــ أبــوه :

أما والد ابن عبد البر، فهو الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، ولد سنة ثلاثين وثلاثمائة هجرية بقرطبة[36]، وكان يكنى أبا محمد[37]، من فقهاء قرطبة وعلمائها[38].

وقال بعض المؤرخين[39] إنه كان من أهل الأدب البارع والبلاغة، وإنْ له رسائل وشعرا جيدا، ونسب إليه قوله :

لا تكنــون تـأمـــــلا واحبس عليك عنان طرفك
فلـربمـــــا أرسـلتـــــــه فرماك في ميدان حتفـك

ولعل هذا قد التبس عليه الأمر، فان أكثرية المؤرخين[40]، نسبوا هذين البيتين إلى ولد ابن عبد البر لا إلى أبيه، لأن ابنه هو الذي كان من أهل الأدب البارع، والبلاغة الرائعة، وله رسائل وشعر فيه[41]، وعلى كل حال، فوالد ابن عبد البر كان فقيها وأديبا وعالما، وقد درس الفقه والعلم على ابراهيم التجيبي، ولازمه مدة طويلة، وغيره.

ومن الشيوخ الذين قرأ عليهم والد ابن عبد البر وسمع منهم :

أحمد بن مطرف، وأحمد بن سعيد بن حزم، وأحمد بن دحيم بن خليل، وأبو بكر بن الأحمر، ومحمد بن أحمد بن قاسم بن هلال، ولزم أبا ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الفقيه، وتفقه عنده، وقرأ عليه المدونة وغيرها[42]، ولم يشر المؤرخون إلى أن والد ابن

---

(36) ابن بشكوال : الصلة 10 /239، ط. مدريد، الديباج المذهب لابن فرحون ص 359 ــ الطبعة الأولى.
(37) ترتيب المدارك للقاضي عياض ج 4 /550 ــ ط. بيروت.
(38) ابن فرحون : الديباج المذهب، ص 359.
(39) نفس المرجع.
(40) ابن بشكوال : الصلة م / 274. ط. مدريد.
(41) نفس المصدر السابق.
(42) ابن بشكوال ج1 / 239، طبعة مدريد، ترتيب المدارك ج4 ص 550 ط. بيروت.

عبد البر نصب نفسه للتدريس، وأنه كان له تلاميذ، ويبدو أنه لم يصل درجة الحفاظ والمشايخ الذين احتلوا مكانة بارزة في عالم الفكر والثقافة، مثل ابنه يوسف.

ولم يثبت أنه قام بأية رحلة خارج الأندلس لا طالبا للعلم، ولا حاجا، على عادة علماء الأندلس، الذين كانوا يعتبرون الرحلة خارج الأندلس إلى المشرق، بمثابة التعليم الجامعي في عصرنا الحاضر.

ولم يتهيأ لابنه أبي عمر ابن عبد البر أن ياخذ عنه، ويسمع منه(43)، لأنه كان لم يبلغ سن الطلب في حياة أبيه؛ اذ لم يكن في عمره عند وفاة أبيه الا اثنتا عشرة سنة، غير أن عبد البر عوض ذلك عن طريق الوجادة، وذلك أنه كان يحدث كثيرا عن كتاب أبيه، فيقول وجدت في سماع أبي بخطه(44)، وقد جوز البخاري أن يحدث الرجل عن كتاب أبيه، إذا كان متيقنا من خط أبيه دون خط غيره(45)، ومن المؤكد أنه قرأ عليه المبادىء الأولية، من كتابة وقراءة، وقواعد اللغة العربية، والقرآن.

وربما كان لوالد ابن عبد البر كتاب(46) مخطوط في الحديث، كان ابنه عبد البر يحدث منه، حيث نجده يقول : «وجدت في كتاب أبي ــ رحمه الله ــ بخطه، حدثنا أبو الطاهر، حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال سمعت معتمر بن سليمان يقول : كتب إليها وأنا بالكوفة« «يا بني، اشتر الورق، واكتب الحديث، فإن العلم يبقى، والدنانير تذهب(47).

وتوفي والد ابن عبد البر سنة ثمانين وثلاثمائة هجرية(48) في نفس السنة التي توفي فيها جده(49).

---

(43) ابن بشكوال : الصلة، مجلد 1 /239، طبعة مدريد.

(44) نفس المصدر السابق.

(45) ابن بشكوال : الصلة، مجلد 1 /239، طبعة مدريد.

(46) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله، ج1 /69 دار الفكر بيروت.

(47) نفس المصدر السابق.

(48) الصلة، مجلد 1 /239 ــ طبعة مدريد.

(49) ابن الأبار : التكملة ج1 /371 ــ نشر عزت العطار 1375 /1956.

ج ـ أمـــه :

أما أمه، فلم يتعرض أحد ممن ترجموا لأبي عمر بن عبد البر إليها، لا من بعيد ولا من قريب، ولم أتمكن من الوصول إلى معرفة اسمها، أو اسم أسرتها، وليس هذا غريبا، فلم تجرِ العادة أن يكتب المؤرخون شيئا عن الأمهات، اللهم إلا إذا كانت الأم قامت بدور سياسي، أو اجتماعي، أو أدبي هام، ذي أثر في حياة الشعب، فلنكتف إذا، بأنها كانت لابن عبد البر أم حنون عنيت به ككل الأمهات، قصرت مدة حياتها أو طالت، وكذلك لم يذكر لنا التاريخ شيئا عن إخوته أو أقاربه، وابن عبد البر نفسه، لا يصرح، أو يلمح بذكر إخوة له أو أقارب، ولا نريد هنا أن نستنبط أن عَدَم الذكر يفيد عدم الوجود، ولكن نريد أن نصل إلى حقيقة، هي أن عدم الذكر لا يمكن تكوين قضية ذات نتائج، وعلى هذا، فليس في استطاعتنا أن نقول كيف وبأية صورة أثرت علاقة ابن عبد البر بإخوته وأقاربه في تكوينه.

وعلى كل حال، فابن عبد البر، نشأ في أسرة مرموقة المكانة، مشهود لها بالعلم والجلالة، والخير والصلاح، فالبيئة العامة التي درج في ظلالها، والبيئة الخاصة التي شب بين جدرانها مهدتا له وسائل الثقافة العميقة، والتربية الصحيحة، وولدتا فيه عوامل الطموح والنبوغ.

د ـــ ابنـــه :

وهو أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري(أ)، كان من أهل الأدب البارع، والكتاب المجيدين، والشعراء المطبوعين، واشتهر بالبلاغة، والتقدم في العلم والذكاء(50).

(أ) لم أعثر على سنة ولادته.

(50) الصلة، مجلد 1 / 274 ـــ طبعة مجريط.

استوزره[51] المعتضد بالله بن عباد، ولقب بذي الوزارتين[52]، وأخيرا سجنه وكاد أن يفتك به لولا أبوه جاء إلى المعتضد وأخرجه من السجن، وذهبا معا معززين مكرمين[53]. له رسائل وشعر جيد، توفي سنة ثماني وخمسين وأربعمائة.

هـ ــ سِبطُه :

وهو أبو محمد عبد الله بن علي بن أحمد اللخمي، سبط أبي عمر بن عبد البر، وهو من أهل شاطبة، ولد سنة ثلاث وأربعين هجرية ببلنسية[54]، فقيه مالكي، من رجال الحديث، روى عن جده أبي عمر بن عبد البر، وأجاز له رواياته، وتآليفه سنة اثنتين وستين وأربعمائة هجرية[55]، وسمع من تلميذ أبيه أبي العباس العذري صحيح البخاري ومسلم[56].

ولي منصب القضاء بالمغرب في أغمات، وحدث بها، وأخذ عنه كثير من علماء المغرب[57]، وأجاز لابن بشكوال رواياته، وتوفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة هجرية، وقد بلغ من العمر تسعين سنة[58].

رابعا : مولده ونشأته :

اختلف المؤرخون وأصحاب التراجم، في تاريخ ولادة ابن عبد البر، قال بعضهم إنه ولد في رجب سنة اثنتين وستين وثلاثمائة هجرية، وأنه سمع بنفسه قبل الأربعمائة لمدة من جماعة أصحاب قاسم بن أصبغ البياتي وغيره[59].

(51) وفيات الأعيان ج 7 /71، تحقيق د. احسان عباس.
(52) دائرة المعارف البستانية، ج 3 / 334 ــ بيروت.
(53) نفح الطيب، ج1 / 597ــ598. تحقيق د. احسان عباس ــ توزيع دار الفكر بيروت
(54) التكملة على كتاب الصلة، ج2 / 821ــ822. نشر عزت العطار 1375 /1956.
(55) التكملة على كتاب الصلة ج2 / 821ــ822 ــ نشر عزت العطار سنة 1375 /1956
(56) نفس المصدر السابق.
(57) نفس المصدر السابق.
(58) نفس المصدر السابق.
(59) الحميدي : جذوة المقتبس ــ ص 344، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ــ طبعة القاهرة، أحمد الضبي : بغية الملتمس، ص 474، فقرة 1442 ــ طبعة مجريط بطبع روخس.

وقيل: ابن عبد البر ولد في السنة الثالثة والستين بعد الثلاثمائة هـ[60] (363 هـ.)، وهذا قول ضعيف، لا يعول عليه، وذكر البعض الآخر، أن ابن عبد البر النمري، ولد في الرابع أو الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة ثمان وستين وثلاثمائة هجرية، الموافق للتاسع والعشرين من نونبر[61] من السنة الشمسية، ثمان وسبعين وتسعمائة (978 م).

وإذا رجعنا إلى أقوال المؤرخين وأصحاب التراجم، وقارنا بعضها مع بعض، نجد أن مولد ابن عبد البر ــ في كل الأحوال ــ ينحصر تاريخه بين اثنتين وستين وثلاثمائة هجرية، وبين ثمان وستين وثلاثمائة هجرية، ولا يتعدى الستينات بعد الثلاثمائة، وبتحليل تلك الأقوال نصل إلى أن المؤرخين إما اتبعوا الحُميدي[62] والضبي[63] اللذين جعلا تاريخ ولادة ابن عبد البر شهر رجب سنة اثنتين وستين وثلاثمائة هجرية، وهما ليست لديهم أية وثيقة تاريخية اعتمدا عليها. وإما اتبعوا ابن بشكوال وابن فرحون اللذين جعلا تاريخ ازدياد ابن عبد البر يوم الجمعة لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثمان وستين وثلاثمائة هجرية، وهذان اعتمدا على وثيقة تاريخية مهمة بينت فيها الحالة المدنية لابن عبد البر؛ إذ نقل ابن بشكوال عن تلميذ ابن عبد البر طاهر بن مغور، أنه قال: «سمعت أبا عمر يقول: ولدت يوم الجمعة والإمام يخطب لخمس بَقِينَ من ربيع الآخر سنة ثمان وستين وثلاثمائة هجرية (368 هـ)، وهو اليوم التاسع والعشرون من نوفمبر، قال طاهر: أرَانيه الشيخ بخط أبيه عبد الله بن محمد رحمه الله[64]» إذن قول ابن بشكوال أثبت؛ لأنه مروي عن ابن عبد البر نفسه.

---

(60) الاستيعاب بهامش الاصابة: صفحة العنوان فيها: النمري القرطبي المالكي المولود سنة 363 المتوفى بشاطبة 463.

(61) ابن بشكوال: الصلة مجلد 2 /618، ابن فرحون: الديباج المذهب ص 359، وتبعهما جميع من أتى بعدهم من المؤرخين القدامى والمحدثين.

(62) جذوة المقتبس، ص 344، تحقيق ابن تاويت الطنجي.

(63) بغية الملتمس، ص 474، فقرة 1442 ــ طبعة مدريد.

(64) الصلة :، مجلد 2 /618، الطبعة الاخيرة ــ ابن فرحون: الديباج المذهب ص: 359.

ويظهر أن الحميدي ومن تبعه، لم يطلع على هذه الوثيقة، وعلى الحالة المدنية، التي رآها طاهر بن مغوز، ولو اطلع عليها لما ذهب إلى ما ذهب إليه، من جعل تاريخ ازدياد ابن عبد البر اثنتين وستين وثلاثمائة.

هذا، في تحديد سنة ولادة ابن عبد البر، أما اليوم والشهر اللذان وقع الاختلاف فيهما بين أصحاب القول الثاني ــ الذين قالوا بولادة ابن عبد البر سنة ثمان وستين وثلاثمائة هجرية ــ فبينهما تقارب وتناسب في البعد الزمني، فربيع الآخر مجاور لرجب، واليوم الرابع والعشرون، والخامس والعشرين، متجاوران أيضا، ومما لا شك فيه أن من جعل الرابع والعشرين، بدأ عد أيام الشهر من آخره، ومن جعل اليوم الخامس والعشرين بدأ العد من أول الشهر، ومن الطبيعي أن يلتقيا في نفس اليوم، اذن لا خلاف في اليوم على هذا. ومن المؤكد أن هذا الاختلاف راجع إلى الشهر الكامل والشهر الناقص في الشهور القمرية.وإذا كان المؤرخون اختلفوا في يوم وشهر ولادته، وبالتالي في سنة ولادته، فإنهم أجمعوا على مكان ولادته، وهو مدينة قرطبة. وعليه فابن عبد البر ولد بقرطبة(65)، حاضرة الدولة الاسلامية، إذ ذاك في قلب أوربا، لأب كان من فقهائها(66) وأدبائها وفضلائها. فابن عبد البر من مواليد قرطبة، وقد نشأ بقرطبة بين أبوين كريمين، وفي كَنَفِ أسْرة مشهورة بالعلم والعرفان، وعريقة في الخير والصلاح، فاختارت له منذ صباه المنهاج الذي سلكته، وعاشت عليه، فوجهته نحو العلم، وهيأت له كل الأسباب لذلك، ويسرت له كل السبل والوسائل للوصول إلى مبتغاها، فنما إذن وترعرع في كنف جد صالح وزاهد(67)، وفي حِضْن أب فقيه ومحدث وأديب(68)، وعالم من علماء قرطبة، وفي بيئة خصبة زاهرة بالعلوم والفنون، زاخرة بالمحدثين والفقهاء والأدباء.

---

(65) الحميدى : جدوة المقتبس : ص، 344 ــ مكتبة نشر الثقافة الاسلامية ط. القاهرة والبغية، ص 474، فقرة 1442 ــ طبعة مجريط.

(66) ابن بشكوال : الصلة، مجلد 2 /618، طبعة مجريط، ترتيب المدارك ج 4 /550 ــ طبعة بيروت.

(67) التكملة لابن الآبار ج1 / 371.

(68) ترتيب المدارك ج4 / 550، طبعة بيروت، الديباج المذهب ص، 359.

في هذا الجو الصالح تربى أبو عمر بن عبد البر، وفي هذه البيئة الخصبة المعطاء، نما وترعرع، ورغم أن التاريخ لم يذكر شيئا عن تربية أبي عمر بن عبد البر، فاننا نستطيع أن نقول ــ بناء على ضوء البيئة التي عاش فيها، وبناء على سلوكه وحياته ــ إنه اتبع في تربيته أسلوب التربية التي تلقاها أمثاله ونظراؤه، من أولاد الأسر المتدينة، والمثقفة كابن حزم المعاصر له، فلا شك أنه كان محاطا بعناية فائقة، لأنه تربى تربية عالية، وتلقى تعليما ممتازا، على يد أسرته، وعلى أيدي جلة من المؤدبين والمعلمين، فالبيت هو اللبنة الأولى في البناء الأخلاقي للطفل، والسلوك الاجتماعي، والتوجيه الثقافي، وهو النواة الأساسية لحياة الانسان في المستقبل.

فأبو عمر بن عبد البر بلا شك أخذ عند صغره، وفي وقت مبكر من حياته، بكل جد وصرامة، الأمر الذي غرس فيه حب العلم والعمل، اذ هو نفسه يدعو إلى التعليم في الصغر، والحض على ذلك عملا بمبدأ «التعليم في الصِغَر كالنقش على الحَجَر»، وقد عقد بابا في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) سماه «باب في فضل التعلم في الصغر والحض عليه»[69] وضَمَّنَه كثيرا من الأحاديث والحكم والأمثال، كلها تدل على فضل التعلم في الصغر[70].

ومن المؤكد أنه ــ بعد أن وصل سن التعلم ــ أدخل الكتاب، وتعلم فيه كل ما يتعلمه الولدان من قراءة وكتابة.

والحقيقة أن التاريخ طوى كل ما يتصل بنشأته وطفولته، فلم يقدمه لنا الا وهو طالب يدرس العلم على المشايخ أو عالم يسمع منه، فلم يتعرض لتربيته، ولا لحياة أسرته وأسلوب عيشها ومصدر رزقها، ولا لأثرها في تكوينه وصيرورته، ولعل السبب في هذا أن طريقة التأليف عن الأفراد، وكتابة التراجم، لم تكن تُعنَىٰ بهذه الناحية : ناحية تأثير البيئة المنزلية في الطفل ودور الأسرة فيه، اذ تكتفي بذكر المشيخة التي تتلمذ عليها المترجم، لما لها من أثر في حياته العقلية والثقافية، وهذا ما نجده في حياة أبي عمر بن عبد البر.

---

(69) جامع بيان العلم وفضله ج1 /98 ــ دار الفكر بيروت.

(70) جامع بيان العلم وفضله ج1 /99 ــ دار الفكر بيروت.

ومن المرجح أن أبا عمر بن عبد البر، اتبع في تعليمه في المرحلة الأولى ــ الكتاب ــ أسلوب التعلم السائد حينذاك، فلقن منذ صباه بعض الآي من القرآن سماعا، ثم الكتابة والقراءة بواسطة لوح من الخشب[71]، يكتب عليه بعض الآي بمؤخر قلم من القصب أو الخشب (التحنيش)؛ إذ كان أبوه يرعاه، ويحرسه، منذ ولادته إلى نهاية صباه، أو إلى أن توفي سنة ثمانين وثلاثمائة هجرية[72]، فمن الذي كفله بعد وفاة والده ؟ وهل ترك له شيئا من حطام الدنيا ؟.

الواقع أن التاريخ لم يشر إلى هذا الشيء؛ إذ اكتفى بأن ذكر موت أبيه وأبو عمر بن عبد البر لازال صغيرا[73] ــ لم يسمع منه شيئا، لكن التربية الممتازة التي كان عليها أبو عمر ابن عبد البر، تُشير إلى أنه ظل تحت حضن أياد أمينة، وأنه عاش في نعيم وترف. ولعله عند ما توفي أبوه ــ كان قد قطع شوطا بعيدا في التعليم والتربية، الأمر الذي مكنه من متابعة مسيرته الثقافية، وإتمامها بنجاح.

(71) نحن تعلمنا في صغرنا بهذا الاسلوب، ولاشك أنه كان موجودا بالاندلس، ولا زالت هذه الطريقة موجودة عندنا في المغرب الى الآن.

(72) ابن بشكوال : الصلة مجلد 1 /239 ــ طبعة مدريد.

(73) نفس المصدر السابق.

الفصـــــل الثـانـــي
دراستــه ورحلاتــه

نستعرض في هذا الفصل دراسته وطلبه للفقه والحديث، ثم الكتب التي درسها، ثم رحلاته وتجواله داخل الأندلس.

أولا : دراسته ومكانها :

حصل ابن عبد البر في صباه شيئا من المبادىء الأولية على يد أبيه، وربما جده أيضا، ثم بدأ يطلب الفقه والحديث، وذلك في أواخر الثمانينات؛ إذ بدأ يدرس على أستاذه عباس بن أصبغ الهمذاني[1]، الذي توفي سنة ست وثمانين وثلاثمائة هـ[2]، كما كان يدرس النحو على أستاذه عبد العزيز بن أحمد الأخفش، سنة تسع وثمانين وثلاثمائة هجرية[3]، وأشار ابن عبد البر نفسه إلى أن أستاذه عبد العزيز أحمد الأخفش النحوي، هو أول شيخ سمع منه قبل الأربعمائة[4] من الهجرة، فإذا فرضنا أنه لم يشرع في دراسة النحو والفقه والفرائض، واللغة، إلا بعد أن قطع المرحلة الأولى التي تكون عادة تمهيدا ومدخلا للفهم والتعمق، وإذا قررنا أن هذه المرحلة تستغرق على الأقل سبع سنوات، فإنه يكون قد بدأ في طلب العلم والفقه، على أقل الاحتمالات، سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة هجرية، حيث كان في عمره إحدى عشرة سنة، حسب الرواية التي تقول انه ولد سنة ثماني وستين وثلاثمائة هجرية[5].

---

(1) جذوة المقتبس، ص 299 ــ الطبعة الأولى، مصر.
(2) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس، ص 299 ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة.
(3) الحميدي : جذوة المقتبس، ص 269، الطبعة الأولى، مصر.
(4) نفس المصدر السابق، ص 100 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.
(5) ابن بشكوال : الصلة، مجلد 2 /618، ابن فرحون : الديباج المذهب ص 359. الطبعة الأولى.

فعلى هذا يكون ابن عبد البر بدأ دراسة العلوم منذ نعومة أظفاره، وفي فجر شبابه، وهو نفسه يحض على التعليم في الصغار، فقد قال : «كان يقال : من أدب ابنه صغيرا أقرت عينه كبيرا»[6] «وانما يُطْبَع الطين اذا كان رطبا».[7]

إذَنْ بدأ ابن عبد البر دراسته في السنة الحادية عشرة من عمره، أي بعد أن حفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة، وبعض القواعد العربية، وهذا ليس غريبا ؛ لأن هذا النوع من الأسَر، تاخذ أبناءها بالتعليم والتلقين، منذ نعومة أظفارهم، علهم أن يخلفوهم في مراكزهم العلمية والاجتماعية.

ومن المقرر أن المبتدىء الناشيء في دراسة العلم، لا يبتدِئ العلم يلقّف من هنا وهناك، إلا بعد أن يستكمل تكوينه الأولي والأساسي، حيث يلزم عالما واحدا زمنا طويلا أو قصيرا حتى يتخرج عليه، فإذا أخذ ما عنده انتقل الى الآخر ليستكمل ما تعلمه على الأول، فيكون على هذا أنه ظل يدرس النحو واللغة مع استاذه عبد العزيز النحوي الأخفش، ثم بعد ذلك انتقل الى رواية الحديث عن شيخه عباس بن الأصبغ الهمذاني، وغيره من الشيوخ.

وهكذا فقد لازم أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام الاشبيلي، المعروف بابن المكوي، وقرأ عليه الفقه،[8]، بكتابه الذي ألفه بمشاركة أبي مروان المعيطي، وهو كتاب كبير في أقاويل مالك على شاكلة الكتب التي ألفت في أقاويل الشافعي،[9]، ويبدو أنه لازمه مدة طويلة[10] لا تقل عن سبع سنوات، حيث كتب بين يديه علما كثيرا.[11]

---

(6) جامع بيان العلم وفضله. ج1 /98 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(7) نفس المصدر السابق، ج1 /100.

(8) المدارك، 4 /808 ــ طبعة بيروت.

(9) الجذوة، ص 123، ط.1 ــ مصر.

(10) نفس المصدر السابق.

(11) الجذوة، ص 123 ــ المدارك ج 4 /808، طبعة بيروت.

ولازم أيضا مجلس ابن الفرضي،[12] وأخذ عنه الفقه والحديث والأدب، وعلم الرجال، وقد قال ابن عبد البر عنه : «كان فقيها عالما في جميع فنون العلم، في الحديث وعلم الرجال، وله تواليف حِسَان، وكان صاحبي ونظيري، أخذت معه عن أكثر شيوخه، وأدرك من الشيوخ ما لم أدركه أنا، كان بيني وبينه في السن نحو من خمس عشرة سنة، صحبته قديما وحديثا، وكان حسن المعاشرة، حسن اللقاء، قتلته البربر في الفتنة، وبقي في داره ثلاثة أيام مقتولا، وحضرت جنازته»[13]

ويبدو من كلام ابن عبد البر، أنَّهُ ظل يختلف الى هذا الشيخ، ويَغْشى مجلسه، زمنا طويلا، حتى اذا ما أخذ ما عنده، انتقل الى غيره، على عادة الطلبة في هذا العصر.

وفي مسجد «متعة» بقرطبة، كان يختلف الى مجلس أبي عمر بن عبد الله الطلمنكي، المقرىء الكبير،[14] حيث أخذ عنه علم القراءات والحديث،[15] وربما تأثر به في الصلاح والتقوى، وفي الدفاع عن مذهب أهل السنة، ومحاربة البدع والأهواء، لأن الطلمنكي كان يقوم بذلك.[16]

وفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة هجرية، نراه في مجلس أبي الأصبع عبد العزيز ابن أحمد النحوي، المعروف بالأخفش، يدرس النحو والأدب،[17] كما قرأ على عبد الرحمن الهمذاني النحو،[18] وكذلك سعيد بن نصر، الذي قال ابن عبد البر عنه : «كان معربا فصيحا»[19].

---

(12) الجذوة ص 123 ــ المدارك، ج4 /808 ــ طبعة بيروت.
(13) الصلة، مجلد 1 /248ــ250 ــ طبعة مجريط.
(14) الجذوة، ص 106 ــ ط.1 مصر ــ الصلة 1 /48ــ49 ــ طبعة مجريط.
(15) الجذوة، ص 106 ــ ط. الاولى ــ مصر.
(16) الصلة، مجلد 1 /48 ــ طبعة مجريط.
(17) الجذوة، ص 269 ــ ط1 مصر.
(18) الصلة، ص 311ــ312، طبعة مجريط.
(19) الجذوة، ص 218 ــ الطبعة الأولى ــ مكتبة نشر الثقافة الاسلامية ط. القاهرة.

وقبل سنة 390 هجرية، كان يغشى مجلس خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ، حيث كان يقرأ عليه القراءات، والتجويد، والحديث، وكان ابن عبد البر، لا يقدم عليه أحدا من شيوخه.[20] وقد قال فيه : «أما خلف بن القاسم، فشيخ لنا وشيخ لشيوخنا، أبي الوليد بن الفرضي وغيره، كتب بالمشرق عن نحو ثلاثمائة رجل، وكان من أعلم الناس برجال الحديث».[21]

وقد درس الأدب على أبي نصر هارون القبسي، عند ما كان حدثا.[22]

ويبدو مما سبق، أن ابن عبد البر، لازم كثيرا من الشيوخ، حتى اذا ما تمكن من العلوم الضرورية، راح بعد ذلك يقتطف من هنا وهناك، وهكذا بدأ يغشى مجالس العلم، التي كانت تعقد في جامعة قرطبة ومساجدها، بل وفي منازل العلماء؛[23] اذ كانت المجالس يعقدها العلماء بالتناوب، وخاصة أيام الجمع، وقد أشار ابن الفرضي الى ذلك في كتابه «تاريخ علماء الأندلس» حيث قال : «ان مجالس العلم كانت تعقد بالتناوب، وكان مجلس يحيى بن عبد الله بن يحيى الليث، في الموطأ، أكبر مجلس، وأكثر بشرا من غيره، في أيام الجمع بالغدوات، وكذلك مجلس يحيى بن مالك بن عائذ».[24]

وفي عصر ابن عبد البر، كان الطلبة يتنقلون من مكان الى آخر، ومن القرية الى المدينة، ليسمعوا الحديث والعلم،[25] ولا شك أن ابن عبد البر، كان يفعل مثل ذلك بعد ما أنهى مرحلة الملازمة، حيث بدأ ينتقل من مجلس الى آخر من مجالس العلم، ليسمع ويأخذ ويحقق ما درسه على الشيوخ الذين لازمهم في بداية دراسته، وهكذا نراه ينتقل الى مسجد الغازي بقرطبة، يقرأ القراءات

---

(20) الجذوة : مجلد 5 /198 ــ الطبعة الاولى ــ مكتبة نشر الثقافة الاسلامية ــ القاهرة.
(21) الجذوة 5 /198 ــ الطبعة الاولى ــ
(22) الصلة : ص، 595ــ596 ــ طبعة مجريط.
(23) الصلة : 1 /38 ــ طبعة مجريط.
(24) تاريخ علماء الأندلس ج 2 /192 ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966.
(25) نفس المصدر السابق.

والحديث على أبي العباس أحمد بن قاسم،[26] حيث كتب عنه كثيرا، وكتب هذا عن ابن عبد البر[27] (التدبيج)، كما كان يحضر مجلس أبي عمر الباجي، المعروف بابن الشريعة الذي كان يعقد مجلسه بمسجد «ابن طويل» بالربض الغربي بقرطبة، فسمع منه حديثا كثيرا.[28]

وأخذ علم الرجال والحديث أيضا عن عبد الوارث بن سفيان، وخلف بن القاسم، وعبد الله بن يوسف، وأحمد بن قاسم الطاهرتي، وخلف بن سعيد، وعبد الله بن يوسف،[29] وأبي المطرف الغنازعي، والقاضي يونس،[30]، وغيرهم، وظل ابن عبد البر يسمع العلم من مجالس العلماء، حتى بعد رحلته من قرطبة، فجمع علما غزيرا، واتسع أفقه العلمي، فأصبح حافظ المغرب.

وقد تلقى ابن عبد البر دراسته في قرطبة، مسقط رأسه، ففيها تعلم وطلب وتفقه،[31] حيث كانت تموج بالناس الذين اختلفت مشاربهم، وتباينت مآربهم، وزخرت بأنواع المعارف والفنون، فيها القراء والمحدثون، أمثال أحمد بن محمد الطلمنكي، الذي كان أحد الأئمة في علم القرآن، قراءته وإعرابه،[32] وأمثال سعيد ابن نصر،(أ) وأحمد بن قاسم البزاز، وفيها المتصوفون، وعلماء اللغة، والفلاسفة، ورجال السياسة، وأصحاب السلطان.

«أ» بفتح النون والراء.

---

(26) الصلة : ص 33 ــ 34 ــ طبعة مجريط.
(27) البغية : ص 189 ــ طبعة مجريط.
(28) الصلة : ص 10 ــ طبعة مجريط.
(29) المدارك، ج4 /808 ــ طبعة بيروت.
(30) الصلة : مجلد1 /616 ــ 617 ــ طبعة مجريط.
(31) ابن بشكوال : الصلة، مجلد 2 /616 ــ 617 ــ طبعة مجريط.
القاضي عياض : المدارك 4 /808، ط. بيروت.
ابن فرحون : الديباج المذهب، ص 357 ــ الطبعة الأولى.
ابن خلكان : وفيات الاعيان 7 /66، تحقيق د. احسان عباس.
(32) ابن بشكوال : الصلة، مجلد 1 /48ــ49 ــ ط. مجريط.

أقبل ابن عبد البر في قرطبة، يعب من المعارف، ويكرع العلوم على كبار علمائها والوافدين عليها، يلازمهم وياخذ عنهم كل ما تصل اليه يده، وكل ما يلائم اتجاهه وميوله، حتى نبغ في القراءات والحديث والفقه والأخبار والأنساب.

وهكذا، تكون قرطبة هي مدرسته الابتدائية، وهي ثانويته وجامعته، ففي مساجدها درس العلم، وتلقى ما يحتاجه من القواعد الضرورية، مثل مسجد مسرور،(33) ومسجد سريج،(34) ومسجد أبي عبيدة(35) ومسجد الغازي،(36) ومسجد الغبري.

وظل ابن عبد البر في قرطبة يقتطف من أشجارها ما لذ وطاب من فنون العلم، وأنواع الأدب، الى حدود السنة الثالثة بعد الاربعمائة، أي الى الفتنة البربرية.

وقد كَفَّته قرطبة عن الرحلة الى المشرق، حيث كانت مهوى أفئدة العلماء الوافدين اليها من الأندلس، أو من بلاد المشرق، فكان يجد فيهم طِلبَته، وما يُشبع نَهَمه العلمي، اذ كان العلماء يخرجون منها الى المشرق، فيحملون معهم ما كان يوجد في المشرق من العلوم والكتب، وكانت العادة أن كل ما لم يذهب الى المشرق لا يُعترف له بالعلم، ولا يقدر، ولكن ابن عبد البر، عوض هذا بالقراءة على ما قدم من المشرق، سواء من أصل شرقي أو من أصل أندلسي.

ويبدو أن ابن عبد البر كان يخرج من قرطبة بين الفينة والأخرى، الى القرى والمدن القريبة والبعيدة، لأخذ العلم عن علمائها وفقهائها، ومن بين تلك المدن التي قرأ فيها على شيوخها مدينة اشبيلية، فقد درس فيها على اسماعيل بن علي

---

(33) الجذوة، ص 338 ــ ط. 1 ــ مصر.

(34) نفس المصدر السابق ــ 4 ــ الصلة، ص 27 ط. مجريط.

(35) الصلة 1 / 33 ــ 34، ط. مجريط 1884.

(36) طوق الحمامة 135. ــ ط.1.

القرشي، واقتبس مما لديه،[37] وأخذ عن خلّف بن سعيد بن أحمد،[38] وأحمد بن منصور،[39] كما قرأ في اشبيلية على أحمد بن الباجي[40] واللخمي.[41]

صديقه في الدراسة :

وفي اشبيلية، كان يرافقه صديقه ابن حزم، فقد ورد في طوق الحمامة، أنه كان يتجول مع أبي عمر ابن عبد البر بحَي الحطابين باشبيلية، فلقيهما شاب مليح، فقال أبو محمد علي بن حزم على جهة الفكاهة : «هذه صورة حسنة، فقال له ابن عبد البر : لم ترَ الا الوجه، فلعل ما يخفيه الثياب ليس كذلك، فقال ابن حزم :[42]

وذي عذل فيمن سبا في حسنه ... يطيل ملامي في الهوى ويقول
أمن وجه لاح لم ترَ غيره ... ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له اسرفت في اللوم ... فعندي رد لو شاء طويل
ألم ترَ أني ظاهري وانني ... على ما أرى حتى يقوم الدليل

وهكذا يبدو أن ابن عبد البر، خلال دراسته، كان يغادر قرطبة الى المدن والقرى، باحثا عن العلماء، لسماع الحديث وروايته، ولدراسة الفقه والتاريخ، وغيرهما من أنواع العلوم.

ثانيا : الكتب التي درسها :

وتتمة لدراسة عناصر تكوين ابن عبد البر، وتسليط الأضواء، على جانب مهم من حياته الثقافية، ارتأينا أن نأتي ببعض الكتب التي درس بها، وقرأها لدى

(37) المقرى : نفح الطيب، ج 3 /69—70 ــ تحقيق د. احسان عباس، دار الفكر بيروت
(38) الحميدى : جذوة المقتبس، ص 194 ــ الطبعة الاولى، مصر.
(39) ابن بشكوال : الصلة 1 /32 ــ ط. مجريط.
(40) الحميدى : جذوة المقتبس 120—121 ــ ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس 240.
(41) نفس المصدر السابق.
(42) المقرى : نفح الطيب ج2 /82 ــ 83 ــ 84، تحقيق د. احسان عباس ــ توزيع دار الفكر ــ بيروت.

غشيان مجالس العلم، حتى تكتمل الصورة في ذهن القارىء عن دراسة ابن عبد البر، وعن الوسائل التي تعلم بها، ولأن الكتب التي يدرسها الطالب تدخل في تكوين شخصيته الثقافية، ولأنها لا تقل تأثيرا عن الشيوخ، ولهذا فضلنا أن نأتي بهذا المبحث أيضا كتمهيد للفصل الآتي، وهو الفصل الخاص بالشيوخ.

والكتب التي أردنا إثباتها هنا، كعنصر هام من عناصر دراسة ابن عبد البر، وتكوينه العلمي، ليس المقصود منها الحصر والتعداد، بل التدليل على أهمية تلك الكتب التي كان ابن عبد البر يعتني بقراءتها.

هذا، وسأكتفي بما وجدته في بطون الكتب التي ترجمت له، كما سأعرضها دون مراعاة للموضوعات التي تناولتها، وانما حسب أهميتها، مصحوبة بالشيخ الذي قرأها عليه، وهي :

1 ــ «الموطأ» للإمام مالك، رواها عن أبي عثمان سعيد بن نصر، وأبي الفضل أحمد بن قاسم وأبي عمر [illegible] بن محمد، وأبي عمر أحمد بن سعيد.(43)

2 ــ «المدونة» لسحنون، رواها عن أبي عمر أحمد بن محمد بن أحمد».(44)

3 ــ «المختصر» لعبد الله بن عبد الحكم، قرأها على أبي محمد عبد الله ابن آسد.(45)

4 ــ «كتاب المبسوط» لاسماعيل بن اسحاق، قرأه على أبي القاسم عبد الوارث بن سفيان، كما أخذه عن شيخه أبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد المومن إجازة له.(46)

---

(43) التمهيد : ج1 / 10ــ11 ــ الطبعة الاولى ــ المغرب، والكافي ص، 486، مخطوط بخزانة القرويين تحت رقم 809.

(44) الكافي لابن عبد البر، ص 486، مخطوط بخزانة القرويين.

(45) نفس المصدر السابق.

(46) الكافي لابن عبد البر، ص 486، مخطوط بخزانة القرويين.

5 ــ «الجامع» لأبي الفرَج، درسه على أبي عبد الله محمد ابن ابراهيم بن يزيد بن محمود[47]

6 ــ «مختصر» لأبي مُصعَب أحمد بن أبي بكر، قرأه على أبي القاسم خلف بن قاسم.[48]

7 ــ «موطأ ابن وهب» قرأه كله على عبد الوارث بن سفيان.[49]

8 ــ «الواضحة» لعبد الملك بن حبيب، قرأها على أبي علي الحسين[50] بن يعقوب البجاني.

9 ــ «كتاب الزعفراني»، سمعه من ابن ضيفون.

10 ــ «سنن أبي داود» سمعها من ابن عبد المومن بن داسة،

11 ــ «المجتبَى» لأبي عبد الرحمن النّسائي، قرأه على عبد الله ابن أحمد الجهَيني، وعلى أبي الاصبع عبد العزيز بخت.[51]

12 ــ «المجتبى» لقاسم بن أصبغ، وهو شبيه بمجتبى النسائي، ويسمى «مصَنّف أبي محمد قاسم بن أصبغ»، وهو مصنف رفيع احتوى على صحيح الحديث وغريبه، وقد سمعه من سعيد ابن نصر.[52]

13 ــ «مُسنَد حديث أبي بكر بن معاوية القرشي»، لأبي عثمان يعيش بن سعيد الوراق، قرأه سنة 390 هـ على مؤلفه.[53]

14 ــ «شرح غريب الحديث» لأبي محمد بن قتيبة، قرأه على عبد الوارث بن سفيان.[54]

---

(47) نفس المصدر السابق.

(48) الكافي لابن عبد البر، ص 486، مخطوط بخزانة القرويين تحت رقم 809.

(49) نفس المصدر السابق.

(50) نفس المصدر السابق، والجذوة، ص 183، ط.1 مصر

(51) الجذوة، ص 270 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(52) الجذوة، ص 218 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(53) الجذوة، ص 364 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(54) الجذوة، ص 276 ــ الطبعة الاولى مصر.

15 ــ مسند أبي عبد الله محمد بن سنجر الجرجاني، قرأه على عبيد الله ابن محمد أبي عبد الله[55]

16 ــ «غرائب حديث مالك» من تأليف قاسم بن أصبغ الذي رواه وهب بن محمد المقذوني، وقد رواه ابن عبد البر عنه. وهذه الغرائب لمالك بن أنس، وهي ليست في الموطأ.[56]

17 ــ «مصنف محمد بن وضاح» الذي يسمى «ما خرجه محمد ابن وضاح في الصلاة في النعلين»، قرأه على يحيى بن عبد الرحمن بن مسعود أبي بكر.[57]

18 ــ «التاريخ الكبير في التعديل والتجريح»، من تأليف أحمد ابن سعيد، رواه عن خلف بن أحمد أبي جعفر.[58]

19 ــ «جامع بن وهب»، قرأه على أبي زيد بن عبد الرحمن بن يحيى، المعروف بالاخفش[59]

20 ــ كتاب «صريح السنة»، وهو من تأليف أبي جعفر محمد ابن جرير الطبري، قرأه على أحمد بن قاسم التاهرتي.[60]

21 ــ كتاب «المنتقى»، وهو لأبي محمد بن الجارود، قرأه على أبي عمر أحمد الباجي،[61]

22 ــ كتاب «الضعفاء والمتروكين» لابن الجارود أيضا، قرأه على أبي عمر أحمد بن عبد الله الباجي.[62]

---

(55) الجنوة، ص 277، بغية الملتمس ص 465 ــ طبعة مجريط.

(56) الجنوة، ص 338 ط. 1 ــ مصر، تاريخ الادب الاندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص 358 ــ مقتبس من رسالة ابن حزم في فضل أهل الاندلس.

(57) الجنوة، ص 354، ط.1 ــ مصر.

(58) الجنوة، ص 192،193 ــ ط. 1 ــ مصر.

(59) الجنوة، ص 100 ــ الطبعة الاولى، مصر.

(60) الجنوة، ص 130 ــ الطبعة الاولى، مصر.

(61) الجنوة، ص 120ــ121 ــ الطبعة الاولى ــ مصر.

(62) نفس المصدر السابق.

23 ــ «كتاب الآحاد» لابن الجارود، قرأه أيضا على أبي عمر أحمد الباجي.[63]

24 ــ «فضائل مكة» للخزاعي، قرأه على محمد بن خليفة أبي عبد الله.[64]

25 ــ «مسند حديث ابن الأحمر» لأبي عثمان يعيش بن سعيد، بن محمد الوراق، قرأه على مؤلفه.[65]

26 ــ «المعارف» لأبي محمد بن قتيبة، قرأه على عبد الوارث بن سفيان.[66]

27 ــ «كتاب العلم» لأحمد بن سعيد بن فرج الصدفي، سمعه، من أصبغ بن بخت، وهو تاريخ في المحدثين.[67]

28 ــ «تاريخ فقهاء قرطبة»، لعبد الله بن عبد البر، رواه عن أبي حفص أو أبي جعفر عمر بن نمارة[68] (على الشك).

29 ــ «كتاب في القضاء»، لعبد الله بن عبد البر، قرأه على أبي جعفر، أو أبي حفص (على الشك) عمر بن نمارة.[69]

30 ــ «القناعة» لأبي بكر بن الدنيا، قرأه على أبي الفضل أحمد بن قاسم البزاز.[70]

31 ــ «مختصر ما ليس في مختصر ابن عبد الحكم»، وهو من تأليف أبي اسحاق بن شعبان، رواه عن اسماعيل عبد الرحمن.[71]

---

(63) نفس المصدر السابق.

(64) نفس المصدر السابق.

(65) الجنوة، ص 51 ــ الطبعة الاولى، مصر.

(66) الجنوة، ص 276ــ277 ــ الطبعة الأولى، مصر.

(67) تاريخ علماء الأندلس 2 /44 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.

(68) الجنوة، ص 284 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(69) نفس المصدر السابق.

(70) الجنوة، ج4 /148 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(71) الجنوة، ص 154، ط 1 ــ مصر.

32 ــ «كتاب في النّسّاء»، وهو أيضا من تأليف أبي اسحاق بن شعبان، قرأه على اسماعيل بن عبد الرحمن.(72)

33 ــ «كتاب الأشربة»، وهو للمؤلف السابق، قرأه على اسماعيل بن عبد الرحمن.(73)

34 ــ «كتاب المختصر الأوسط»، وهو لعبد الله بن الحكم، قرأه على ابن الجسور، وأبي الفضل التاهرتي.(74)

35 ــ «كتاب التأمين خلْف الإمام»، وهو من تأليف أبي بكر الآجري، قرأه على سلمة بن سعيد الاستجي، كما أخبره، بشرح قصيدة أبي داود.(75)

36 ــ «كتاب التاريخ»، وهو مصنف لمحمد بن جرير الطبري، ويسمى «ذيل المذيل»، وحدثه به أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور.(76)

37 ــ «تاريخ العلماء والرواة بالأندلس»، وهو من تأليف العالم الكبير أبي الوليد بن الفرضي، قرأه ابن عبد البر على مؤلفه.(77)

38 ــ «تاريخ الرازي الاوسط في أخبار الاندلس»، وهو لأحمد بن موسى الرازي، أخذه أبو عمر بن عبد البر بن قاسم بن عسلون.(78)

39 ــ «فضائل الجهاد» وهو من تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، سمعه ابن عبد البر من أحمد بن قاسم الناهرتي.(79)

40 ــ «التبصرة» لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، حدثه بها أيضا قاسم بن أحمد التاهرتي.(80)

---

(72) الجذوة، ص 154 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(73) نفس المصدر السابق.

(74) الجذوة، ص 186 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(75) الجذوة، ص 219 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(76) الجذوة، ص 219 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(77) الجذوة، ص 235 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(78) الصلة، ص 459 ــ طبعة مجريط.

(79) الجذوة، ص 132ــ133 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(80) نفس المصدر السابق.

41 ــ «الدار ومقتل عثمان» لعمر بن شبه النحري، أخذه عن أحمد ابن سهل.[81]

42 ــ «كتاب أبي حنيفة» وهو من تأليف أبي محمد الجارود، قرأه ابن عبد البر على أبي عمر أحمد بن عبد الله الباجي.[82]

43 ــ «كتاب الخصال» وهو لمحمد بن يبقى بن زرب، قاضي الجماعة بقرطبة، سمعه عن أبي الوليد يونس بن عبد الله.[83]

44 ــ «المعارف»، وهو من تأليف أبي محمد بن قتيبة، قرأه على عبد الوارث بن سفيان[84].

45 ــ «حلم معاوية»، وهو من تأليف أبي بكر بن الدنيا، حدثه به أبو الفضل أحمد بن قاسم البزاز[85].

46 ــ «الرسالة»، وهي من تأليف الإمام الشافعي، وهو كتاب عظيم جمع أصول الفقه الشافعي، قرأها على ابراهيم بن شاكر[86].

47 ــ «الرد على المقلدين»، وهو كتاب من تأليف قاسم بن محمد المعروف بصاحب الوثائق[87].

48 ــ «فضل طلب العلم»، لأحمد بن خالد، قرأه ابن عبد البر على مسلمة بن محمد البتري[88].

49 ــ «الصلاة في النعلين»، وهو لمؤلفه محمد بن وضاح، قرأه على يحيى بن عبد الرحمن بن مسعود[89].

---

(81) الجذوة، ص 132 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.
(82) الجذوة، ص 121 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.
(83) الجذوة، ص 93 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.
(84) الجذوة، ص 277 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.
(85) الجذوة، ص 148 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.
(86) الجذوة، ص 92 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.
(87) الجذوة، ص 98 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.
(88) الجذوة، ص 325 ط1 مصر ــ وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي 2 /30 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.
(89) الجذوة، ص 354 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

50 ــ «رسالة ابن أبي زيد القيرواني»، وهو مصنّف عظيم الفائدة في الفقه والتوحيد، من تأليف ابن أبي زيد القيرواني، قرأها على ابن الفرضي[90].

51 ــ «المنبه لذوي الفِطَن على غوائِل الفِتن»، قرأه على ابن الفرضي أيضا.[91].

ثالثا : خروج ابن عبد البر من قرطبة (رحلاته)

لما قامت الفتنة البربرية، واختل النظام، وأصبحت قرطبة تعيش حياة رهيبة، رحل[92] عنها ابن عبد البر مهاجرا أو على الأصح فارا إلى غيرها من المدن الأندلسية، إذ حدثت فيها أحداث دامية، أهمها الفتنة البربرية، التي بدأت خيوطها في الظهور منذ سنة أربعمائة هـ[93]، حيث دخل البربر مع سليمان قرطبة وأخلوها من أهلها سنة تسع وتسعين وثلاثمائة هجرية. وكانت حوادث هذه الفتنة من القسوة والهمجية ما تقشعر منه الجلود، بحيث دفعت كثيرا من العلماء، وجمهرة الناس إلى الرحيل العاجل عن المدينة، وكان من بين المهاجرين أبو عمر ابن عبد البر، الذي اضطر تحت هول ما رآه من حوادث إلى ترك بلده الحبيبة، ومرتع صباه، خصوصا وأنه أثر في نفسه قتل أستاذه الكبير[94]، وصديقه أبي الوليد ابن الفرضي، الذي قتل في بيته بيد البربر، وظل ثلاثة أيام دون دفنه[95]؛ اذ لم يراعوا للشيخ حرمته ومكانته العلمية، أو ضعفه وشيخوخته.

---

(90) نفس المصدر السابق، ص : 238.

(91) نفس المصدر السابق.

(92) القاضي عياض : المدارك ج 4 / 808. طبعة بيروت.

الرحلة في طلب العلم تعني ــ في ميدان التربية العلمية وتقويم أسس التفكير في الاسلام ــ أمرين :

الأول : التأكد من سلامة المنهج النظري ومن كماله.

الامر الثاني : تصحيح منهج التفكير واقامة أسسه على قواعد ثابتة.

وابن عبد البر، اذا كنا نقف مع هذا التعريف للرحلة، لم يمكن أن نقول انه رحل، بل هو خرج من قرطبة متجولا أو جلى عن قرطبة، فالتجأ الى غيرها من المدن الأندلسية، ولكن رغم ذلك، فقد استفاد كثيرا من العلماء الذين لقيهم خلال هذه الجولة في الاندلس، سواء في غربه أو شرقه.

(93) أحمد الضبي : بغية الملتمس / 19ــ20، ط. مجريط.

(94) ابن بشكوال : الصلة ج1 / 249، ط ــ مجريط.

(95) الحميدي : جذوة المقتبس ص 238، ط1، مصر ــ بغية الملتمس 321. ط. مجريط ــ وفيات : الأعيان 1 /268، تحقيق د. احسان عباس.

ويبدو أنه جلي عن قرطبة : فقد قال ابن بشكوال في الصلة : «جلي عن وطنه قرطبة»،[96] ولكن لم يشر أحد من المؤرخين الى سبب جلائه، أمن هول هذه الفتنة ؟ أو من أجل السياسة ؟.

إن ابن عبد البر، لم يثبت عنه أنه شغل منصبا سياسيا مثل صديقه ابن حزم، ولم يثبت أنه كانت له علاقة بالأمويين، اللهم الا من جهة أن أباه كان فقيها، وهو نفسه كان فقيها، ونحن نعرف أن الفقيه كان يتمتع بمركز اجتماعي يوازي مركز الأمير، فالفقهاء كان لهم في الدولة الأموية بالأندلس نفوذ قوي. ومن هنا يمكن أن نقول إن الفقهاء كان البرابرة أو الثائرون، يعتبرونهم من أنصار الحكم القائم في البلاد، ولذا كانوا يقتلونهم، ولكن هذا الاحتمال يتلاشى ويضعف عند ما نرى أن ابن عبد البر لم يرجع الى قرطبة، بعد استقرار الأوضاع، بعد أن هدأت الأمور، خاصة وأن قرطبة استولى عليها أبو الحزم بن جهور، وهو من كبار علمائها، ونابهي شيوخها.[97]

والواقع أن ابن عبد البر كان يميل الى الهدوء والاستقرار، ولذا لما وجد من يوفر له ذلك، لازمه، واستغنى عن قرطبة، خاصة وأن قرطبة كانت دائما مطمع السياسيين.

ولما رحل من قرطبة اتجه نحو غرب الأندلس، فأقام باشبيلية مدة، وكان ربما قصد الاستيطان بها، نظرا لأنها كانت مركزا علميا بعد قرطبة، ولكن لم يرقْه المقام

(96) مجلد 2 /618، ط. مجريط.

(97) الأعلام ج3، ص 172 ــ بغية الملتمس، ص 23، ط. مجريط ــ الذخيرة ق1، ج2، ص : 115،116. الطبعة الأولى.

بها، حيث قوبل بالجفوة، وعدم الاهتمام من طرف أهلها الذين كان يرجى منهم أن يعطوه ما يستحقه من الاجلال والتكريم، فارتجل عنها منشدا :

وقائلة ما لي أراك مرحـــلا ... فقلت لها صه واسمعي القول محملا(98)
من كنا نسبر بقربه ... وعاد زحافا بعد ما كان سلسبيلا
وحق لجار لم يوافقه جاره ... ولا لاء منه الدار أن يتحـــولا
بليت لحمص والمقام ببلدة ... طويلا لعمري مخلق يورث البلا
اذا هان حر عند قوم أتاهم ... ولم ينأ عنهم كان أعمى وأجهلا
ولم تضرب الأمثال الا لعالم ... وما عوتب الانسان الا ليعقلا(99)

ولعل الشخص الذي تنكر له، واعتدى عليه الناس هو القاضي اسماعيل بن محمد بن عباد، أو ابنه أبو القاسم محمد، الذي يعتبر مؤسس الأسرة الحاكمة في اشبيلية، بعد أن ولاه أبوه القضاء على اشبيلية.(100)

وحمص الواردة في هذا المقطع الذي صور فيه الأسباب التي دعته الى الرحيل، هي اشبيلية التي كانت تسمى حمصا تشبيها لها لأختها في الشام.

ويشير البيت الأول من المقطع، أن ابن عبد البر كان حينذاك متزوجا، لأنه يخاطب فيه امرأة، ويغلب على الظن أنها زوجته ؛ ولأن المؤرخين وصفوه بالصفاء والتدين والتقوى.

على كل حال، إن ابن عبد البر، أقام في اشبيلية مدة لا ندري مقدارها، وأنه تلقى هناك صعوبات وظروفا غير ملائمة، دفعته الى الرحيل عنها الى غيرها من المدن الأندلسية، في غرب الأندلس وشرقها.

وإذا تتبعنا ما ورد في كتب التراجم التي أرخت لابن عبد البر، نجد أنه تردد مرارا بين غرب الأندلس وشرقه، تارة في الغرب، وأخرى في الشرق، وبالعكس. فقد

(98) بهجة المجالس 1 /243ـــ244. ط.1.
(99) المقري : نفح الطيب ج4 / 30.
(100) البيان المغرب ج3، ص : 194.

رحل الى دانية، وربما دفعه اليها دراسته للقراءات، حيث كان هناك مجاهد بن عبد الله العامري، من موالي عبد الرحمن الناصر، وكان هذا يعتني بفن القراءات، لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر، واجتهد في تعليمه، وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته، ولما كان له من العناية بسائر العلوم عموما، وبالقرآن خصوصا.[101] فظهر على عهده أبو عمرو الداني،[102] وبلغ الغاية فيها، ووقفت عليه معرفتها، وانتهت الى روايته أسانيدها.[103]

ولعل أهم ما كان يمتاز به مجاهد ـــ صاحب دانية ـــ هو حبه الشديد للعلم والعلماء، وجمع الكتب، فاجتمع لديه جملة من مشايخهم، ومشهور طبقاتهم، أمثال أبي عمرو الداني،[104] وابن سيده.[105]

لهذا ليس غريبا أن تصادف دانية ميولات أبي عمر ابن عبد البر، فيذهب اليها ويُلقي بها عصا الترحال، وقد وجدها خير مكان كان يبحث عنه.

ويبدو أن ابن عبد البر، غادر غرب الأندلس حوالي اثنتي عشرة سنة بعد الأربعمائة من الهجرة، فقد ذكره ابن حزم في رسالة كتبت في 412هـ[106] حيث نوه به فيها، وبكتبه التي ألفها في ذلك الوقت. ظل ابن عبد البر بدانية الى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة[107] هجرية، أي إلى وفاة أبي الجيش مجاهد العامري، ثم رجع الى غرب الأندلس، فاتصل بالمظفر بن الأفطس، صاحب بطليوس،[108] وولاه القضاء على لشبونة (عاصمة البرتغال الآن) وشنترين (صانتا مرية).

---

(101) ابن خلدون : المقدمة 327، ط. القاهرة.

(102) نفس المصدر السابق.

(103) نفس المصدر السابق.

(104) المقري : نفح الطيب 1 /386، معجم الادباء 5 /342، مادة دانيه ط. بيروت.

(105) أحمد الضبي : البغية، ص : 405، وفيات الأعيان 1 /342.

(106) من تحقيق محمد المرسي الخولي في مقدمته لكتاب «البهجة» لابن عبد البر، ص : 13 ـــ الدار المصرية للتأليف والترجمة، وأظن أن هذا تاريخ غير صحيح.

(107) الصلة : 1 /390، ط. مجريط.

(108) بطليوس، تقع غرب الاندلس على نهر وادي يانة.

وقد ظل في غرب الأندلس زمنا طويلا، أي من 338 هـ الى وفاة المظفر ابن الأطلس سنة ستين وأربعمائة، وبعد هذا رجع الى شرق الأندلس، فقضى هناك البقية الباقية من عمره، متنقلا بين دانية وبلنسية وشاطبة،[109] وذلك في أوقات مختلفة.

وتعد الفترة التي قضاها أبو عمر ابن عبد البر في دانية من أجمل أيامه وأسعدها، اذ فيها اشتهر، وظهر علمه، وفيها وجد راحته والهدوء الذي كان يبحث عنه، فقد قال فيه ابن سيدة : «الأفق الداني الذي ظهر فيه علمه، وعند ملوكه حفق علمه».[110] وهناك ألف معظم كتبه المطولة التي اشتهر بها، وكان أهل دانية يحبون علم القرآن، فألف لهم أربع كتب في القراءات إرضاءً لهم، وهذه الكتب هي :

1) البيان عن تلاوة القرآن.[111]
2) الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمر بن العلاء.[112]
3) الإنصاف فيما في بسم الله من الخلاف.[113]
4) التجويد والمدخل الى علم القراءات بالتجديد.[114]

وقد استغل أبو عمر ابن عبد البر جولته الاضطرارية هذه، في الاستماع الى علماء هذه البلاد، والأخذ عنهم، وخاصة العلماء الذين أتيحت لهم الفرصة في الذهاب الى المشرق والتلقي عن أساتذته، وقد لقي الكثير منهم، ذكرهم الحميدي وابن بشكوال وأحمد الضبي، وجميع كتاب التراجم.

---

(109) ابن بشكوال : الصلة، مجلد 2 /618، ط. مجريط ــ المدارك ج 4 /808، وفيات الاعيان، ج 7 /68، تحقيق د. احسان عباس ــ ابن الآبار : اعتاب الملك 221.
(110) المُغرِب، ج 2 /407.
(111) البغية، ص475، فقرة 1442، ط. مجريط.
(112) نفس المصدر السابق.
(113) المدارك، ج 4 /808، ط. بيروت.
(114) البغية، ص : 475، فقرة 1442، ط. مجريط 1884.

الفصل الثالث
أساتذته وشيوخه

تمهيد وتقسيم :

أَلِف العلماء والفقهاء أن يذكروا أساتذتهم في كل فن تعلموه، أو كتاب درسوه، وقد ورثوا هذا التقليد من علماء الحديث، ونحن ـــ كمنتسبين لدار الحديث الحسنية ـــ لا نخالف هذا التقليد الحميد ؛ لأن هذا المسلك يلقي أضواء كاشفة على نشأة من يترجمون لهم. ونحن نعرف أن ذكر أساتذة ابن عبد البر، سيكشف عن جانب مهم من حياته الفكرية، والجهد الذي بذله حتى وصل الى هذه المكانة العلمية الرفيعة.

ورغم أن ابن عبد البر قديم السماع، كثير الشيوخ[1] لا يمكن للدارس حصرهم وتعدادهم، فانني سأحاول في هذا الفصل أن أضع قائمة للشيوخ الذين استطعت العثور عليهم في بطون مؤلفاته، وفي كتب التراجم والفهارس.

هذا وقد صنفتهم الى ثلاثة أصناف :[2]

1 ـــ شيوخ لهم رحلة الى المشرق.

2 ـــ شيوخ ليست لهم رحلة الى المشرق.

3 ـــ شيوخ أجازوه أو كاتبوه، أو أخذ عنهم بالوجادة.

---

(1) الحميدي : جذوة المقتبس، ص 344، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ـــ مكتبة نشر الثقافة الاسلامية ـــ طبعة القاهرة، وبغية الملتمس ص : 474، فقرة 1442 ـــ طبعة مجريط سنة 1884.

(2) جل هذه الاقسام الثلاثة من شيوخ ابن عبد البر، أخذتهم من كتبه وخاصة «التمهيد» و «جامع بيان العلم وفضله».

أولا : الشيوخ الذين قرأ عليهم أو روى عنهم، ولهم رحلة الى المشرق :

1) أبو الوليد عبد الله بن يوسف بن نصر الازدي الحافظ المعروف بابن الفرضي، ولد بقرطبة ونشأ بها سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة[3] هجرية. درس بقرطبة، وروى عن أكابر علمائها[4] وأشهرهم.

قام برحلة الى المشرق سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة[5] هجرية، وأخذ من علماء مكة ومصر والقيروان.[6] ولما جمع علما كثيرا قفل الى بلاده قرطبة، فقام بالتدريس فيها، وكان من العلماء الأجلاء، والأدباء الأفذاذ. وقد ألف كتبا كثيرة، منها كتابه : «تاريخ علماء الأندلس وفقهائها»، وهو أحد الكتب الهامة الذي سد فراغا كبيرا في المكتبة الأندلسية.

قرأ ابن عبد البر على شيخه هذا كتابه في التاريخ، وكتاب المؤتلف والمختلف في اسماء الرجال، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه، وكتاب المنبه لدى العطف على عوائل العتق لأبي الحسن القابسي.[7] كما لازمه مدة طويلة.[8]

توفي ابن الفرضي بقرطبة سنة ثلاث وأربعمائة[9] هجرية، وقيل توفي سنة أربع وأربعمائة هـ.[10]

2) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد الله المقرىء بن أبي عيسى لُب[11] بن يحيى بن محمد بن عمر بن قرلمان الطلمنكي، منسوب الى بلده طلمنك.[12] ولد

(3) ابن بشكوال : الصلة، مجلد 1 /249 ــ طبعة مجريط سنة 1884.
(4) الحميدي : الجذوة، ص 345، طبعة مصر ــ والصلة مجلد 1 /249.
(5) نفس المصدرين السابقين.
(6) نفس المصدرين السابقين.
(7) الحميدي : الجذوة، ص : 238 ــ طبعة مصر.
(8) القاضي عياض : المدارك ج 4 /808، ط. بيروت.
(9) ابن بسكوال : الصلة ص : 249 ــ طبعة مجريط.
(10) مقدمة كتاب : تاريخ علماء الاندلس لمحققه ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة.
(11) ابن بشكوال : الصلة، مجلد 1 /48 ــ طبعة مجريط.
(12) الحميدي : الجذوة، ص 106 ــ طبعة مصر.

سنة أربعين وثلاثمائة هجرية. سكن قرطبة،[13] ودرس بها على علماء مشهورين، وأخذ عنهم كثيرا[14] من العلوم والفنون. وكان إماما في القراءات، وثقة في الرواية.[15]

رحل الى المشرق، وظل هناك مدة طويلة،[16] فحج، وسمع من علماء مكة[17] والمدينة، ودمياط والقيروان.[18]

جمع كتبا كثيرة،[19] وكان على مذهب أهل السنة يحارب أهل الأهواء والبدع، ويدافع عن الشريعة شديدا في ذات[20] الله، وربما هذا له تأثير في كراهية ابن عبد البر لأهل الأهواء والبدع،[21] وكان يقرىء الناس بدون أجر، وكان اماما بمسجد متعة بقرطبة،[22] وخرج الى الثغر فانتفع الناس بعلمه وبصلاحه،[23] كما كان صاحب كرامات، فقد قال لطلبته ذات يوم : اقرأوا وأكثروا فاني لا اتجاوز هذا العام، فقلنا له : ولم يرحمك الله ؟ فقال : رأيت البارحة في منامي منشدا ينشدني :

اغتنموا البر بشيخ ترحمه السوقة والصيد
قد ختم العمر بعيدٍ مضى ليس مِن بعده عيد

وقد أخذ عنه ابن عبد البر كثيرا من الحديث والقراءات، وتوفي، رحمه الله، بطلمنك سنة تسع وعشرين وأربعمائة[24] هجرية.

---

(13) ابن بشكوال : الصلة ص 106 ــ طبعة مجريط.
(14) نفس المصدر السابق.
(15) ابن بشكوال : الصلة، مجلد 1 /48 ــ طبعة مجريط 1884.
(16) الحميدي : الجذوة، ص : 106، الصلة مجلد 1 /48 ــ ط. مجريط.
(17) نفس المصدرين السابقين.
(18) نفس المصدرين السابقين.
(19) نفس المصدرين السابقين.
(20) نفس المصدرين السابقين.
(21) جامع بيان العلم وفضله ج2 /113 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(22) ابن بشكوال : الصلة ص : 48، ط. مجريط.
(23) نفس المصدر السابق.
(24) الحميدي : الجذوة، ص 106، طبعة القاهرة، والصلة، ص 48.

3) أحمد بن فتح الرسان : وهو أبو القاسم أحمد بن فتح بن عبد الله بن يوسف المعافري الناصر المعروف بالرسان،[25] وهو من أهل قرطبة، ولد سنة تسع عشرة وثلاثمائة[26] هجرية بقرطبة، وفيها نشأ ودرس العلم على شيوخها.[27]

رحل إلى المشرق حيث حج ــ ولقي كثيرا من العلماء والشيوخ، منهم حمزة بن محمد الكتاني الحافظ المغربي الذي أجازه،[28] ولما رجع إلى الأندلس أخذ يحدث الناس ويعلم العلم، فأخذ عنه كثير من علماء الأندلس الأجلاء، منهم ابن عبد البر، الذي قرأ عليه كتاب «الدار» و «مقتل عثمان»، لعمر بن شيبة النميري في سبعة أجزاء.[29]

وكان رجلا فاضلا، يحب الخير واتباع السنة،[30] وقد ألف كتابا حسنا في الفرائض.[31]

توفي في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعمائة[32] هجرية.

4) أبو القاسم خلف بن [illegible] بن سهل، ويقال له أيضا ابن سهلون[33] ابن محمد بن يونس بن الأسود الأردي[34]، قرطبي، ويعرف بابن الدباغ.[35]

ولد سنة، خمس وعشرين وثلاثمائة هجرية بقرطبة، بدأ بها[36] دراسته على كثير من شيوخها وعلمائها الأجلاء، ثم رحل الى المشرق فأخذ هناك عن علماء

---

(25) الحميدي : الجذوة، ص 132 ــ طبعة القاهرة، والصلة، ص 27 ــ طبعة مجريط.
(26) الصلة، ص 27 ــ طبعة مجريط.
(27) نفس المصدر السابق.
(28) نفس المصدر السابق، والجذوة ص : 132 ــ طبعة القاهرة.
(29) الحميدي : الجذوة ص : 132.
(30) الصلة / 27 ــ طبعة مجريط.
(31) نفس المصدر السابق.
(32) نفس المصدر السابق.
(33) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس، ص 137، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
(34) نفس المصدر السابق، والجذوة / 197 ــ الطبعة الاولى، مصر.
(35) نفس المصدر السابق.
(36) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس، ص 137 ــ الدار المصرية.

مكة، ودمشق، ومصر،[37] وعدد شيوخه الذين لقيهم خلال رحلته الى المشرق مئتان وستة وثلاثون شيخا.[38] وقال ابن عبد البر : «كتب عن ثلاثمائة شيخ».[39]

كان عالما بالقراءات وتجويد القرآن، حافظا للحديث، وعالما بطرقه،[40] كما ألف كتبا حسنة في الزهد، وخرج من حديث الأئمة حديث مالك بن أنس ومسند شعبة ابن الحجاج والسماء المعروفين بالكنى من الصحابة والتابعين وسائر المحدثين، وكتاب «الخائفين» و «أقضية شريح»، و «زهد بشر بن الحارث».[41]

رجع الى الأندلس، وحدث بقرطبة[42] حيث روى عنه كثير من علماء الأندلس وشيوخها.

قرأ عليه ابن عبد البر، وكان لا يقدم عليه أحدا من شيوخه،[43] وذلك قبل[44] سنة تسعين وثلاثمائة هجرية. وقد قال أبو عمر بن عبد البر : «أما خلف ابن القاسم بن سهل الحافظ، فشيخ لنا وشيخ لشيوخنا أبي الوليد بن الفرضي وغيره. كتب بالمشرق عن نحو ثلاثمائة رجل، وكان من أعلم الناس برجال الحديث»[45].

توفي هذا العالم الجليل سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة هجرية.[46]

---

(37) نفس المصدر السابق.
(38) نفس المصدر السابق.
(39) الحميدي : الجذوة 5 /197 ــ 198، ط. 1 مصر.
(40) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس، ص 138 ــ الدار المصرية.
(41) نفس المصدر السابق.
(42) نفس المصدر السابق.
(43) نفس المصدر السابق.
(44) نفس المصدر السابق.
(45) الحميدي : الجذوة 5 /198 ــ الطبعة الاولى، مصر.
(46) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ص 138 ــ الدار المصرية.

5) أبو العباس أحمد بن قاسم بن عيسى الاقليشي منسوب الى اقليش بلده،[47] وهي من أعمال طليطلة، درس على ابن الجسور، وغيره من علماء الأندلس، ثم رحل الى المشرق، فسمع ببغداد[48] وغيرها. ولما رجع الى الاندلس بعلم وافر حدث بها، وسمع منه كثير من العلماء والفقهاء، منهم ابن عبد البر الذي قال فيه : «انه سمع عن أبي القاسم عبد الله بن محمد ابن حبابة حديث علي بن الجعد وسمعناه منه»، كما قرأ عليه وكتب عنه منثورا كثيرا.[49]

6) أبو علي اسماعيل بن عبد الرحمن القرشي،[50] من ذرية عبد بن زمعة، أخي سودة أم المومنين.[51] رحل من مصر الى الأندلس على عهد الحكم المستنصر بالله سنة ستين وثلاثمائة، حين استولى الفاطميون على مصر،[52] ولما ثارت الدولة العامرية، التجأ الى اشبيلية، واتخذها مقرا له،[53] وظل بها سنين كثيرة قبل موت المنصور بن أبي عامر.

وفي اشبيلية درس عليه ابن عبد البر، واقتبس مما لديه،[54] وقد ذكره في تاريخ شيوخه.[55]

ومن الكتب التي درسها عليه ابن عبد البر كتاب «مختصر ما ليس في مختصر ابن عبد الحكم»، لأبي اسحاق ابن شعبان، وكتابه في الأشربة، وفي النساء.[56]

---

(47) الحميدي : الجذوة، ص 133، ط1، مصر ــ البغية ص 189، ط. مجريط.
(48) نفس المصدر السابق.
(49) الجذوة، ص 133 ــ ط.1 مصر ــ البغية، ص 189، ط. مجريط.
(50) الجذوة : ص 153، ط.1 مصر.
(51) نفح الطيب ج 3 ص 69 ــ 70. تحقيق د. احسان عباس ــ توزيع دار الفكر ــ بيروت.
(52) نفس المصدر السابق.
(53) البغية، ص 215 ــ الجذوة ص 153، ط.1 مصر.
(54) نفح الطيب، ج3 ص 69ــ70. تحقيق د. احسان عباس ــ دار الفكر بيروت.
(55) نفس المصدر السابق.
(56) الجذوة، ص 153 ــ الطبعة الاولى، مصر، البغية ص :

7) سلمة بن سعيد الاستجي، كان من علماء قرطبة وفقهائها ومحدثيها، رحل الى المشرق،[57] وسمع بمكة من أبي بكر بن الحسين بن رشيق، سمع منه أبو عمر بن عبد البر كتاب «التأمين خلف الإمام» و «شرح قصيدة بن أبي داود»، وهما من تأليفه.[58]

8) أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد المومن بن يحيى التجيبي، من أهل قرطبة[59]، ويعرف بابن الزيات، ولد سنة أربع عشر وثلاثمائة، رحل إلى المشرق رحلتين، سمع فيهما عن علماء بغداد والبصرة[60] والاسكندرية.[61]

كان كثير الحديث مسندا صحيحا للسماع، صدوقا في روايته، كتب عنه الناس قديما وحديثا، منهم ابن الفرضي.[62] توفي سنة تسعين وثلاثمائة[63] هجرية.

9) أبو المطرف عبد الرحمن بن مروان القنازعي، وهو قرطبي،[64] رحل الى المشرق وسمع هناك من تلاميذ الشيخ البغوي وغيرهم،[65] فقيه مالكي، من رجال الحديث والتفسير، ألف «كتاب الشروط»[66] على مذهب مالك بن أنس، وله «شرح الموطأ» و «اختصار تفسير ابن سلام»،[67] روى عنه كثير من علماء الأندلس.

---

(57) الجذوة، ص 219.
(58) الجذوة، ص 219 ــ الطبعة الاولى، مصر.
(59) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس، ص 247، الدار المصرية للترجمة والنشر
(60) نفس المصدر السابق.
(61) نفس المصدر السابق.
(62) نفس المصدر السابق.
(63) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس، ص 247 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.
(64) الجذوة، ص 260 ــ الطبعة الاولى، مصر ــ البغية، ص 358 ط. مجريط.
(65) نفس المصدر السابق.
(66) نفس المصدر السابق.
(67) الاعلام ج 4 /112 ط 2.

10) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن مسافر الهمذاني الوهراني، ويعرف بالخراز،[68] وهو من أصل بجانة، ولد سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة هجرية.

رحل الى المشرق[69] ، وروى عن أشهر العلماء هناك، مثل أبي محمد عمر المروري كان رجلا صالحا يحب العزلة[70]، وكان يعيش من التجارة، حيث يشتري الثوب ويبيعه.[71]

روى عنه كثير من علماء الأندلس، وتوفي سنة احدى عشرة وأربعمائة هجرية بالمرية.[72]

11) أبو زيد عبد الرحمن بن يحيى بن محمد العطار، درس بالأندلس على علمائها الاجلاء، منهم أبو عمر بن مطرف بن عبد الرحمن وغيره.[73]

رحل الى المشرق،[74] وسمع هناك من علمائه الأجلاء، ولما رجع الى الأندلس نصب نفسه للتحديث، حيث روى عنه بقرطبة أبو عمران الفاسي، وأبو عمر بن عبد البر، الذي قال عنه : «قرأت على أبي زيد عبد الرحمن بن يحيى : جامع ابن وهب».[75]

12) أبو الأصبغ عبد العزيز بن أحمد النحوي، ويعرف بالأخفش، رحل الى المشرق، وسمع من علمائه، وكان يتقن النحو واللغة العربية.[76] قال أبو عمر ابن عبد البر : رويت عنه سنة تسع وثمانين وثلاثمائة[77] هجرية.

---

(68) الصلة، ص 311، 312 ــ ط. مجريط.
(69) نفس المصدر السابق.
(70) الصلة، ص : 311ــ312 ــ ط. مجريط.
(71) نفس المصدر السابق.
(72) نفس المصدر السابق.
(73) الجذوة، ص 261 ــ الطبعة الاولى؛ مصر.
(74) نفس المصدر السابق.
(75) الجذوة، ص 261 ــ الطبعة الاولى، مصر.
(76) الجذوة، ص 269 ــ الطبعة الأولى، مصر، والبغية، ص : 371. ط. مجريط.
(77) الجذوة، ص 269، نفس الطبعة السابقة.

13) أبو عمر أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة، المعروف بابن الباجي، سكن هو وأبوه باشبيلية،[78] ورحل الى المشرق حاجا، فكتب بمصر عن كثير من علمائها،[79] كان من أهل العلم، ومتقدما في الفهم،[80] ومن المحدثين العارفين به وبرجاله، وكان يحفظ «غريب الحديث» لأبي عبيدة وأبي قتيبة[81] ، روى عنه جماعة من أكابر العلماء.[82] ذكر أبو عمر ابن عبد البر أنه قرأ عليه كتاب «المنتقى» لأبي محمد بن الجارود، وكتاب «الضعفاء والمتروكين» للمؤلف السابق، وكتابا لأبي حنيفة، وكتاب الآحاد.[83] أخذ عنه الحديث والفقه.

وتوفي حوالي الاربعمائة[84]، وقيل سنة 390.[85]

14) أبو الوليد سليمان بن خلف بن أيوب الباجي القاضي باشبيلية،[86] درس الفقه بالأندلس، وروى عن جماعة من علمائها،[87] منهم مكي وغيره، ثم رحل الى المشرق سنة ست وعشرين وثلاثمائة[88] هجرية، وأقام هناك نحو ثلاثة عشر عاما،[89] نال فيها علما وافرا، حيث أخذ عن علماء مدينة السلام وبغداد التي التقى فيها بأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، حافظ المشرق الذي قال : أنشدني أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي لنفسه :

اذا كنت أعلم علما يقينا ... أن جميع حياتي كساعة
فلِمَ لا أكون ضَنِينًا بها ... وأجعلها في صلاح وطاعة

(78) الصلة، مجلد 1 /11، طبعة مجريط سنة 1880.
(79) الجذوة، ص 120 ــ 121 ــ الطبعة الاولى، مصر.
(80) الصلة، مجلد 1 /11 ــ ط. مجريط 1880.
(81) الجذوة، ص 120ــ121 ــ الطبعة الاولى، مصر.
(82) نفس المصدر السابق.
(83) الجذوة، ص 120 ــ الطبعة الاولى، مصر، الصلة، مجلد 1 /11، ط مجريط 1880.
(84) نفس المصدر السابق.
(85) الصلة، ص 10 ــ طبعة مجريط.
(86) الصلة، ص 106، فقرة 231 ــ طبعة مجريط.
(87) البغية، ص 289 ــ طبعة مجريط.
(88) البغية، ص 283 ــ طبعة مجريط.
(89) البغية، ص 283 ــ طبعة مجريط.

وقد ظل ببغداد ثلاثة أعوام يدرس الفقه، ويروي الحديث[90] بمصاحبة الخطيب البغدادي، فروى عنه، وروى عنه،[91] ورجع الى الاندلس بعد ثلاثة عشر عاما بعلمٍ جمٍ،[92] فحدث ودرس الفقه، وسمع منه جماعة من الأئمة.

ومما يفتخر به، أنه روى عنه حافظ المغرب والمشرق، أبو عمر ابن عبد البر، والخطيب البغدادي،[93] وهما أسَنُّ منه.[94] فقد كان فقيها ومحدثا ومتكلما مشهورا،[95] علم عصرة علما وديانة.[96] توفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة هجرية بالمرية.

15) أبو الأصبغ عيسى بن سعيد بن سعدان المقريء،[97] من أهل قرطبة، ولد سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة[98] هجرية، درس بقرطبة على كثير من شيوخها،[99] ثم رحل إلى المشرق سنة احدى وسبعين وثلاثمائة، فدخل العراق، ولقي ببغداد أبا بكر الأبهرى وسمع منه كتابه في شرح المختصر،[100] وغيره من شيوخها، وسمع بمصر من علمائها، وقرأ هنالك القرآن فأتقنه،[101] ولما رجع الى الأندلس لزم التأديب، وكان يقرأ عليه القرآن،[102] وحدث بكتاب الابهرى، وبقطع من حديث،[103]

---

(90) نفح الطيب، ج 2، ص 71ـــ72، تحقيق د. احسان عباس توزيع دار الفكر بيروت.
(91) نفس المصدر السابق.
(92) نفس المصدر السابق.
(93) نفس المصدر السابق.
(94) نفس المصدر السابق.
(95) البغية، ص 289، فقرة 777 ـــ طبعة محيط.
(96) نفس المصدر السابق.
(97) الجذوة، ص 280 ـــ الطبعة الاولى، مصر.
(98) تاريخ علماء الأندلس، ص 336 ـــ الدار المصرية للتأليف والترجمة.
(99) نفس المصدر السابق.
(100) تاريخ علماء الأندلس، ص 336، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
(101) نفس المصدر السابق.
(102) نفس المصدر السابق.
(103) نفس المصدر السابق.

كتب عنه ابن الفرضي، وأجاز له جميع ما رواه،[104] روى عنه أبو عمر بن عبد البر، وقال : «كان أديبا عالما من أطيب الناس صوتا وأحسنهم قراءة».[105]

توفي سنة تسعين وثلاثمائة.

16) أبو العباس أحمد بن قاسم بن عيسى اللخمي المقرى، المعروف بأبي العباس الاقليشي[106]، منسوب الى اقليش بلده من أعمال طليطلة، ولد سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة[107] هجرية، سكن قرطبة وروى بها عن كثير من أعلامها الأجلاء، أمثال أبي عمر بن الجسور.[108]

رحل الى المشرق، ودخل بغداد ومصر،[109] وروى عن أشياخها، فكان رجلا فاضلا، مجودا للقرآن، وثقة،[110] التزم مسجد الغازي لإقراء الناس،[111] حدث عنه أبو عمر بن عبد البر، وقال : «وقد سمع من أبي القاسم عبيد الله بن محمد بن حبابة حديث علي بن الجعد وسمعناه منه، وكتبت عنه منثورا كبيرا، وكتب عني رحمه الله»[112] وذكره في تاريخ شيوخه.[113]

توفي سنة عشر وأربعمائة[114] هجرية.

17) أبو عمر أحمد بن هشام بن جهور بن ادريس بن أبي عمر، من أهل مرشانة، سكن قرطبة، وروى بها عن جماعة من علمائها، كما روى عن أبيه،[115]

---

(104) نفس المصدر السابق.
(105) الجذوة، ص 280 ــ الطبعة الاولى، مصر.
(106) البغية، ص 189 ــ طبعة مجريط، الصلة 1 / 33، ط. مجريط.
(107) الصلة، ص 33ــ34.
(108) نفس المصدر السابق.
(109) البغية، ص 189 ــ ط. مجريط، الصلة، ص 33ــ34، ط. مجريط.
(110) نفس المصدر السابق.
(111) الصلة، ص 33، ط. مجريط.
(112) البغية، ص 189، فقرة 460 ــ ط. مجريط.
(113) الصلة، مجلد 1 /33 ــ 34 ــ ط. مجريط.
(114) نفس المصدر السابق.
(115) الصلة، مجلد 1 /50ــ51، ط. مجريط.

رحل الى المشرق وحج سنة تسعين وثلاثمائة هجرية، وقضى بمكة مدة طويلة،[116] أخذ كثيرا عن علمائها ولما رجع الى الأندلس نصب نفسه للتحديث، وكان رجلا فاضلا صالحا[117] وتوفي سنة ثلاثين وأربعمائة بقرطبة.[118]

18) أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن ضيفون بن مروان اللخمي الرصافي الحداد، من أهل قرطبة،[119] ولد سنة اثنتين وثلاثمائة[120] (302هـ.) فقيه مالكي، من رجال الحديث، رحل الى المشرق سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وحج سنة 339 هـ. حينما رد القرامطة الحجر الأسود الى مكانه،[121] سمع بمكة وبمصر وبطرابلس وبالقيروان.[122]

كان رجلا صالحا عدلا، وتوفي سنة أربع وتسعين وثلاثمائة هجرية.[123]

19) ابن البقري : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن حَكَم الأموي، يعرف بابن البقري، من أهل قرطبة،[124] كان رجلا صالحا، وله حظ وافر من العلم، والتقدم في الفهم.[125]

رحل الى المشرق، ولقي هنالك شيوخا كثيرا،[126] ولما رجع الى الأندلس حدث وسمع منه كثير من شيوخها.

---

(116) نفس المصدر السابق.
(117) الصلة، ص 50—51 — ط. مجريط.
(118) نفس المصدر السابق.
(119) تاريخ علماء الاندلس، ق 2 /108 — الدار المصرية للتأليف والترجمة.
(120) نفس المصدر السابق.
(121) نفح الطيب، ج2 /237، تحقيق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر — بيروت.
(122) تاريخ علماء الأندلس، ص 2 /108 — الدار المصرية للتأليف والترجمة.
(123) نفس المصدر السابق.
(124) الصلة، ص 476 — ط. مجريط.
(125) نفس المصدر السابق.
(126) نفس المصدر السابق.

20) أبو عبد الله محمد بن خليفة، من رجال الحديث، رحل الى المشرق، وأخذ بمكة عن أبي بكر الآجُرى علما كثيرا،[127] وكذلك سمع من الخزاعي كتابه «في فضائل مكة».[128]

قال أبو عمر ابن عبد البر : «وكان رجلا صالحا ممن يتبرك به».[129]

21) الجالطي : هو أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد الأموي، من أهل قرطبة ويعرف بالجالطي،[130] ولد سنة سبعين وثلاثمائة، فقيه، ومن رجال الحديث والادب، رحل الى المشرق بعد أن أخذ عن علماء الأندلس، وأخذ عن علماء مكة والقيروان؛ وذلك سنة 370هـ. حيث حج.

22) أبو بكر الرازي : هو أبو بكر محمد بن الحسن ابن عبد الرحمن بن عبد الوارق الرازي الخرساني، سمع بأصبهان وبمصر، ثم قدم الى الأندلس وحدث بها، وسمع منه كثير من علمائها، كان رجلا صالحا حليما دينا لبيبا،[131] مات غَرقا في الأندلس بعد الخمسين وأربعمائة من الهجرة.[132]

23) ابن رَشيق : هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابن رشيق المكتب، ويعرف بالسراج،[133] من رجال الحديث، ومن قراء القرآن، وكان ثقة فاضلا.[134]

رحل الى المشرق، فكتب عن علماء مصر، ثم رجع الى الأندلس وحدث بها، وقد أثنى عليه أبو عمر ابن عبد البر.[135]

---

(127) الجذوة، ص 51، ط.1، مصر، البغية ص 64 ط. مجريط.
(128) نفس المصدرين السابقين.
(129) نفس المصدرين السابقين.
(130) الصلة، ص 372ـ373 ـ طبعة مجريط.
(131) الصلة، ص 543ـ544 ـ ط. مجريط.
(132) الصلة، ص 543ـ544 ـ طبعة مجريط.
(133) الجذوة، ص 52 ـ الطبعة الاولى، مصر، الصلة ض 480، ط. مجريط.
(134) نفس المصدرين السابقين.
(135) نفس المصدرين السابقين.

24) ابن عمروس : هو أبو عبد الله محمد بن عمروس[136] بن العاصي القرطبي، فقيه، محدث، ولي الأحباس بقرطبة، رحل الى المشرق، وحج، ثم دخل العراق وروى بها عن كثير من علمائها، كما روى بمصر والقيروان.[137] توفي سنة 400 هجرية.[138]

25) ابن فتحون القيسي : هو أبو الوليد هشام بن سعيد الخير بن فتحون القيسي، من أهل وشقة،[139] فقيه، ومن رجال الحديث، رحل الى المشرق فسمع هناك عن كثير من العلماء،[140] ولما رجع الى الأندلس نصب نفسه للتحديث، ثم توفي بعد الثلاثين وأربعمائة.[141]

26) مسلمة بن محمد البقري : هو أبو محمد مسلمة بن محمد البقري، من رجال الحديث، رحل الى المشرق، وأخذ هنالك عن كثير من العلماء. قال عنه أبو عمر ابن عبد البر : «حدثني أبو محمد بن مسلمة بن محمد بن محمد بن أحمد بن خالد عن أبيه أحمد ابن خالد بكتابه في فضل طلب العلم».

27) ابن أَسَد الجُهَني : هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ابن أسد الجهني الطليطلي البزار، يكنى أبا محمد، ولد بطليطلة سنة 310هـ،[142] وسكن قرطبة، وطلب فيها على أكابر علمائها مثل قاسم بن اصبغ، كما صحب القاضي منذر بن سعيد،[143]، وهو فقيه، ومن رجال الحديث.

---

(136) الصلة، ص 469 ــ طبعة مجريط، نفح الطيب ج 2 /62، تحقيق د. احسان عباس. توزيع دار الفكر ــ بيروت.

(137) الصلة، ص 469 ــ طبعة مجريط، نفح الطيب ج2 /62، تحقيق د. احسان عباس ــ توزيع دار الفكر ــ بيروت.

(138) نفس المصدر السابق.

(139) الصلة، ص 590 ــ طبعة مجريط.

(140) نفس المصدر السابق.

(141) نفس المصدر السابق.

(142) الجذوة، ص 234ــ235، الطبعة الاولى، مصر ــ الصلة، ص : 244 ــ 245، ط. مجريط، الحلل السندسية ج2 /12.

(143) نفس المصدر السابق.

رحل الى المشرق سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة[144] هجرية، فسمع بمصر، ولما رجع الى الأندلس رغب الناس في حديثه، فقال : لا أحدث ما دام صاحبي أبو جعفر بن عون الله، وأبو عبد الله بن مفرج حيين، فلما ماتا جلس للسماع،[145] روى عنه كبار العلماء، ومنهم أبو الوليد بن الفرضي، والقاضي أبو المطرف بن فطيس، وأبو عمر ابن عبد البر،[146] الذي قرأ عليه «مصنف النسائي».[147]

توفي سنة تسعين وثلاثمائة هجرية.[148]

28) ابن الحذا : محمد بن يحيى القاضي، عرف بابن الحذا، فقيه، من رجال الحديث، حافظ، رحل الى المشرق وروى عن علمائه، روى عنه أبو عمر ابن عبد البر، وجماعة من الأعلام.

توفي سنة ست عشرة وأربعمائة.[149]

29) الشيرازي : أبو الحسن علي بن ابراهيم بن حموية الشيرازي، قدم الى الأندلس وحدث بها، فقيه، ومحدث.

30) أبو عبد الله محمد بن يحيى، له رحلة الى الشرق، روى عن أبي العلاء ابن الوهاب بن ماهان، وأبي بكر أحمد بن اسماعيل.

31) ابن الدلائي : أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس بن دلهاث العدوى، ويعرف بابن الدلائي،[150] من أهل المرية، ولد سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة[151] هجرية، كان من رجال الحديث الكبار، إلماماً وضبطاً وعناية، عالي الاسناد،[152]

---

(144) نفس المصدر السابق.

(145) الصلة، ص : 244ـ245، الحلل السندسية ج2 /12. ط.1 سنة 1355ـ1936

(146) نفس المصدرين السابقين.

(147) الجذوة، ص 234 ـ الطبعة الاولى، مصر.

(148) الصلة، ص 244 ـ 245 ـ طبعة مجريط.

(149) البغية، ص 136، فقرة : 310 ـ طبعة مجريط.

(150) الصلة، مجلد 1 /69ـ70 ـ طبعة مجريط.

(151) نفس المصدر السابق.

(152) نفس المصدر السابق.

رحل إلى المشرق مع أبيه سنة 407هـ، وأقام معهم بجوار مكة مدة طويلة،(153) سمع فيها عن أكابر علماء الحجاز، منهم أبو ذري عبد الهروي الذي سمع منه صحيح البخاري مرات، كما سمع من علماء العراق، وخراسان، والشامات الواردين على مكة،(154) وكتب عن كثير من علمائها الأجلاء.(155)

وحدث عنه من كبار علماء الأندلس أبو عمر ابن عبد البر، وابن حزم، وغيرهما رغم صغر سنه.(156)

توفي سنة ثماني وسبعين وأربعمائة هجرية.(157)

32) ابن الرسان : أبو القاسم أحمد بن فتح بن عبد الله بن يوسف المعافري، التاجر،(158) من أهل قرطبة، ويعرف بابن الرسان،(159) ولد سنة تسع عشرة وثلاثمائة هجرية بقرطبة، وبها نشأ ودرس العلم على شيوخها،(160) وكان فقيها فرضيا، ومن أهل الحديث،(161) كما كان رجلا فاضلا، صاحب هدى وسنة.

رحل الى المشرق، فحج، ولقي هنالك كثيرا من العلماء،(162) فأخذ عنهم روايات كثيرة.

توفي سنة ثلاث وأربعمائة هجرية، ودفن بمقبرة فحم.(163)

---

(153) الصلة، مجلد 1 /69—70، ط. مجريط.
(154) نفس المصدر السابق.
(155) نفس المصدر السابق.
(156) نفس المصدر السابق.
(157) نفس المصدر السابق.
(158) الجذوة، ص 132 — ط.1، مصر، الصلة، مجلد 1 /27، ظ. مجريط.
(159) الصلة، 27 — ط. مجريط.
(160) الصلة، مجلد 1 /27 — ط. مجريط.
(161) نفس المصدر السابق.
(162) الجذوة، ص 132، ط.1 — مصر.
(163) الصلة، ص 27 — طبعة مجريط.

ثانياً : الشيوخ الذين ليست لهم رحلة الى المشرق :

33) ابن المكوي : أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام الأموي ولاء،[164] الاشبيلي، المعروف بابن المكوي، فقيه، مالكي، ومن أكابر المفتين بقرطبة، ومن كتبه : «أقاويل مالك»، الذي ألفه بمشاركة الفقيه أبي مروان المطيطي، على شاكلة الكتاب الذي ألف في أقاويل الشافعي، لازمه أبو عمر ابن عبد البر مدة طويلة، وكتب كثيرا بين يديه.[165]

توفي سنة احدى وأربعمائة هجرية.

34) عبد الوارث الحبيب : أبو القاسم عبد الوارث بن سفيان بن جبرون[أ] ابن سليمان، يعرف بالحبيب،[166] ويكنى أبا القاسم، ولد بقرطبة سنة سبع عشرة وثلاثمائة هجرية، وبها نشأ وتعلم، كان فقيها، ومن رجال الحديث الكبار، ومن أهل الصلاح والعفاف، سمع أكثر روايات قاسم بن أصبغ البياني، وغيره من شيوخ قرطبة الكبار، وكان من ألزم الناس لأبي محمد قاسم بن أصبغ البياني[167]، ومن أشهر أهل قرطبة.

أخذ عنه ابن عبد البر كثيرا من رواياته، فكتب ابن عبد البر لا تخلو منه أي صفحة من صفحاتها، وقد قال فيه أبو عمر بن عبد البر : «قرأت مصنف أبي محمد قاسم بن أصبغ في السنن على عبد الوارث بن سفيان»، و «المعارف لأبي محمد ابن قتيبة»، و «شرح غريب الحديث» له.[168]

وتوفي سنة تسعين وثلاثمائة هجرية.[169]

(أ) في البغية : جبرون بالجيم وكذلك في الصلة.

(164) الجذوة، ص 106 ــ الطبعة الاولى، مصر، الصلة، ص 48، ط. مجريط.

(165) الجذوة، ص 123، ط.1 مصر، المدارك ج4 / 808، ط. بيروت، وفيات الاعيان ج7 /66.

(166) الصلة، مجلد 2 /375ــ376 ــ ط. مجريط.

(167) الجذوة، ص 276 ــ ط. 1، مصر.

(168) الجذوة، ص 276 ــ ط. 1، مصر.

(169) الصلة، مجلد 1 /375ــ376 ــ ط. مجريط.

35) ابن أبي الفتح : أبو عثمان سعيد بن نصر(أ)، ويعرف بابن أبي الفتح، نشأ بقرطبة، ودرس بها، ولازم كثيرا من شيوخها، شيخ محدث، وأديب فصيح،(170) وكان من أهل الورع والفضل، كان من الملازمين لقاسم بن أصبغ البياني، واحمد بن مصرف، صاحب الصلاة، ووهب بن مسرة،(171) وغيرهم من شيوخ قرطبة، كما روى عنه جمع غفير من شيوخ الأندلس وعلمائها،(172) وقد أثنى عليه أبو عمر ابن عبد البر، فقال : «كان من أهل الدين والورع والفضل معربا فصيحا»(173)، وهو من الشيوخ الذين لازمهم مدة طويلة، حيث درس عليه كتاب «المجتبى» لقاسم بن أصبغ.(174)

36) التاهرتي : أبو الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن محمد التميمي التاهرتي البزار، ولد بتاهرت سنة تسع وثلاثمائة،(175) أتى مع أبيه الى قرطبة،(176) وهو ابن ثمان سنين، وقد بدأ يدرس العلم سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة هجرية، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وذلك بقرطبة،(177) فروى عن قاسم بن أصبغ، وغيره من شيوخ قرطبة.

وكان شيخا فاضلا، فقيها وعالما بالحديث، لازمه ابن عبد البر مدة طويلة، حيث قرأ عليه كتاب «فضائل الجهاد»، و «صريح السنة»، وهما لابن جرير الطبري، و«التبصرة» لابن جرير الطبري أيضا.(178)

توفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة هجرية.(179)

(أ) بفتح النون والصاد، من كلام المحقق لكتاب الانتقاء.

(170) الجذوة، ص 218، 245 ــ ط. الأولى، مصر، البغية، ص : 474، فقرة : 1442.

(171) الجذوة، ص 218 ــ الطبعة الاولى، مصر.

(172) نفس المصدر السابق.

(173) نفس المصدر السابق.

(174) نفس المصدر السابق.

(175) الجذوة، ص 132ــ133 ــ الطبعة الاولى، مصر، الصلة مجلد 1 /86ــ87.

(176) الصلة، مجلد 1 /86ــ87 ــ طبعة مجريط.

(177) الجذوة، ص 132ــ133، الصلة، مجلد 1 /86ــ87 ــ طبعة مجريط.

(178) الجذوة، ص 132ــ133 ــ الطبعة الأولى، مصر.

(179) الصلة، مجلد 1 /86ــ87 ــ طبعة مجريط.

37) ابن الصفار : أبو الوليد يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث بن محمد بن عبد الله، يعرف بابن الصفار، قاضي الجماعة،(180) وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها،(181) فقيه مالكي، وعالم بالحديث، متصوف،(182) وأديب، وشاعر.

درس بقرطبة، وروى عن فطاحل العلماء، وجهابذة الفقه والحديث،(183) اشتغل بالقضاء أول الأمر ببطليوس وضواحيها، ثم ولي الخطبة بجامع الزهرة، وأضيفت اليه الشورى، ثم الرد مكان ابن ذكوان، ثم الوزارة،(184) وألف كتبا مفيدة، منها «كتاب المنقطعين الى الله عز وجل»(185)، و«كتاب المجتهدين»، و«كتاب التسبيب والتقريب»،(186) و«كتاب التسلي عن الدنيا»(187) وله شعر في التصوف والرقائق والزهد،(188) روى عنه كثير من شيوخ الأندلس المشهورين، ودرس عليه ابن عبد البر كتاب «المنقطعين الى الله عز وجل» وغيره من الكتب السابقة.

توفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة هجرية.(189)

38) ابن الجسور : أبو عمر أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد بن الحباب ابن الجسور الأموي بالولاء،(190) من أهل قرطبة، كان يكنى أبا عمر، وكناه ابن شنظير أبا عميد وضبطه.(191)

---

(180) الجذوة، ص 362، ط.1، مصر، الصلة، ص 622—633 — ط. مجريط.
(181) الصلة، ص 622—633 — طبعة مجريط.
(182) الجذوة، ص 362 — الطبعة الاولى — مصر.
(183) الصلة، ص 622—623 — طبعة مجريط.
(184) الصلة، ص 622—623 — ط. مجريط.
(185) الجذوة، ص 362 — الطبعة الاولى، مصر.
(186) نفس المصدر السابق.
(187) الصلة، ص 622 — ط. مجريط.
(188) الجذوة، ص 362 — الطبعة الأولى — مصر.
(189) الجذوة، ص 362 — والصلة 623 — ط. مجريط.
(190) الجذوة، ص 100، ط.1 — مصر، والصلة، ص 24، ط. مجريط.
(191) الصلة، مجلد 1 /24، ط. مجريط.

ولد بقرطبة سنة تسع وعشرة او عشرين وثلاثمائة،[192] عالم بالحديث، موثق، متقدم في الفهم والرأي، حافظ، عالم بالأنساب وأسماء الرجال.

روى عن قاسم بن اصبغ، ومحمد بن معاوية القرضي، ووهب بن مسرة، وغيرهم من الشيوخ المشاهير،[193] كما روى عنه كثير من علماء الأندلس، أمثال ابن عبد البر، وابن حزم، والحولاني، والصاحبان، وغيرهم.[194]

لزمه أبو عمر بن عبد البر مدة طويلة، حيث درس عليه كتاب «ذيل المذيل»، لابن جرير الطبري، وأخذ عنه كثيرا من رواياته. توفي سنة احدى وأربعمائة هجرية.[195]

39) ابن بخت : أبو الأصبغ عبد العزيز بن عبد الرحمن بن بخت الأندلسي،[196] من رجال الحديث، ومن علماء الأندلس،[197] سمع من شيوخ الأندلس المشهورين،[198] قرأ عليه ابن عبد البر علما كثيرا، وقال : «قرأت على أبي الأصبغ بن بخت «كتاب العلم» لأحمد بن سعيد بن حزم، و «مصنف أبي عبد الرحمن النسائي».[199]

40) ابن يعيش الوراق : أبو عثمان يعيش بن سعيد بن محمد الوراق، من أهل قرطبة، يكنى أبا القاسم،[200] أو أبا عثمان،[201] درس بقرطبة، وروى عن أشهر شيوخها،[202] من علماء الحديث، كان يحدث بقرطبة ويكتب عنه

---

(192) نفس المصدر السابق.

(193) نفس المصدر السابق.

(194) الجذوة، ص 100 ــ الطبعة الاولى، مصر، والصلة، ص : 24، ط. مجريط.

(195) نفس المصدرين السابقين.

(196) الجذوة، ص 270 ــ الطبعة الأولى، مصر.

(197) نفس المصدر السابق.

(198) نفس المصدر السابق.

(199) الجذوة، ص : 270 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(أ) في البغية ابن الشذوني.

(200) تاريخ علماء الأندلس ــ القسم الثاني، ص : 199 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.

(201) البغية، ص 500، فقرة : 1506 ــ طبعة مجريط.

(202) تاريخ علماء الأندلس، ق2 /199 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.

الحديث، وله كتاب «مسند» حديث أبي بكر محمد بن معاوية القرشي.[203] رواه عنه أبو عمر بن عبد البر، وقال : «قرأ علي الوليد أبو عثمان يعيش بن سعيد سنة تسعين وثلاثمائة هجرية[204] مسند حديث أبي بكر محمد بن معاوية القرشي من تأليفه مما سمع منه، وأخبرنا بذلك عنه».[205]

وتوفي ليلة الجمعة لخمسين بقين من شهر صفر من سنة أربع وتسعين وثلاثمائة[206] هجرية.

41) الشدوني : أبو الحزم وهب بن محمد بن محمود بن اسماعيل بن عبد الله بن يحيى، من أهل قرطبة، يكنى أبا الحزم الشدوني،[207] شيخ صالح، مفتي، محدث،[208] حافظ للرأي، سمع من قاسم بن أصبغ، ووهب بن مسرة، وغيرهما من اعلام الأندلس،[209] كما سمع عنه وكتب كثير من علماء الأندلس الأجلاء، منهم أبو عمر بن عبد البر، الذي قال عنه : «قرأت على أبي الحزم وهب بن محمد كتاب «غرائب حديث مالك».[210]

توفي يوم الثلاثاء لاحدى عشرة ليلة بقين من شهر رمضان سنة احدى وتسعين وثلاثمائة هجرية.[211]

42) ابن شاكر : أبو اسحاق بن شاكر فقيه مالكي محدث ذو فضل وصلاح.[212]

---

(203) تاريخ علماء الأندلس، ق2 /199 ــ الدار المصرية، والبغية ص : 501.
(204) البغية، ص : 501 ــ طبعة مجريط.
(205) البغية، ص : 501 ــ ط. مجريط.
(206) تاريخ علماء الأندلس، ق2 /199 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.
(207) تاريخ علماء الأندلس، 2 /166 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.
(208) نفس المصدر السابق.
(209) تاريخ علماء الاندلس ق2 /166 ــ الدار المصرية، والجذوة ط.1 ــ مصر.
(210) الجذوة، ص : 338 ــ طبعة مصر، والبغية ص : 465، ط. مجريط.
(211) تاريخ علماء الاندلس، ق2 /166 ــ الدار المصرية، والجذوة، ص : 338 ــ ط.1 ــ مصر.
(212) الجذوة، ص 146، ط. 1 مصر.

نشأ بقرطبة، وسمع من علمائها، وأشهر شيوخها، وظل يطلب العلم الى أن مات، وذلك بمصاحبة أبي عمر بن عبد البر، الذي حدث عنه وأثنى عليه.[213]

43) عبيد الله : أبو عبد الله عبيد الله بن محمد من أهل قرطبة، محدث، فقيه، كان يسكن قرطبة، حيث سمع من كثير من علمائها وشيوخها.[214]

قرأ عليه أبو عمر بن عبد البر كتاب «مسند أبي عبد الله بن سنجر».

44) ابن فطيس : أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس ابن أصبغ بن فطيس بن سليمان، ولد سنة ثماني وأربعين وثلاثمائة هجرية، حافظا للحديث، عالما بعلله ورجاله، متقنا.

كان قاضيا للجماعة بقرطبة، وحدث عنه كثير من كبار علماء الأندلس وشيوخها.

توفي سنة اثنتان وأربعمائة هجرية.[215]

45) ابن نصر الرفاء : أبو المطرف عبد الرحمن بن نصر الرفاء، ولد بقرطبة، ودرس بها، فقيه، محدث، روى عن كثير من علماء الأندلس وشيوخها، وكتب اليه من المشرق أبو يعقوب بن الداخل، وأبو القاسم السقطي، وغيرهما.[216] اعتنى بجمع الحديث وضبطه، كما روى عنه كثير من علماء الأندلس.

46) الحجاري : أبو بكر عباس بن أصبغ[217] بن عبد العزيز بن الهمذاني، من أهل قرطبة، ويعرف بالحجاري، ولم يكن من وادي الحجارة،[218] شيخ، من رجال الحديث، ضابط، طاهر، عفيف، سمع من شيوخ قرطبة

---

(213) الجذوة، ص 277 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.
(214) نفس المصدر السابق.
(215) الصلة 5 /303 ــ طبعة مجريط.
(216) الصلة 5 /303 ــ ط. مجريط.
(217) تاريخ علماء الأندلس، ق1 /298 ــ الدار المصرية، والجذوة، ص 299 ــ ط.1 مصر.
(218) تاريخ علماء الأندلس، ق1 /298 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.

واشبيلية.[219] روى عنه كبار علماء الأندلس وشيوخها، أمثال ابن الفرضي،[220] وابن عبد البر، ومحمد اللخمي، وذلك قبل سنة ست وثمانين وأربعمائة هجرية.[221] وتوفي سنة ست وثمانين وثلاثمائة هجرية.[222]

47) ابن نمارة : أبو حفص عمر بن نمارة، فقيه مالكي، محدث، سمع من فقهاء قرطبة، ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد البر، الذي قرأ عليه تاريخه في فقهاء قرطبة، وكتابه في القضاء،[223] روى عنه أبو عمر ابن عبد البر، وقال : «أخبرنا أبو حفص عمر بن نمارة بتاريخ أبي عبد الله بن عبد البر في فقهاء قرطبة، وبكتابه في القضاء عنه».[224]

48) ابن المكتب : محمد بن أحمد بن محمد المكتب، فقيه، محدث، روى عنه علماء الأندلس، ومنهم أبو محمد جعفر بن أحمد بن عبد الله البزاز.[225]

كما روى عنه كثير من أعلام الأندلس، ومنهم أبو عمر ابن عبد البر.[226]

49) أبو القرامية : أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن سعيد، يعرف بابن أبي القرامية،[227] فقيه، من رجال الحديث وعلمائه، روى بقرطبة عن أشهر شيوخها، أمثال محمد ابن معاوية القرشي، وابن مفرج القاضي، وأحمد بن مطرف، وأحمد بن سعيد بن حزم،[228] كما روى عنه كثير من شيوخ الأندلس وأعلامها، كان من اضبط الناس لكتبه، وأفهمهم لمعاني الرواية.[229]

---

(219) نفس المصدر السابق.

(220) تاريخ علماء لاندلس، ق1 /298 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.

(221) الجذوة، ص 299، ط.1 ــ مصر.

(222) تاريخ علماء الأندلس، ق1 / 298 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.

(223) الجذوة، ص : 284 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(224) الجذوة، ص : 284 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(225) الجذوة، ص : 38 ــ الطبعة الأولى ــ مصر، والبغية، ص : 44.

(226) نفس المصدرين السابقين.

(227) الجذوة 1 /39 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

(228) نفس المصدر السابق.

(229) نفس المصدر السابق.

ومن كتبه : «كتاب في كلام أبي زكرياء يحيى بن مَعين»، في ثلاثين جزءا.[230]

50) الأسدي : أبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد بن عثمان بن سعيد ابن هشام بن اسماعيل بن سفيان الأسدي، من أهل قرطبة، ولد سنة ست وعشرين وثلاثمائة هجرية.[231] أديب، ومن رجال الحديث وعلمائه، سمع بقرطبة من أشهر شيوخها، كما سمع من أبيه، وأجاز له جميع رواياته.

نصب نفسه للدرس والتحديث، فسمع منه كثير من العلماء الأجلاء. توفي سنة ثلاث وأربعمائة[232] هجرية.

51) ابن عصفور : أبو القاسم أحمد بن عمر بن عبد الله بن منظور الحضرمي، يعرف بابن عصفور، ويكنى أبا القاسم، ولد باشبيلية سنة ثماني وثلاثين وثلاثمائة. أديب، شاعر، من أهل الفضل والصلاح والزهد، سمع من أبي محمد الباجي كثيرا من روايته.[233] روى عنه أبو عمر بن عبد البر وأثنى عليه.[234]

توفي في شهر رمضان سنة عشر وأربعمائة هجرية [235].

52) المَوروي : أبو العاصي أمية بن غالب المَوروي، كان يسكن قرطبة، أديب، شاعر مشهور، من شعراء الدولة العامرية،[236] روى عنه كثير من أعلام الأندلس، أمثالَ أبي الأصبغ النحوي الاخفش، وأبي عمر ابن عبد البر الذي ذكره في باب غالب من تاريخ شيوخه.[237]

---

(230) نفس المصدر السابق.

(231) الصلة، ص : 474ـــ475. ط. مجريط.

(232) نفس المصدر السابق.

(233) الصلة 1 /32ـــ33 ـــ ط. مجريط.

(234) نفس المصدر السابق.

(235) نفس المصدر السابق.

(236) البغية، ص : 227، فقرة 580 ـــ طبعة مجريط.

(237) التكملة 1 /263.

53) القيسي : أبو نصر هارون بن موسى بن صالح بن جندل القيسي، من أهل قرطبة، وأصله من مجريط،[238] عالم، من رجال الأدب، ومن أهل الصلاح والخير، ثقة في دينه وعلمه، سمع بقرطبة من الأجِلاء في العلم والأدب، وكان مدرسا يعلم الأحداث، ويختلف اليه وجوه الناس.[239] توفي يوم الاثنين لأربع بقين من ذي القعدة سنة إحدى وأربعمائة[240] هجرية.

54) الاستجي : أبو عمر يوسف بن محمد بن عمر بن يوسف بن عمروس، من أهل استجة،[241] وسكن قرطبة،[242] ولد سنة عشرين وثلاثمائة[243] هجرية، فقيه، حافظ للمسائل، رئيس المفتين، محدث، مؤدب، وكان يتهجد بالقرآن، سمع من قاسم بن أصبغ كثيرا، ومن أبي دليم، ومحمد بن معاوية، وغيرهم،[244] حدث وسمع منه غير واحد من العلماء، ومنهم أبو الوليد بن الفرضي، الذي قال فيه : «وأجاز لي جميع روايته»[245]، وأبو عمر بن عبد البر.[246]

توفي باستجة يوم الأربعاء لخمس بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة هـ.[247]

55) ابن مسعود : أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن بن مسعود، من رجال الحديث، فقيه مالكي، سمع من أشهر علماء الأندلس، مثل قاسم بن أصبغ، وأحمد بن سعيد بن حزم الصدفي، وابن أبي دليم.[248]

---

(238) الصلة، ص : 595ـ596 ـ ط. مجريط.
(239) الصلة ص : 595ـ596 ـ ط. مجريط.
(240) نفس المصدر السابق.
(241) تاريخ علماء الاندلس، ق2 /208 ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966
(242) البغية، ص : 472، فقرة 1434 ـ ط. مجريط 1884.
(243) تاريخ علماء الأندلس، ق2 / 208 ـ الدار المصرية.
(244) تاريخ علماء الاندلس ق2 /208 ـ الدار المصرية، والبغية ص : 472 ـ ط. مجريط.
(245) تاريخ علماء الاندلس ق2 /208 ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966
(246) الجذوة ص : 344 ـ الطبعة الاولى ـ مصر، والبغية ص : 473، ط. مجريط 1884.
(247) تاريخ علماء الأندلس، ق2 /208 ـ الدار المصرية.
(248) الجذوة، ص 354 ـ الطبعة الاولى، مصر، والبغية ص : 489 ـ ط. مجريط.

ـ وقد روى عنه كثير من شيوخ الأندلس وعلمائها، وقال ابن عبد البر : «قرأت على يحيى بن عبد الرحمن ما خرجه محمد بن وضاح في الصلاة في النعلين، وحدثني به عن محمد بن أبي دليم عن ابن وضاح.[249]

56) ابن عسلون : أبو محمد قاسم بن وليد بن عباس بن صارم بن أبي رباح الفراء،[250] ويعرف بابن عسلون،[251] وهو من أهل قرطبة، وعسلون هو عم أبيه، ولد سنة أربع عشرة وثلاثمائة هجرية،[252] فقيه، محدث، ومن أهل الصلاح، سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ، وغيره.[253] قال أبو عمر بن عبد البر : «كتب عن قاسم هذا كثيرا من روايته». وقال : «أخذت عنه تاريخ الرازي الأوسط في أخبار الأندلس، وأجاز لي جميع روايته».[254]

57) خلف بن المنفوخ : خلف بن سعيد بن أحمد بن المنفوخ،[255] كان من فقهاء اشبيلية، روى عن أبي محمد الباجي، فقيه مالكي، ومحدث، قال أبو عمر بن عبد البر : «أنا خلف بن سعيد بن أحمد بمسند علي بن عبد العزيز المنتخب».[256]

58) ابن أبي جعفر : خلف بن أحمد المعروف بابن أبي جعفر، فقيه، عالم بالتعديل والتجريح. قال أبو عمر بن عبد البر : هو من موالي بني أمية، وكان من ألزم الناس لأحمد بن مطرف بن عبد الرحمن المعروف بابن المشاط صاحب الصلاة، ولأحمد بن سعيد بن حزم صاحب التاريخ في الرجال،[257] وكان أحد

---

(249) الجذوة، ص : 354 ــ الطبعة الأولى ــ مصر، والبغية ص : 489 ــ ط. بحريط.

(250) الصلة، ص 459 ــ ط. بحريط.

(251) الجذوة، ص : 326 ــ الطبعة الاولى ــ مصر، والصلة ص 459، ط. بحريط.

(252) نفس المصدر السابق.

(253) الجذوة، ص : 325، ط.1 مصر، والصلة ص : 459 ــ ط. بحريط.

(254) الصلة ص : 459، ط. بحريط.

(255) الجذوة ــ ج 5 ص : 194 ــ الطبعة الأولى ــ مصر، والبغية، ص : 270، ط. بحريط.

(256) الجذوة ــ ج 5 / 194، ط.1 ــ مصر، والبغية، ص : 270، ط. بحريط.

(257) الجذوة، ج5 / 192ــ193، والبغية، ص : 267، ط. بحريط.

رجال القاضي محمد بن يبقى بن زرب العدول سمع من احمد بن سعيد تاريخه الكبير في التعديل والتجريح. قال أبو عمر ابن عبد البر لم أجده كاملا عند أحد إلا له ولأحمد بن محمد الإشبيلي[258].

59) البيجاني : أبو علي بن عبد الله بن يعقوب البيجاني، فقيه مالكي، محدث، روى عن أشهر أعلام الأندلس، مثل سعيد بن مخلوف الذي روى عنه «كتاب عبد الملك بن حبيب السلمي»، كما روى عنه كثير من علماء الأندلس. قال أبو عمر بن عبد البر : «أخبرني بالواضحة، لعبد الملك بن حبيب أبو علي الحسين بن يعقوب...»[259]

ثالثا : الشيوخ الذين أجازوه أو كاتبوه :

60) الازدي : أبو محمد عبد الغني بن سعيد، من الأزد، ولد سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة هجرية بالقاهرة، شيخ، حافظ الحديث بمصر في عصره، كان عالما بالانساب، متفننا، خاف على نفسه أيام الحاكم الفاطمي، فاختفى مدة ثم ظهر. من كتبه : «مشتبه النسبة ـط»، و «المؤتلف والمختلف ـــ ط» في أسماء نقلة الحديث،[260] مات بالقاهرة.

61) الهروي : أبو ذر عبد[261] بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الأنصاري الهروي، عالم بالحديث، من الحفاظ، من فقهاء المالكية، يقال له ابن السماك، أصله من هراة، نزل مكة، ومات بها. له تصانيف منها : «تفسير القرآن»، و «المستدرك على الصحيحين»، و «السنة والصفات»، و

---

(258) نفس المصدر السابق.

(259) الجذوة، ص : 183، الطبعة الأولى ـــ مصر، والبغية، ص : 250، ط. مجريط.

(260) الأعلام للزركلي ج4 /159 ـــ الطبعة الثانية، مقتبس من وفيات الأعيان 1 /305

(261) هكذا في الاعلام بدون الله.

«معجمان»، أحدهما فيمن روى عنهم الحديث، والثاني فيمن لقيهم ولم ياخذ عنهم.[262]

62) قاسم بن محمد بن عسلون، أخذ عنه وأجازه.[263] (سبقت ترجمته).

63) أبو القاسم بن عبد الله السقطي، من مكة، كاتبه.[264]

64) أبو الفتح بن سيبخت، كاتبه.[265]

65) أبو محمد بن النحاس، من مصر، وقد كاتبه من هناك.[266]

66) أحمد بن نصر الدراوردي، من مكة، كتب اليه منها.[267] هذا غيض من فيض، وقليل من كثير.

---

(262) الاعلام ــ ج4، ص : 41 ــ الطبعة الثانية.

(263) الصلة، ص : 459 ــ ط. مجريط.

(264) الصلة، مجلد 2 /616، ط. مجريط.

(265) تذكرة الحفاظ، مجلد 3 /1128 ــ الطبعة الرابعة.

(266) الصلة، مجلد 2 /616 ــ ط. مجريط.

(267) الصلة، مجلد 2 /616 ــ ط. مجريط.

الفصل الرابع

ميدان نشاطه في الحياة العملية

نتناول في هذا الفصل الكلام على اتصاله بذوي السلطان، ثم توليته القضاء، واشتغاله بالتدريس والتأليف، وأخيراً معيشته ومصادر رزقه، وعليه سيشتمل هذا الفصل على المباحث التالية :

- المحبث الأول : ونبحث فيه «اتصاله بذوي السلطان»
- المبحث الثاني : ونبحث فيه «توليته القضاء»
- المبحث الثالث : ونبحث فيه «اشتغاله بالتدريس والتأليف»
- المبحث الرابع : ونبحث فيه «معيشته وأسلوب حياته»

أولا : اتصاله بذوي السلطان[1] :

لم يذكر ابن عبد البر شيئاً عن حياته السياسية والادارية بقرطبة، وكذلك كتب التراجم، وكل ما يمكن أن نقوله، هو أن ابن عبد البر عاش شبابه كله تقريباً في ظل الدولة العامرية، وأنه لم يغادر قرطبة، إلا بعد الفتنة البربرية التي حدثت سنة 403 هـ. ومعنى هذا أنه كان قد وصل إلى فترة النضج، ولذا فليس عدم إشارة المؤرخين إلى شيء من حياته في هذه الفترة، يعني أنه لم يكن يتصل بأرباب السلطان من العامريين، إذ من الممكن أن يكون قد اتصل بهم، خاصة وأن أباه كان فقيها مشهوراً، وأديباً بارعاً، وأنه نفسه كان قد وصل من الشهرة، والمعرفة ما يجعله يغري العامريين باجتذابه، وتقريبه إليهم، ويؤكد هذا أن محمد بن أبي عامر

(1) نفح الطيب ــ ج 3 /235، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

كان عالماً، يحب العلماء ويقربهم إليه، بالإضافة إلى هذا، جلاؤه عن قرطبة، وعدم رجوعه إليها؛ إذ لولا اتصاله بالعامريين، لما أرغم على الجلاء عن قرطبة، وعدم الرجوع إليها، فكيف يعقل ذلك، إذ لم تكن هذه الأسباب هي العامل الأساسي في ذلك، مع العلم أن قرطبة مسقط رأسه، ومرتع طفولته وشبابه، ومنهل ثقافته، ومركز الإشعاع العلمي في الأندلس خاصة، والمغرب عامة.

ويقوي هذا الاحتمال أنه كان يصاحب ابن حزم ابن الوزير في الخلافة الأموية(2)، ويرافقه في الدراسة والمداعبة(3)، فلولا مركزه الاجتماعي الهام، وعلاقته بذوي السلطان لما صاحبه ابن الوزير.

على كل حال، فإذا لم يتصل بذوي السلطان بقرطبة، فقد اتصل بهم في غيرها من مدن الأندلس، غربها وشرقها، قال المقري :

«وذكر القرطبي صاحب «التذكرة» في كتابه «قمع الحرص بالزهد والقناعة» ما صورته : «روينا أن الإمام أبا عمر بن عبد البر (ض) بلغه وهو بشاطبة أن أقواماً عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه فقال :

قل لمن ينكـــــر أكلي لطعـــــام الأمـــــراء
أنت من جهـــلك هذا في محل السفهـــــاء

لأن الاقتداء بالصالحين من الصحابة والتابعين أئمة الفتوى من المسلمين من السلف الماضين هو ملاك الدين(4).

ومعنى هذا أن ابن عبد البر، كان يخالط الأمراء، ويأكل معهم، ويقبل هداياهم، كما كان يفعل السلف. وهكذا فقد اتصل بدانية التي تقع في شرق الأندلس، بحاكمها أبي الجيش مجاهد بن عبد الله العامري، الذي كان مولى روميا

(2) نفح الطيب — ج2 ص 82—83 — تحقيق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر — بيروت.
(3) نفس المصدر.
(4) نفح الطيب — ج 3 /235، تحقيق د. احسان عباس — توزيع دار الفكر — بيروت.

من موالي عبد الرحمن الناصر بن المنصور محمد بن أبي عامر(5)، وأكرمه، وقدره حق قدره، وأغدق عليه الصلات والهدايا، الشيء الذي ساعده على تأليف أهم الكتب التي اشتهر بها(6). هذا، ويبدو أنه قبل أن يتوجه إلى دانية، كان قد قصد مدينة إشبيلية للاتصال بحاكمها، ولكنه لم يلق منهم ما كان يأهله من الترحيب والتكريم، بل قابلوه بالجفاء والتبرم، ففارقها متحسراً على ما لَقِيَهُ منهم قائلًا(7) :

وقائلةٍ ما لي أراك مرحلا ... فقلت لها صه واسمعي القول مجملا
تنكر من تنافس بقريضه ... وعاد زعاقا بعد ما كان سلسلا
وحق لجار لم يوافقه جاره ... ولا لآءمته الدار أن يترحلا
بليت بحمص والمقام ببلدة ... طويلا لعمري مخلق يورث البلا
إذا هان حر عند قوم أتاهم ... ولم ينأ عنهم كان أعمى وأجهلا
ولم تضرب الأمثال إلا لعالم ... ولا عوتب الانسان إلا ليعقلا

اتصل ابن عبد البر بمجاهد العامري، وكفل له جميع ما كان يتطلع إليه من الهدوء والاستقرار فاتجه إلى الاشتغال بالعلم، وأهم ما كان يمتاز به العامري، إلى جانب كفاءته الإدارية وشجاعته، هو حبه الشديد للعلم والعلماء، وجمعه للكتب، فاجتمع لديه حملة من شيوخ العلم، ومشهور طبقاتهم، فكان وزيره أبو العباس أحمد بن رشيق الكاتب(8)، إلى جانب أبي عمرو الداني(9)، وابن سيدة(10)، وكان له من المصنفين عدة يقومون على التصنيف في علوم القرآن

(5) البغية، م1 /32 ــ طبعة مجريط.
(6) مقدمة كتاب البهجة، لمحققها محمد مرسي الخولي.
(7) البهجة ج1 /244 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.
(8) انظر ترجمته في جذوة المقتبس، ص : 114، وبغية الملتمس، ص : 166، وليس هذا بالطبع أبا الحسن بن رشيق القيرواني، صاحب العمدة.
(9) عثمان بن سعيد بن عمرو الداني، عالم القراءات الكبير، ترجمته في نفح الطيب ج1 /386، ومعجم الأدباء 5 /36.
(10) علي بن اسماعيل بن سيدة، صاحب المخصص والمحكم، ترجمته في بغية الملتمس ص : 405، ووفيات الاعيان 1 /342.

خاصة، ويشاركون في فنون أخرى من العلم، يشرفون بها مملكته، حتى اشتهرت دانية آنذاك، بأن أهلها أقرأ الناس للقرآن[11].

وهكذا صادفت دانية هوى نفس ابن عبد البر، فذهب إليها، وألقى بها عصا الترحال، وظل هناك بجانب أميرها إلى أن توفي سنة 436. يرعاه؛ ويقدم إليه كل ما يحتاج إليه.

وبعد وفاة أبي الجيش مجاهد، فارق ابن عبد البر دانية، وتوجه إلى غرب الأندلس، حيث اتصل بأمير بطليوس، المظفر بن الأفطس[12]، حيث استقبل استقبالا حارا وكريما، وأنزله منزلة رفيعة، فوصله، وأغدق عليه الهدايا، وأجزل في عطائه؛ إذ عرف له المظفر مكانته وفضله، خاصة وأن ملوك الطوائف كانوا يتنافسون في اجتذاب العلماء والأدباء إلى حظيرتهم؛ لأنهم كانوا بمثابة الصحفيين في عصرنا الحاضر، حيث كانوا يذيعون أخبار الملوك، وينشرونها على صفحات كتبهم. ومما يدل على تكريم المظفر بن الأفطس لابن عبد البر، توليته القضاء، في مدينتين من أهم المدن في غرب الأندلس، وقد قضى بجانب هذا الأمير زمنا طويلا، إلى أن توفي سنة 460 هـ.

وهكذا نرى أن ابن عبد البر، قد ساير عصره، فاتصل بذوي السلطان، وذوي الأمر، كباقي العلماء في كل مكان وزمان، وكان يرى أن مخالطة السلطان ومداخلته، ليست بحرام، وإنما كان يقول : إنما يحرم مداخلة السلطان الجائر الفاسق، فأما العادل فمداخلته ورؤيته وعونه على الصلاح، من أفضل أعمال البر[13].

ثانيا : **توليته القضاء :**

لما توفي أبو الجيش مجاهد العامري، توجه ابن عبد البر إلى غرب الأندلس، فاتصل بالمظفر بن الأفطس ببطليوس، فاستقبله هذا استقبال العلماء العظام،

---

(11) معجم البلدان لياقوت ــ ط. بيروت ــ مادة دانية.

(12) ترجمته في البيان المغرب 3 /157.

(13) جامع بيان العلم وفضله، ج1 /227 ــ دار الفكر ــ بيروت.

فرحب به، وكرمه، وجعله من رجال دولته، حيث أسند إليه منصب القضاء، وهكذا ولاه قضاء لشبونة، وشترين[14]، وهما من أكبر مدن الأندلس إذذاك، ولشبونة الآن، هي عاصمة البرتغال، التي تقع على شاطيء المحيط الأطلسي. ولم يذكر المؤرخون شيئا عن تاريخ بداية عمله في هذا المنصب، ولا عن المدة التي قضاها فيه، ولا عن تحديد الوقت الذي قضاه في لشبونة أو شنترين، ولكن يبدو أنه قضى فيه زمنا طويلا؛ لأن مجاهد بن عبد الله العامري توفي سنة 436 هـ. فإذا فرضنا أن ابن عبد البر، غادر دانية في هذا التاريخ، والتحق مباشرة ببطليوس، ثم عينه المظفر بن الأفطس في منصب القضاء، واستمر في ذلك إلى أن توفي المظفر ابن الأفطس سنة 460هـ. يكون ابن عبد البر، قضى في هذا المنصب زمنا طويلا.

وابن عبد البر في قضائه، كان يسير على النهج السلفي، وعلى الخطة التي رسمها رسول الله – ﷺ – لمن يتولى القضاء في جواره مع معاذ بن جبل، وهي أن يحكم القاضي بما جاء في كتاب الله، ثم بما جاء في سنة رسول الله، فإن لم يجد، فليجتهد، وهكذا كان ابن البر يَرَى أنه لا ينبغي لأحد أن يتولى القضاء إلا إذا كان عالما مجتهدا؛ لأن القاضي لابد أن تنزل له نوازل، ليس لها حكم في الكتاب والسنة، ولا في عمل الصحابة والأئمة، فيضطر إلى أن يجتهد، ولهذا فلا يجوز لغير المجتهد أن يتقلد القضاء، ولا يجوز للإمام توليته[15]، والاجتهاد عنده هو الاجتهاد الذي يكون مبنيا على أصول يضاف إليه التحليل والتحريم، ومن أشكل عليه شيء، لزمه الوقوف ولم يجز له أن يحيل على الله قولا في دينه لا نظير له من أصل، ولا هو في معنى أصل، وهو الذي لا خلاف فيه بين أئمة الأمصار قديما وحديثا فتدبره[16]. وعنده أن القاضي إذا اجتهد وطبّق الشروط السابقة، لا يُرَدُّ حكمه، وأما من أخطأ منصوصا، فقوله وفعله عندهم مردود إذا ثبت الأصل فافْهَمْ[17].

---

(14) وفيات الأعيان، ج7 /68، تحقيق الدكتور احسان عباس.

(15) جامع بيان العلم وفضله، ج2 /86 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(16) جامع بيان العلم وفضله، ج2 /71 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(17) جامع بيان العلم وفضله، ج2 /80 ــ دار الفكر ــ بيروت.

ومن الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها القاضي – عند ابن عبد البر – الرجوع إلى الحق، فعنده أن القاضي لا يمنعه قضاء قضاه بالأمس من أن يرجع فيه إلى الحق، فإن الحق قديم، والرجوع إلى الحق أولى من التمادي فيه[18]، وكان يحرص كل الحرص على اتباع السلف في قضائه، ولذا كان يشترط في القاضي الاجتهاد، والابتعاد عن التقليد، لأن التقليد، يصلح للعامة الذين عليهم أن يقلدوا العلماء، وقد نظم في هذا المعنى أبياتا هذا نصها :

ياسائلي عن موضع التقليد خذ ... عني الجواب بفهمِ لُبٍّ حاضر
واصْغَ إلى قولي ودون بنصيحتي ... واحفظ علي بوادري ونوادري
لا فرق بين مقلد وبهيمة ... تنقاد بين جنادل ودعائر
تبّاً لقاض أو لمفْتٍ لا يرى ... عِلَلاً ومعنىً للمقال السائر
فإذا اقتديت فبالكتاب وسنة المبـ ... ـعوث بالدين الحنيف الطاهر
ثم الصحابة عند عدمك سنة ... فأولئك أهل نهي وأهل بصائر
وكذلك إجماع الذين يلونهم ... من تابعيهم كابرا عن كابر
إجماع أمتنا وقول نبينا ... مثل النصوص لدى الكتاب الزاهر
وكذا المدينة حجة أن أجمعوا ... متتابعين أوائل بأواخر
وإذا الخلاف أتى فدونك فاجتهد ... ومع الدليل فمل بفهم وافر
وعلى الأصول فقِس فروعك لا تقِسْ ... فرعا بفرع كالجهول الحائر
والشر ما فيه – فديتك – إسوة ... فانظر ولا تحفل بزلة ماهر[19]

وكان ابن عبد البر، عدلا نزيها في قضائه، ثقة، متدينا[20]، لا يخاف في الله لومة لائم، وكيف لا يكون كذلك، وهو من المشتغلين بحديث رسول الله – ﷺ – ومن كان هذا عمله، فلابد أن يعدل في حكمه. وكان في قضائه مالكيًّا، أي على مذهب الامام مالك، وهو المذهب السائد إذذاك في الأندلس

(18) جامع بيان العلم وفضله، ج2 /108 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(19) جامع بيان العلم وفضله، ج2 /140ــ141 ــ دار الفكر بيروت.
(20) شذرات الذهب، ج3 /314ــ315.

والمغرب، وكان يعمل بمبدأ «البينة على المدعي واليمين على من أنكر»، وهو مبدأ عليه كل القضاة المالكية(21).

وكان بلا شك، يلبس الزي الذي كان القضاة في الأندلس يلبسونه، وهو الأقروف والغفار(22)، والأقروف كان مخروطي الشكل، أما الغفارة، فالأرجح أنها نوع من الكوفيات، وكان القضاة يلبسون عضائر الصوف حُمْرا وخضرا، والصفر كانت مخصوصة باليهود(23).

وكان القضاة والفقهاء يضعون على رأسهم القالص وهو «القالس» ويعرفها المشارقة باسم القلنسوة، ولذلك يسمى القضاة بذوي القلانس، أما في المغرب والأندلس فيسمونهم «بالمقلصين»، ولا يكون الفقيه فقيها، إلا إذا حفظ الموطأ أو عشرة آلاف حديث، وحفظ المدونة(24).

وكان من المفتين المشهورين، الذين يعتمد عليهم، ويعمل بأقوالهم. ومن فتاويه، الجهر بالبسملة(25)، والأيمان اللازمة(26) وغيرهما من فتاويه المنثورة في كتبه المختلفة.

ثالثا : اشتغاله بالتدريس والتأليف :

طار صيت ابن عبد البر، وعلا ذكره في جميع الأقطار(27)، وخاصة في بلاده الأندلس، فراح الطلاب والعلماء يرحلون إليه، ويقصدونه من كل صوب وحدب، ليسمعوا منه، وليأخذوا منه العلم، وهكذا سمع منه عالم كثير من جلة

(21) شرح الزرقاني على موطأ الامام مالك، ج4 /38 ط. مصر.
(22) قضاة قرطبة، للخشني، ص : 83 ــ ط.1
(23) نفس المصدر السابق.
(24) قضاة قرطبة ــ للخشني، ص : 83 ــ الطبعة الأولى.
(25) الاستذكار، ج2 /177ــ178ــ179ــ180 ــ الطبعة الأولى، وكتاب «الانصاف فيما في بسم الله من الاختلاف».
(26) اعلام الموقعين، ج 3 /77.
(27) ترتيب المدارك، ج4 /808 ــ ط. بيروت.

أهل العلم[28] والمعرفة، حيث كان سنده مما يتنافس فيه[29]، ويتعب العلماء من أجل الحصول عليه، خاصة وأن ابن عبد البر صبر على الطلب حتى فاق من تقدمه من رجال الأندلس، وعظم شأنه.

ومن أهم العلماء الذين درسوا عليه، وسمعوا منه، من رواد الحديث والفقه، ابن حزم[30]، وأبو علي حسين الغساني، وابنه الكاتب والأديب أبو محمد عبد الله ابن يوسف ابن عبد البر[31]، وسبطه أبو محمد اللخمي[32]، وأبو محمد عبد الله الحميدي، وغيرهم كثير.

ومن المدن التي حدث فيها، وزاول بها التدريس، شاطبة، وذلك سنة 453 هـ[33]. حيث كان يدرس بكتابه الاستيعاب والإنباه[34]، وبلنسية على عهد المظفر بن عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر. ومن التلاميذ الذين درسوا عليه فيها، أبو إسحاق القرطبي الصوفي وذلك سنة 451 هـ[35]. وقيل هذا كان يدرس بدانية لكتابه «التقصي»، حيث سمعه منه كثير من العلماء، ومنهم ابن الحشا، وذلك سنة 432 هـ. وكان يقصده طلاب كل بلدة حل بها، وألقى بها عصا التسيار، ولهذا فليس غريبا أن يكون قد زاول التدريس بغرب الأندلس في لشبونة، وشنترين.

أما المواد التي كان يدرسها، فهي الحديث والفقه[36] والقراءة[37]

(28) الديباج المذهب، ص : 357.
(29) ترتيب المدارك، ج4 / 808 ــ ط. بيروت.
(30) سير النبلاء : ترجمة ابن حزم المقتبسة من سير النبلاء للذهبي لسعيد الافغاني ص : 22 ــ دار الفكر ــ بيروت (1383هـ 1969م).
(31) الصلة، مجلد 1 /279 ــ ط. مجريط.
(32) التكملة، ج 2 / 821.
(33) فهرست ابن خير، ص : 214ــ215.
(34) نفس المصدر السابق.
(35) التكملة 1 /137.
(36) المدارس، ج 4 /808 ــ طبعة بيروت.
(37) الصلة 5 /334 ــ طبعة مجريط، والحلل السندسية، ج2 /18.

والأدب[38] وعلم النسب والخبر[39]. هذا وكان تدريس الفقه والحديث والعربية هو الشيء الغالب على جماهير المدرسين والمؤدبين، وهم في تدريسهم يعتمدون الكتاب المشرقي في الغالب[40].

ولم تنشأ عند الأندلسيين مدارس خاصة، بل ظل المسجد هو المكان المخصص للدراسة فإن لم يكن المسجد، فبيت الأستاذ نفسه، وهكذا كان ابن عبد البر يلقي الدروس بمنزله، فقد قال أبو علي الغساني : «حدثني بهما (الاستيعاب والانباه) أبو عمر ابن عبد البر قراءة عليه في منزله بشاطبة سنة 453 هـ[41]». وبلا شك أنه كما درس بمنزله، درس في المسجد، كعادة العلماء إذذاك، وكان الطلبة يأتون إليه، ويتحلقون حوله، ثم يقرأ عليه أحدهم الكتاب المراد تدريسه والآخرون يسمعون منهم، ثم يبدأ في التحليل والشرح[42]، أو كان الطالب يسأله وهو يجيبه، وكان ابن عبد البر يحبذ هذا حيث قال لبعض المتقدمين :

إذا كنت في بلد جاهلا وللعلم ملتمسا فاسأل
فإن السؤال شفاء الصبي كما قيل في المثل الأول[43]

وقال هو نفسه ومن إنشاده :

إن الحياة لخير كله أبدا ما لم يحل بين نفس المرء والطلب

وهكذا، كان يفتتح ابن عبد البر دروسه بقراءة الكتاب أو بسؤال الطالب له، ثم يكرر على ذلك بالشرح والتحليل، أو على الطلبة محاضرته.

---

(38) فهرست ابن خير، ص : 227 ــ الطبعة الأولى.
(39) فهرست ابن خير، ص : 214ــ215، والمدارك ج4 /808.
(40) تاريخ الادب الاندلسي (عصر سيادة قرطبة) ص : 38 ــ دار الثقافة ــ بيروت.
(41) فهرست ابن خير، ص : 214ــ215 ــ الطبعة الأولى. ط ــ مدريد 1893.
(42) فهرست ابن خير، ص : 327 ــ الطبعة الاولى.
(43) جامع بيان العلم وفضله، ج1 /106 ــ دار الفكر بيروت.

ومنهجه في التدريس هو منهج علماء الاسلام الأقدمين، الذي ينقسم إلى قسمين :

أ – منهج المحدثين والرواة، وهو منهج يعتمد قبل كل شيء على النقل والسماع، وهذا المنهج هو السائد في دراسته، وفي محاضرته، فقد كان يأتي بعنوان المحاضر، وهو عبارة عن حديث أو مسألة فقهية، تتعلق بالعقيدة أو العبادات أو المعاملات أو الأخلاق كما في كتابه التمهيد والاستذكار وغيرهما من كتبه، ثم ينقل كل ما قيل فيها، وما روي حولها من أحاديث وأقوال الصحابة والأئمة، ثم يرجع إليها وللدرس، وأخيرا يبدي رأيه.

ب — منهج العقليين : وهو المنهج الذي يعتمد على التجربة والملاحظة والاستقراء، فهو بعد أن ينتهي من نقل ما ورد في المسألة من الاحاديث والأقوال ينتقل الى التحليل والمقارنة، والتعليق والنقد، وهذا المنهاج يتضح جليا في مؤلفاته، وكتبه، وخاصة في كتابه التمهيد، والاستذكار. هذا في دراسته الفقهية والحديثية، أما في دروسه التاريخية والأدبية، فيكتفي بمنهج المحدثين الذي يعتمد على الأسانيد والوقائع التاريخية، وطبيعة الأحداث ومقارنتها. وعلى العموم فإن منهجه في التدريس يتسم بالعمق والشمولية والدقة في الأفكار والتعبير.

هذا، وقد خصص وقتا طويلا للتأليف والتصنيف، فقد ترك وراءه موسوعات هامة ذات أجزاء عديدة ورسائل مفيدة ذات أحجام صغيرة، وقد قال فيه ابن خلكان : «كان أبو عمر – رحمه الله – موفقا في التأليف مُعَانا عليه، وقد نفع الله بكتبه[44]»، وفعلا انتفع بمؤلفاته.

والواقع أن ابن عبد البر، بذل جهدا كبيرا في خدمة العلم وتقييده، والحفاظ عليه[45]، فدرس، وحدث، وألف الكتب التي أصبحت مرجعا هاما، وساهم مساهمة جبارة في إثراء المكتبة الاسلامية.

---

(44) وفيات الأعيان، ج6 /65. تحقيق د. احسان عباس. دار صادر — بيروت.

(45) الأعلام للزركلي، ج9 /316 — الطبعة الثالثة.

رابعا : معيشته، ومصادر رزقه :

لم يذكر التاريخ شيئا عن معيشته وموارد رزقه، ولا عن الثروة التي خلفها له أبوه، وكل ما وصل إلينا هو أن أباه كان فقيها من فقهاء قرطبة، وأديبا من أدبائها، ولكن نحن نعرف ماذا كان يساوي الفقيه في الأندلس، فهو كان يحتل مركزا مهما في الدولة، إليه ترجع المشورة، وعليه الاعتماد في شؤون الدولة، ومن هنا، فلا شك أن أباه ترك له ثروة لا بأس بها، بدليل التربية الممتازة التي كان عليها، والرتبة التي وصل إليها في العلم، ومن غير المعقول أن يحصل المرء على هذا المستوى الرفيع من العلم إن لم يكن يملك شيئا من حطام الدنيا.

على أي حال، إن ابن عبد البر، كانت له موارد رزق متعددة، منها التدريس، والعلم، والتأليف، والقضاء، فالمدرسون في عصره كانوا يأخذون الأجرة على التعليم وعلى التحديث(46)، والعلماء كانوا يتكسبون بعلمهم، ويَتْغَنَوْن بعد الفقر، ويشتهرون بعد الخمول، حين كانت أسواق العلم نافقة(47)، كما كانوا يكسبون بالحديث ويجمعون وراءه مالا عظيما(48).

بجانب هذا، أنه كان يتعيش من الهدايا والصلات التي كان الملوك(49) والأمراء يقدمونها إليه، فيقبلها منهم، ويحبذها أن تكون حسنة، وقد أنشد في ذلك أبياتا منها :

سخافة المرء تدرى في هديته والنوك واللؤم يظهران معا
إن اللئيم إذا أهدى هديته أبدى نذالته فيها لمن سمعا(50)

بَيْدَ أنه كان يحبذ العمل، ويطلب المال من وجوهه الحلال للكَفَاف والاستغناء عن الناس(51)، وكان يتمشى مع مبدأ «صلاح المعيشة من صلاح

(46) الصلة، ص : 48 ــ طبعة مجريط.
(47) تاريخ الاندلس (عصر سيادة قرطبة) ص : 25 مقتبس من الجذوة، ص : 96 الطبعة الأولى ــ مصر.
(48) تاريخ علماء الاندلس، ص : 278 الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966.
(49) جامع بيان العلم وفضله، ج2 /19 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(50) البهجة ج1 /167 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر، ونفح الطيب ج3 /235
(51) جامع بيان العلم وفضله، 2 /19 ــ دار الفكر بيروت.

الدين، وصلاح الدين من صلاح العقل[52]». وقد قال : «لا يظن ظان جاهل أن طلب المال من وجهه للكفاف والاستغناء عن الناس هو طلب الدنيا المكروه الممنوع فإنه ليس كذلك»، وكان إلى هذا، يفضل الصبر عن الدنيا والزهد فيها والقناعة والرضا بالكفاف، والاقتصار على ما يكفي دون التكاثر الذي يلهي ويطغي. فأسلوب حياته كان أسلوب حياة الرسول ﷺ وقد وصف ذلك بقوله :

تعفف المرء عن سؤاله ∴ وكسبه الحل باحتياله
وسعيه في صلاح عيش ∴ لمن يواريه من عياله
مروءة وبالغ بها ∴ من يبلغها منتهى كماله
رضى الفتى بالقضاء عز ∴ وذلة الوجه في ابتذاله[53]

فابن عبد البر كان يرى أن الغِنَى هو غنى القلب لا غنى المال، وأن الاستكثار من الدنيا هو من عمل الجهال[54]، فعلى المرء أن يعمل، ويترفع عن السؤال، وإن أهدي له شيء فليقبله، لأنه كان يقول : «الرزق رزقان : رزق تطلبه، ورزق يأتيك عفْوا[55]» كما كان يرى أن مخالطة السلطان ومداخلته ليست حراماً، وإنما يحرم مداخلة السلطان الجائر الفاسق، فأما العادل فمداخلته ورؤيته وعونه على الصلاح من أعمال البر[56].

وبالجملة، فإن ابن عبد البر كانت حياته تشبه حياة العلماء في كل زمان ومكان، حياة تعتمد على العمل الحلال، والكسب الطيب، وعلى ما يأتي من غير سؤال، وعلى صلات الأمراء.

---

(52) نفس المصدر السابق.
(53) البهجة 1 /165، تحقيق محمد مرسي الخولي ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.
(54) جامع بيان العلم وفضله، ج2 / 24ــ25 ــ دار الفكر بيروت.
(55) بهجة المجالس وأنس المجالس 1 /147 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.
(56) جامع بيان العلم وفضله 1 /227، ونفح الطيب ج3 /235.

الفصل الخامس

شخصيتـه وأخـلاقــه

تمهيد وتقسيم :

إن ابن عبد البر لم يُشِر – ولو إشارة خاطفة – إلى بِنْيته الجسمية، ولا إلى حياته الخاصة، شأنه في ذلك شأن العلماء الصالحين الذين يبتعدون عن المباهاة بأنفسهم، والاغترار بالمظاهر، فعملهم ترجمان لهم، وأثرهم دليل كاف لهم.

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بَعْدَنا إلى الآثار

ويمكن أن نحصل على بعض المعالم لشخصيته الخِلْقية والخُلُقية، وذلك من خلال البيئة الاجتماعية، التي صور هو نفسُه جزءا منها، ومن خلال علاقته وسلوكه العام، ومع شيوخه وتلامذته، وعامة الناس، ومن خلال حياته الروحية.

وعلى هذا سنتناول شخصية ابن عبد البر من جوانب ثلاث :

أ – هيأته وتكوينه الخارجي.

ب – أخلاقه المعنوية والاجتماعية.

ج – تدينه ومذهبه في الحياة الروحية.

أ ــ هيأتــه وتكوينــه :

إن ابن عبد البر لم يكتب عن نفسه ولو كلمة واحدة، وإنما كل ما كتبه هو عن العلم والشريعة الاسلامية وآدابها، وكل ما يتصل بها، غير أنه يمكن أن

نأخذ صورة تكاد تكون طبق الأصل، أو قريبة منه، وذلك من خلال ما كتبه، وما تحدث عنه من عادات أهل بلده.

لذا يمكن أن نقول : إن ابن عبد البر، لاشك أنه كان قوي الجسم، متين البُنية، نظرا للقوة العقلية الجبارة التي كان يتمتع بها بشهادة ما أنتجه لنا من المؤلفات الضخمة والغزيرة بالمعلومات المختلفة والنافعة، ونظرا لأن ابن عبد البر كان من المعمرين؛ إذ عاش أكثر من خمس وتسعين[1] سنة، وهذا بالتأكيد يدل على متانة الجسم وقوته؛ لأن البنية القوية والمتانة، تحمل في طياتها عوامل مهمة لمقاومة عوائد الزمن وآفاته، وابن عبد البر، كما علمنا، مر بظروف قاسية وشرسة لولا قوة جسمه وإيمانه وصبره، ما استطاع أن يعيش هذا العمر المديد، الحافل بالنشاط والحيوية.

هذا عن بنيته، أما هندامه فلا ريب أنه كان سَيِّيا دَيِّنا، وأهل السنة يحبذون النظافة والتزين الشرعي، وابن عبد البر كان من هذا النوع، وخاصة أنه كان مشغولا بحديث النبي - ﷺ -، ومن كان كذلك تخلق بأخلاق الرسول، فهندامه وشكله الخارجي، هو هندام العلماء في عصره، هندام جميل ونظيف وملائم لحالته العلمية[2]، كان يتكون من قلنسوة محاطة بعمامة[3]، وعباءة تحتها لباس في غالبيته أبيض، وخاصة في فصل الصيف، حيث كان الأندلسيون يلبسون اللباس الأبيض[4].

وكان العلماء والفقهاء يلبسون قلنسوة محاطة بعمامة سوداء[5] ومبطنة، وطيلسانا أسود، ولاشك أن ابن عبد البر كان يلبس كذلك، وفي الأغلب أن لباسه كان متواضعا كتواضعه، لكنه كان نظيفا وجميلا، وبعيدا عن التشبه بالنساء

---

(1) القاضي عياض : المدارك ج 4 /808ـ809. طبعة بيروت.

(2) التمهيد، ج5 / 50ـ51 ـ الطبعة الاولى ـ المغرب.

(3) معطيات الحضارة المغربية لعبد العزيز بنعبد الله، ج1 /43، مقتبس من نفح الطيب للمقرى، ج2 /752.

(4) نفس المصدر السابق.

(5) الحضارة الاسلامية : تأليف ابراهيم عبد الرحيم يوسف، ومحمد الطيب منشورات مكتبة الوحدة العربية ـ الدار البيضاء (المغرب).

والجبابرة[6]، فهو كان يلبس لباس أهل الصلاح والسِّيَرِ والعلم[7]، وقد كان يكره لباس السفهاء والجبابرة تمشيا مع قول الرسول - ﷺ - «من تشبه بقوم فهو منهم، أو حشر معهم» وقد علق على هذا الحديث بقوله : «فقيل من تشبه بهم في أفعالهم، وقيل من تشبه بهم في أقوالهم[8]»، وزاد قائلا : «وحسبك بهذا فهو مجمل في الاقتداء بهدي الصالحين والتأسي بهم على أي حالة كانوا[9]».

ويكفي هذا دليلا على هيأة ابن عبد البر، وصورة هندامه ولباسه.

أما التختم فعنده مباح حسن[10] وجميل، وقد قال : وكان العلماء يتختمون في اليمين، وقد تختم به جماعة من السلف الصالح كما كانوا يتختمون في الشمال[11]، وقد رُوِيَ عن النبي - ﷺ - الوجهان جميعا، غير أنه لما تختم الروافض وأهل البدع في اليد اليمنى غالبا، ولم يتختموا في اليد اليسرى، كره العلماء التختم في اليد اليمنى، مخالفة لهم، ولكيلا يقعوا في التشبه بهم[12].

ويبدو من هذا أن ابن عبد البر كان يتختم، وبالأخص في اليد اليسرى، اقتداء بالرسول - ﷺ - والسلف الصالح.

وكان يسدل الشعر ويرسله على طريقة السلف الصالح[13]، ويرجله وينظفه، وقد وصف هو نفسه عادة الأندلسيين في الشقر، وقال : «أما أهل الصلاح والستر والعلماء (فقد) كانوا يرسلون الشعر على طريقة السلف الصالح، أما الجند وأهل السفه فكان لهم الجحم والوفرات، والوفرات تكاد عندنا أن تكون من علامة

(6) التمهيد، ج5 / 50-51 - الطبعة الاولى - المغرب.
(7) التمهيد، ج6 / 80-81 - الطبعة الاولى (المغرب).
(8) التمهيد ج6 / 80-81 - الطبعة الاولى - المغرب.
(9) نفس المصدر السابق.
(10) التمهيد ج6 / 80-81 - الطبعة الاولى - المغرب.
(11) نفس المصدر.
(12) نفس المصدر.
(13) التمهيد - ج6 / 80-81 - الطبعة الاولى - المغرب.

السفهاء[14]». وربما حلق ابن عبد البر؛ لأنه قال : «والشعر والحلق لا يغنيان يوم القيامة شيئا، وإنما المجاراة على النيات والأعمال، فرب مخلوق خير من ذى شعَر، ورب ذى شعر رجل صالح[15]».

وبهذا نكون قد رسمنا صورة – ولو مضببة – عن هيأة ابن عبد البر وهندامه، وهي صورة طبق السنة، وآداب الشريعة الإسلامية.

ب – **أخلاقه** :

إن شخصية ابن عبد البر الأخلاقية إذا حاولنا أن نرسمها على ضوء ما خلفه لنا في بطون كتبه، وعلى ضوء ما كتبه غيره عنه، وبناء على وقائع حياته، وأحداث سلوكه، نجدها تتركب في الحقيقة من شخصيتين متباينتين : شخصية العلماء وأهل الصلاح، وشخصية الارستقراطيين.

1 – شخصية العلماء : كان ابن عبد البر يتسم بالصلاح والفضل والثقة[16] والأمانة[17]، وبالحكمة والوداعة والهدوء والرزانة والتعقل، وطيبوبة القلب، وحسن المعاشرة[18]، وقد ضمّنَ هذه الصفات الحميدة صديقه ابن حزم في رسالته إلى ابن عبد البر حينما فارقه، وغادر قرطبة، حيث قال :

«ولقد بقيتْ حالي بعدك مريضة، وعيْنَ آمالي مغضوضة، وأيدي أُنسي مقبوضة، وجيوش صبري عندك معضوضة، فقد كان ذلك البعد الطويل أحدث بعض السلوان، وأتى بما في طبيعة الانسان من النسيان، وإن كان هذا القول لا يقال على الإطلاق، بل على الإضافة لما في الحال بحديث الافتراق، حتى إذا ما

(14) نفس المصدر السابق.
(15) التمهيد – ج6 / 80–81 – الطبعة الاولى – المغرب.
(16) المقرى : نفح الطيب – ج4 / 29–30.
(17) جامع بيان العلم وفضله – ج2 /186. دار الفكر – بيروت.
(18) ابن بسام : الذخيرة – القسم الاول – مجلد 1 /134 – الطبعة الأولى.

وقع اللقاء نأجج من ذلك الالتياع خامده، وثار راكده، وسال جامده، وكانت حالتنا كما قال أبو الطيب :

افترقنا حوْلا فلما التقينا كان تسليمه علي وداعا[19]

فهذه الرسالة تحمل كثيرا من معنى، فهي تدل على أن ابن عبد البر كان لين الجانب، طيب القلب، حسن المعاشرة، محبوبا لدى الجميع، وما تحسر على فراقه ابن حزم، حتى كان وصل القمة في الأخلاق، ونحن نعرف أن ابن حزم، لا يعترف لأحد مهما كان، وهذه شهادة منه كافية على علو أخلاق ابن عبد البر، وسمو خصائله.

كما كان ابن عبد البر يتصف بالصبر والجلد[20]، يعمل في أناة وصمت، يتحمل الأتعاب، ويعاني المشاق، ولا يشتكي لأحد، إلا لله تعالى، فكان يفرج عن همومه، وينفس عن كربه وأتعابه بالصبر، وقراءة الكتب وتصنيفها، وقد وصف ذلك في بيت قاله عند تأليفه كتابه «التمهيد» :

سمير فؤادي من ثلاثين حِجة وصاقل ذهني والمفرج عن همي[21]

وكان يحب العدل والإنصاف والشجاعة، وفي سبيل الحَق والعدل كان لا يخاف لومة لائم، إلى درجة الأنبياء الذين قال فيهم رسول الله - ﷺ - : «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»، ومن هنا كان يرد أقوال كثير من الفقهاء والعلماء إن كانت لا يقبلها الشرع والواقع. وممن رد أقوالهم وعارضهم عبد الله بن عمرية[22]، والإمام مالك[23]، والشافعي[24].

---

(19) ابن بسام : الذخيرة ـ القسم الأول ـ مجلد 1 /134 ـ الطبعة الأولى.

(20) جامع بيان العلم وفضله ـ ج2 /20 ـ دار الفكر ـ بيروت.

(21) المدارك ـ ج4 / 809 ـ ط. بيروت.

(22) الاستذكار ـ ج1 /337 ـ ط. مصر.

(23) الانصاف فيما في بسم الله من الاختلاف، وفي بيع الصرف ـ شرح الزرقاني ج3 / 282ـ283.

(24) جامع بيان العلم وفضله ـ ج1 /175 ـ دار الفكر بيروت.

وكان يدعو إلى ترك الدعوى والفخر والعجب والرياسة[25] وإلى الصدق في الأقوال والأفعال، كما كان طاهر اليد والضمير، وهي صفات تغلب على من يشتغل بحديث الرسول الكريم، وهذه من صفات العلماء الكبار، وليس أحق من ابن عبد البر بالاتصاف بها، وبجانب هذه الصفات، كان يتصف بالهيبة، وهي صفة لا يتصف بها إلا العلماء الكبار، مثل الإمام مالك.

2 – الشخصية الارستقراطية : وكان مع ما يمتاز به من دماثة الأخلاق، وحسن المعاشرة، من أشد الناس عزة وأنفة وترفعا وكرامة، عارفا قدر مواهبه، مترفعا عن كل ما يمس شخصيته وعزته، معتدا بنفسه إلى حد كبير، فلم يتذلل، ولم يتملق لأحد، ويكفي دليلا على هذه الصفات ما قاله عند رحيله من إشبيلية :

وقائلةٍ ما لي أراك مرحلا ... فقلت لها صه واسمعي أقول مجملا[26]
تنكر من كنا نسير بقربه ... وعاد رقاعا بعد ما كان سَلْسَلا
وحق لجار لم يوافقه جاره ... ولا لآءمته الدار أن يتحولا
بليت بحمص والمقام ببلدة ... طويلا لعمري مخلق يورث البلا
إذا هان حر عند قوم أتاهم ... ولم يناً عنهم كان أعمى وأجهلا
ولم تضرب الأمثال إلا لعالم ... وما عوتب الانسان إلا ليعقلا[27]

ويبدو أن فراقه لقرطبة، وعدم رجوعه إليها، كان العامل الرئيسي في ذلك هو عزة النفس وكرامتها، وكذلك كثرة تنقله في ربوع الأندلس؛ إذ كان دائب التنقل والسفر. وتتجلى شخصيته الارستقراطية، بوضوح، في مؤلفاته ورسائله، حيث لم يذكر فيها أي أمير أو قائد، سواء في مقدمتها أو أثناءها، وكذلك لم يمدح أحدا في شعره، رغم أنه كان يعيش على صلة الملوك وهداياهم[28]. وكان يقول : إن السلطان الجائر الفاسق يجب الابتعاد عنه، وأما العدل منهم الفاضل، فمداخلته

(25) التمهيد – ج2 / 247–248.
(26) بهجة المجالس وأنس المجالس – ج1 / 243–244.
(27) نفح الطيب – ج4 / 30. تحقيق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر – بيروت.
(28) جامع بيان العلم وفضله – ج2 / 19 دار الفكر – بيروت.

ورؤيته وعونه على الصلاح من أفضل أعمال البر[29]، وقد استشهد على هذا بصحبة العلماء الأجلاء لعمر بن عبد العزيز[30].

ومن أقوى الدلائل على هذه الشخصية، موقفه الشجاع مع المعتضد بن عباد المعروف بالسطوة والتجبر، فقد حدث يوما أن وصل ابنه[31] أبو محمد عبد الله الكاتب، إلى منصب الوزارة لدى المعتضد بن عباد، وذات مرة غضب هذا الملك على كاتبه أبي محمد بن عبد البر، وأمر بإلقائه في غياهب السجن، فأتى أبو عمر بن عبد البر إلى المعتضد بن عباد، ودخل عليه، وخاطبه مباشرة دون أن يمهد لذلك بألفاظ المدح والتملق، فقد ذكر ابن الأبّار هذه الحادثة، وقال : «فلأول دخوله على المعتضد بن عباد نادى رافعا صوته : ابني يا معتضد، ابني يا معتضد، فشفعه فيه، وانصرفا عنه محفوفين بالاكرام ومكنوفين بالاحترام[32].

فهذه الحادثة وحدها كافية للاستدلال على أَنَفَة ابن عبد البر، وعزة نفسه، والاعتزاز بها، وعلى هيبة الناس منه، لا يعرف المَلَقُ سبيلا إلى قلبه، ولا يقبل الضيم، والحقيقة أنه بهذه الصفات كان يحافظ على منزلة العلم، وكرامة العلماء.

ولأجل الحق، والدفاع عن العلم، ودرء الأباطل عنه، اتهمه بعض[33] المؤرخين بالعناد والتعصب والتعنت، بل ذهب في ذلك إلى حد أن ابن عبد البر، كان نَصّابا وعدوا لأهل البيت[34].

ولعل هذه التهمة جاءته من حَمْلته على أهل الأهواء والبدع، وخاصة الشيعة الذين قال فيهم : إنهم كذبوا على جعفر الصادق، ولكن هذه التهمة التي ألصقت بابن عبد البر لا تثبت عند ما نتصفح آراءه في النبي ﷺ وأهل البيت، في جميع

---

(29) جامع بيان العلم وفضله ــ ج1 / 227 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(30) نفس المصدر السابق.

(31) الجذوة، ص 249. مكتب نشر الثقافة الاسلامية ــ القاهرة.

(32) ابن الابار : اعتاب الملك، ص : 221 ــ دار المعارف 3 /334 ــ بيروت.

(33) روضات الجنات في احوال العلماء والسادات ــ ج 8 /222 ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت.

(34) نفس المصدر السابق.

كتبه وإنتاجه، بل يفند ما قاله صاحب روضات الجنات، أن ابن عبد البر، كان محبوبا لدى جميع الفقهاء، وخاصة الأندلسيين، الذين يعتبرونه إمامهم وحافظهم ومحدثيهم، بل إنهم كانوا يتنافسون في سنده[35]، فيرحلون إليه من مكان إلى آخر.

والواقع أنه كان لطيفا مع أصحاب الحق وأهل السنة، والعلماء الذين اقتفوا أثر السلف الصالح، وشديدا مع أهل البدع والأهواء[36].

ومن هذه الأمثلة السابقة، تظهر شخصية ابن عبد البر الأخلاقية، فهو كان متواضعاً مع من يستحق التواضع، عزيز النفس مع من يريد إذلاله وإهانته، وهذه هي صفات المسلمين، التي ينبغي أن يكونوا عليها.

ج – تدينه ومذهبه :

كان أبو عمر دَيِّنا صَيِّنا[37]، زاهدا نزيها[38]، مترفعا عن الدنيا وزخرفاتها، يخاف الله ويخشاه في السر والعلانية، وكانت التقوى عنده، من أحسن الهدايا التي يُهدِي الإنسان إياها، فهي الزاد الحقيقي الذي ينبغي أن يتزود به المرء، وكان يملأ أوقاته بما يرضي الله ويثيبه عليه، ويشغل أيامه بالعبادة والطاعة، ويبتعد عن العبث، وكان يترك الأشياء التي لاحظ للعاقل فيها. وإلى هذه الصفات أشار ابن عبد البر بقوله :

تجافَ عن الدنيا وهوِّن لقدْرها ... ووفِّ سبيل الدين بالعُروة الوثقى
وسارِعْ بتقوى الله سرا وجهرة ... فلا ذِمةٌ أقوى هُديتَ من التقوى
ولا تنسَ شكر الله في كل نعمة ... يَمُنَّ بها فالشكر مستجلِبُ النُّعْمَى
فدَعْ عنك ما لاحظَّ فيه لعاقل ... فإن طريق الحق أبلجُ لا يَخفَى

(35) القاضي عياض : المدارك ــ ج4 / 808.
(36) جامع بيان العلم وفضله ــ ج2 /160 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(37) شذرات الذهب ج3 / 314ــ315.
(38) شذرات الذهب ــ ج3 / 314ــ315.

وشح بأيام بقين فلائل ... وعمر قصير لا يدوم ولا يبقى
ألم تر أن العمر يمضي مولّيا ... فجدته تبلى ومدته تطوى
نخوض ونلهو غفلة وجهالة ... وننشر أعمالا وأعمارنا تطوى
توصلنا فيه الحوادث بالردى ... وتنتابنا فيه النوائب بالبلوى
عجبت لنفس تبصر الحق بيّناً ... لديها وتأبى أن تفارق ما تهوى
وتسعى لما فيه عليها مضرة ... وقد علمت أن سوف تجزى بما تسعى
ذنوبي أحشاها ولست بآيس ... وربي أهل أن يخاف وأن يرجى
وإن كان ربي غافرا ذنب من يشاء ... فإني لا أدري أأكرم أم أخزى[39]

وهذه القطعة من شعره صورة واضحة لشخصيته الدينية، وحياته الروحية، فهو متدين إلى حدود التصوف، وهو من العلماء العاملين بعلمهم، يخاف الله ويخشاه في كل الأمور، قولا وعملا وعقيدة، ولا يرى الدنيا إلا لهوا ولعبا، وإن أشرف العلماء من هرب بدينه عن الدنيا، واستصحب قياده على الهوى[40]، وكان يقول : «إن الزهد هو الزهد في الحلال، وترك الدنيا مع القدرة عليها، وهذا عنده أفضل من الرغبة في حلالها[41].

إنه كان دينا صينا[42] ثبتا، وهذه الصفات تحمل في طياتها صفات أخرى تؤدي إليها، أهمها طهارة القلب، وصفاء الروح، وتحري الصدق، ونقاوة اليد والضمير، والنزاهة[43]، وكان يرى أن القناعة والرضى بالكفاف، أحسن من الغناء المادي[44]، لأن عنده الغنى غنى القلب[45]، لا غنى المال.

(39) المقرى : نفح الطيب — ج4 / 28—29، تحقيق د احسان عباس، دار الفكر بيروت.
(40) جامع بيان العلم وفضله — ج2 /229 — دار الفكر — بيروت.
(41) جامع بيان العلم وفضله — ج2 /20 — دار الفكر — بيروت.
(42) بهجة المجالس وأنس المجالس ق1 /16 الدار المصرية للتأليف والترجمة.
(43) شذرات الذهب 3 /314—315.
(44) جامع بيان العلم وفضله 2 /23 — دار الفكر — بيروت.
(45) جامع بيان العلم وفضله 2 /25 — دار الفكر — بيروت.

وكتبه ومؤلفاته صورة حية لحياته الدينية، ومن ثمة أنه كان يتصف بالصفات الاسلامية الحقة، يترك الدعوى والفخر والمباهاة، والعجب والرياسة.

وكان مذهبه في تدينه مذهب أهل السنة، وهو التمسك بكتاب الله عز وجل، وسنة رسول الله – ﷺ – والاقتداء بالصحابة والتابعين وأئمة الدين(46)، وقد ضمن مذهبه هذا في قوله :

أليس في الأنبياء الرسل أُسوتُنا عليهم صلوات الرب ذي الحُجُب

وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان سُنّيا على مذهب الإمام الأشعري(47)، ولكن لم نعثر على أي إشارة في آرائه وكتبه تدل على أنه كان أشعريا، فهو يكره الجدَل في العقيدة، وفي صفات الله، ويقول : «نحن أهل السنة»، أو «أصحابنا أهل السنة»، أو يقول دائما : «نصِفُ الله تعالى بما وصف به نفسه ولا نزيد على ذلك(48)»، ولهذا فهو كان عدوا لأهل البدع، كالمعتزلة، وغيرهم من الفرق الاسلامية، وكان يقول : إن القدَرَ هو سر من أسرار الله تعالى لا يُدرَك بالجَدل، ولا يشفِي منه مقال، وقد جاءت بِه الآثار، وتواترت فيه الأخبار عن السلف الأخيار الطيبين الأبرار بالاستسلام والانقياد والإقرار، بأن علم الله سابق، ولا يكون في مُلكِه إلا ما يريد(49).

وكان يومن بالحَوض والشفاعة اللذين نفاهما أهل البدع من الخوارج والمعتزلة، وكان يقول:أهل الحق على التصديق بما جاء به النبي ﷺ (50).

وهكذا كان ابن عبد البر تقيا زاهدا متدينا سُنّيا، متمسكا بالعروة الوثقى، مقتديا بسيد الأنام.

---

(46) بهجة المجالس وأنس المجالس ق1 /16 الدار المصرية للتأليف والترجمة.
(47) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ــ ج8 /222.
(48) التمهيد 2 /291 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.
(49) التمهيد، 6 / 12، 13، 14، 62، 63 ــ الطبعة الاولى ــ المغرب.
(50) نفس المصدر السابق.

وفاتـه :

وإذا كانت ولادته قد اختلف في تاريخها، فإن وفاته قد علم تاريخها من غير ما شك، فقد تطابقت الأخبار على أنه توفي بشاطبة[51]، حيث انتهى به المطاف، يوم الجمعة، آخر يوم من شهر ربيع الآخر، سنة ثلاث وستين وأربعمائة، وصلى عليه تلميذه وصاحبه أبو الحسن طاهر بن مفوز المعافري. وكانت وفاته هو والخطيب البغدادي في يوم واحد، وفي سنة واحدة[52]، وكان الخطيب البغدادي حافظ الشرق، وابن عبد البر حافظ الغرب[53]، وقيل توفي سنة ستين وأربعمائة هجرية[54]، وقيل سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجرية[55].

ولكن هذان القولان لا يعتد بهما، وذلك لأمرين :

1 – أن القول الأول للحميدي، والحميدي حين وفاة ابن عبد البر، كان لازال في المشرق.

2 – إن صاحب روضات الجنات مشرقي، وغالبا المشارقة يكونون قليل الاطلاع على التاريخ المغربي، أما مؤلف كشف الظنون، فهو من المحدِثين.

(51) ابن بشكوال : الصلة ــ ج2 / 618 ــ طبعة مجريط بطبع روخس.
(52) ابن خلكان : وفيات الاعيان ــ ج7 /71، تحقيق د. احسان عباس.
(53) نفس المصدر السابق.
(54) الجذوة، ص : 346، طبعة القاهرة، بتحقيق ابن تاويت الطنجي.
(55) روضات الجنات ــ ج8 /223، كشف الظنون ــ مجلد 7 /265 ــ طبعة لندن.

البـاب الثـانـي

آثــاره

تقسيـم :

لم يرحل أبو عمر بن عبد البر للقاء ربه، حتى خلف وراءه ثروة علمية هائلة، وآثارا مختلفة قيمة، استفاد منها العلماء، وزخرت بها المكتبات العامة والخاصة، سواء منها في الشرق أو في الغرب.

وتتمثل هذه الثروة العلمية، وتلك الآثار القيمة في كثرة تلاميذه، وعدة مؤلفاته الضخمة، وفتاويه وشعره، وآرائه وفقهه المقارَن، ومناهجه.

أما آراؤه ومناهجه، فسنؤخرها إلى الباب الثالث، حيث سأجمعها مع ثقافته ومعارفه من هذه الرسالة.

وأما فقهه المقارن، فسأتركه – إن شاء الله – للرسالة الثانية (الدكتوراة).

لذا سأخصص هذا الباب لتلاميذه ومؤلفاته، وبعض فتاويه، ونُتَفٍ من شعره.

وعليه، سأقسمه إلى سبعة فصول :

الفصل الأول : تلاميذه.
الفصل الثاني : قائمة إجمالية لمؤلفاته.
الفصل الثالث : دراسة تحليلية لكتاب «التمهيد».
الفصل الرابع : دراسة تحليلية لكتاب «جامع بيان العلم».
الفصل الخامس : دراسة تحليلية لكتاب «الانتقاء».
الفصل السادس: نماذج من فتاويه.
الفصل السابع : نتف من شعره.

الفصل الأول

تلاميذه

لقد كثر تلاميذ أبي عمر بن عبد البر كثرة يصعب على المرء أن يحيط بهم جميعا، وذلك نظرا لمكانته العلمية، ولعلو سنده، وتهافت طلاب العلم عليه. ونظرا لطول عمره الذي قضاه كله في خدمة العلم؛ لذا لا نستطيع أن نقول: إننا سنحصيهم جميعا، وسنأتي على آخرهم، وإنما سنثبت هنا ما عثرنا عليه منثورا هنا وهناك في بطون كتب التراجم والسِّيَرِ، وخاصة أشهرهم وأهمهم.

هذا، وسأقسمهم إلى صنفين :

أ – تلاميذ سمعوا منه وأخذوا عنه ولم يُجِزْهم.

ب – تلاميذ أخذوا عنه وأجازهم.

القسم الأول : **التلاميذ الذين سمعوا منه ولم يُجِزهم** :

هذا القسم يضم تحته عددا كبيرا من التلاميذ لا يُحْصَوْن، وهم :

1 – ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، ولد بقرطبة سنة أربع وثمانين وثلاثمائة[1] هجرية، كان من الحفاظ الكبار[2]، ومن العلماء الذين برعوا في الحديث والفقه، وكان من المجتهدين الذين يستنبطون الأحكام من الكتاب والسنة، كما كان يتقن علوما جمة، وكان أديبا شاعرا[3]، تفقه أولا للشافعي، ثم أداه

(1) ترجمة ابن حزم، بقلة المحقق سعيد الافغاني ــ دار الفكر ــ بيروت 1389 هـ (1960م)، مقتبس من سير النبلاء للذهبي.

(2) البغية، ص : 403 ــ فقرة : 1204 ــ طبعة مجريط 1884.

(3) نفس المصدر السابق.

اجتهاده إلى نفي القياس كله جَلِيّه وخَفِيه، والأخذ بظاهر النص، وعموم الكتاب والحديث[4]، وكان من العلماء العاملين الزاهدين في الدنيا، بعد الرياسة والوزارة، وكان متواضعا في أخذ العلم؛ إذ كان ينزل حتى يَروِيَ عن معاصره وأصدقائه، أمثال أبي عمر بن عبد البر، وأحمد ابن عمر العبدري[5].

وقد رزق ذكاء مفرطا، وذهنا سيالا، صنف كتبا كثيرة بلغت في مجموعها نحو أربعمائة مجلد (بين كتاب ورسالة)، تشتمل على ثمانين ألف ورقة تقريبا[6]، وتلمذة ابن حزم لابن عبد البر تكفينا دليلا على عظمة أبي عمر بن عبد البر.

توفي ابن حزم سنة خمسين وأربعمائة[7] هجريه.

2 – ابنه : أبو محمد عبد الله بن يوسف ابن عبد البر[8].

3 – سبطه : أبو محمد اللخمي، من أهل بلنسية[9].

4 – الامام الحافظ الحميدي : أبو عبد الله محمد بن فتوح أبي نصر بن عبد الله بن حميد الأزدي الحميدي، ولد بجزيرة بليدة قبل العشرين وأربعمائة[10] هجرية – من رجال الحديث، فقيه حافظ، مؤلف، سمع بقرطبة وغيرها من ابن عبد البر، وابن حزم، وكان ظاهريا على مذهب ابن حزم[11].

---

(4) سير النبلاء – ص : 23 – ترجمة سعيد الافغاني – دار الفكر – بيروت.

(5) المدارك – ج4 / 808 – بيروت، وسير النبلاء للذهبي من ترجمة ابن حزم للاستاذ سعيد الافغاني – دار الفكر – بيروت 1389 هـ 1969م.

(6) طبقات الأمم، ص : 87.

(7) البغية – ص 403 – ط. مجريط 1884.

(8) سبقت ترجمته في الفصل الاول عند الكلام على أسرته.

(9) سبقت ترجمته في الفصل الاول عند الكلام على أسرته.

(10) الصلة، مجلد 1 / 274 – ط. مجريط، ونفح الطيب – ج2 /113–114، تحقيق د. احسان عباس – توزيع دار الفكر – بيروت.

(11) نفح الطيب – ج2 /113–114.

وصل إلى المشرق سنة ثماني وأربعين وأربعمائة[12] هـ. وهناك سمع كثيراً من علماء مصر ودمشق، كما روى ببغداد عن الخطيب البغدادي وأقام بواسط وبمكة، كان فريدا في عصره في الحديث ورجاله[13].

ألف كتباً كثيرة، منها «جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس»، و«تاريخ الإسلام»، و«من ادعى الأمان من أهل الإيمان»، و«الذهب المسبوك في وعظ الملوك»، و«تسهيل السبيل إلى علم الترسيل»، و«مخاطبات الأصدقاء في المكاتب واللقاء»، و«ما جاء من النصوص والأخبار في حفظ المجاز»، و«كتاب النميمة»، و«الأماني الصادفة[14]»، و«كتاب الجمع بين الصحيحين[15]».

كان من أهل العلم والفضل والتيقظ والصفة والنزاهة.

توفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة[16] بالأندلس.

5 ــ ابن الحشا : أبو زيد عبد الرحمن بن عيسى بن عبد الرحمن، قاضي طليطلة، أصله من قرطبة، ويُعرف بابن الحشا، فقيه، عالم، نبيه، ذو فهم وإتقان، سمع من علماء قرطبة ودانية[17]، ثم رحل الى المشرق، وسمه بمكة ومصر والقيروان.

توفي سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة [18]هجرية.

6 ــ ابن شفيع : أبو الحسن عبد العزيز بن عبد الملك ابن شفيع المقري، من أهل المرية، ولد قبل الثلاثين والاربعمائة من الهجرة، كان من أهل الصلاح والعلم، وشيخا وقورا، مجود القرآن ويحسن قراءته.

توفي سنة أربع عشرة وخمسمائة هجرية[19].

(12) البغية ــ ص 113 ــ ط. مجريط 1884.
(13) نفح الطيب 2 /113ــ114، تحقيق د. احسان عباس ــ توزيع دار الفكر ــ بيروت.
(14) نفح الطيب ــ ج2 /114. تحقيق د. احسان عباس ــ توزيع دار الفكر ــ بيروت.
(15) البغية ــ ص 113 ــ ط. مجريط.
(16) نفس المصدر السابق.
(17) الصلة 5 /334 ــ ط. مجريط، الحلل السندسية 2 /18.
(18) الصلة 5 /334، ط. مجريط، الحلل السندسية 2 /18.
(19) نفس المصدر السابق.

7 ــ ابن القدرة : أبو بكر عبد العزيز محمد بن سعد البلنسي الذي كان يعرَف بابن القدرة، فقيه، مستشار ببلنسية، ومن رجال الحديث، روى عن كثير من العلماء الأجلاء بالأندلس، وسمع منه علماء كثيرون. توفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة[20] وقيل ثلاث وثمانين وأربعمائة[21] هجرية.

8 ــ ابن مُفَوِّز : أبو الحسن طاهر بن مفوز، فقيه، محدث، من رجال الأدب، ومن الحفاظ، كان من أسرة شريفة، ومن بيت عز وجلالة، صحب أبا عمر بن عبد البر مدة طويلة، وروى عنه كثيرا، كما كتب عن غيره كثيرا أيضا، وهو الذي صلى على أبي عمر بن عبد البر لما توفي، مات سنة أربع وثمانين وأربعمائة[22] هجرية.

9 ــ أبو بحر الأسدي : أبو بحر سفيان بن العاص بن أحمد بن سعيد الأسدي (أسد خزيمة)، أصله من مربط من عمل بلنسية، ولد سنة أربعين وأربعمائة هجرية، إمام في الحديث، أديب ماهر، روى عن كثير من علماء الأندلس، وهو آخر من حدث عن أبي عمر بن عبد البر[23]. توفي سنة عشرين وخمسمائة هجرية[24].

10 ــ الغساني، أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الغساني، كان إماما من أئمة الحديث، حافظا، عالما، بالرجال، روى عن كثير من العلماء، أمثال أبي العباس العذري[25]، وأحمد بن عمر وأبي شاكر عبد الواحد بن موهب، كما نصب نفسه للتحديث فروى عنه جماعة من الأئمة.

ومن كتبه : كتاب سماه «تقييد المهمل وتمييز المشكل»، وهو كتاب مفيد ونافع.

---

(20) الصلة 5 /364 ــ طبعة مجريط.
(21) البغية، ص : 370 ــ ط. مجريط 1884.
(22) البغية، ص : 314 ــ ط. مجريط 1884.
(23) المدارج ــ ج4 / 808 ــ 809 ــ ط. بيروت.
(24) البغية، ص : 291 ــ ط. مجريط.
(25) المدارك 4 /808 ــ 809 ــ ط. بيروت.

توفي سنة ثمان وتسعين وأربعمائة[26] هجرية.

11 ــ ابن أبي تليد : أبو عمران موسى بن عبد الرحمان بن خلف ابن أبي تليد الشاطبي، ولد سنة أربع وأربعين وأربعمائة[27]، فقيه، حافظ، محدث مشهور، من رجال الإفتاء، وأديب شاعر، ذو فضل ودين، روى بالأندلس عن كثير من العلماء الأجلة، منهم أبو عمر بن عبد البر[28]، وقرأ عليه جماعة من كبار العلماء، منهم أبو الوليد بن الدباغ الحافظ، وأبو القاسم عبد الرحيم بن محمد أجازها رواه لابن بشكوال[29].

توفي سنة عشرة وخمسمائة[30] هجرية.

12 ــ ابن ثابت : أبو محمد عبد الرحمن بن عبد العزيز بن ثابت، كان خطيبا بشاطبة، محدث، روى عن أبي عمر بن عبد البر بشاطبة. توفي سنة ست وثمانين وأربعمائة[31]هجرية.

13 ــ ابن نجاح : أبو داود سليمان بن أبي قاسم نجاح، مولى المؤيد بالله المقري، ولد سنة ثلاث عشرة وأربعمائة هجرية ببلنسية، من المحدثين الأفاضل، إمام في القراءات رواية ودراية، وكان من أولياء الله الصالحين، مستجاب الدعوة، سمع من أشهر الشيوخ، ومن كبار علماء الأندلس، كأبي عمرو المقري والقاضي أبي الوليد الباجي، وأبي العباس العذري، وغيرهم، كتب صحيح البخاري بخط يده في عشرة أسفار، وصحيح مسلم في ستة، وقرأهما معا على الباجي وأبي العذري[32]،

(26) البغية، ص : 243 ــ فقرة 643 ــ ط. مجريط 1884.
(27) الصلة، ص : 515، والبغية، ص : 441، فقرة 1331 ــ ط. مجريط.
(28) المدارك ــ ج 4 / 808ــ809 ــ ط. بيروت، والبغية، ص : 441 ــ ط. مجريط.
(29) الصلة، ص : 515 ــ ط. مجريط.
(30) نفس المصدر السابق.
(31) البغية ــ ص : 441، فقرة 1331 ــ ط. مجريط، والمدارك 4 /808 ــ ط. بيروت.
(32) البغية ــ ص : 289 ــ فقرة 778 ــ ط. مجريط.

روى عنه جماعة من العلماء الأجلاء، وقد ألف كتبا كثيرة كلها تدل على اطلاعه الواسع، وظل يقرأ كتاب الله وحديث رسوله ــ ﷺ ــ الى أن توفي سنة ست وتسعين وأربعمائة(33).

14 ــ الأروشي : عبد الله بن حيان الأروشي، ولد سنة تسع وأربعمائة هجرية، نزيل مدينة بلنسية، فقيه، محدث، عارف بالحديث ورجاله، كان مولعا بجمع الكتب واقتنائها، ذكر ابن علقمة في تاريخه أن صاحب بلنسية ذا النون أخذ كتبه الى قصره، وذلك ما يعادل 43 حمالا(34)، روى عن كثير من كبار العلماء، ومنهم أبو عمر بن عبد البر، وأبو عمرو السفاقصي، وأبو القاسم بن الاقليلي، وغيرهم(35).

15 ــ ابن عديس الأنصاري : أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عديس ــ الأنصاري، من بلدة سريون، وسكن مدينة طليطلة، امام حافظ، فقيه، ومن المحدثين وأهل المعرفة والعلم، والاتقان والذكاء (36).

أخذ علما وافرا عن الامام الحافظ أبي عمر بن عبد البر، وأبي بكر جماهير ابن عبد الرحمن، سافر الى المغرب، وتوفي بفاس، ودفن هناك سنة خمس وخمسمائة هجرية(37).

16 ــ ابن الامام : أبو الحسن علي بن ابراهيم بن فتح، الذي كان يعرف بابن الامام، فقيه، محدث، أديب(38)، روى عن كثير من علماء الاندلس، المشهورين، منهم أبو عمر بن عبد البر، وأبو الوليد الباجي.

وكان شريفا نبيلا أديبا، توفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة هجرية(39).

---

(33) البغية ــ ص 289 ــ ط. مجريط 1884.
(34) البغية ص : 330، فقرة 920 ــ ط. مجريط 1884.
(35) نفس المصدر السابق.
(36) الصلة ــ ص : 620 ــ 621 ــ ط. مجريط.
(37) نفس المصدر السابق.
(38) الحلل السندسية ــ ج2 /88. الطبعة الاولى 1335ــ1936.
(39) الحلل السندسية ــ ج2 /88. الطبعة الاولى 1335ــ1936.

17 ــ الأزوسي : أبو محمد عبد الله بن حيان بن فرحون بن حيان الأنصاري الازوسي، سكن مدينة بلنسية، فقيه، محدث، سمع كثيرا من أبي عمر ابن عبد البر، وغيره من علماء الأندلس. توفي سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية(40).

18 ــ ابن رزق : أبو جعفر أحمد بن محمد بن رزق الأموي، ولد بقرطبة سنة سبع وعشرين وأربعمائة هجرية، من أهل العلم والحديث، أخذ عن كثير من العلماء والمحدّثين في الأندلس، توفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة هجرية(41).

19 ــ أبو اسحاق الصوفي : أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن أحمد بن محمد بن مغيث بن الصوفي القرطبي، درس العلم بقرطبة، ثم سمع من ابن عبد البر حينما عينه المامون يحيى بن ذي النون للعقد على ابنته، مع المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر صاحب بلنسية، وذلك سنة 451 هـ. وكان من بيت عريق في العلم والمعرفة(42).

20 ــ ابن شوقة : أبو الوليد يونس أحمد بن يونس الأزدي، يعرف بابن شوقه الطليطلي، فقيه، من رجال الحديث وأهله، كان رجلا صالحا فاضلا زاهدا ورعا. روى عن كثير من العلماء والفقهاء، أمثال أبي عمر بن عبد البر، وغيره من جهابذة الأندلس.

توفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة هجرية(43) بمجريط.

21 ــ ابن مروان التُجَيبي : أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن سندور ابن مروان التجيبي، فقيه، محدّث، روى عن كثير من جهابذة الأندلس، أمثال أبي عمر بن عبد البر، وأبي الوليد الباجي، وأبي العباس العذري، وأبي عمر

(40) الصلة 5 /283 ــ ط. مجريط.
(41) الصلة 1 /68ــ69 ــ ط. مجريط.
(42) التكملة على الصلة ــ ج1 /137.
(43) الصلة ــ ص : 624ــ626، والحلل السندسية 22 /36. ط1 ــ 1355ــ1936

الطلمنكي[44]، وكتب كثيرا من العلم بخطه. توفي قبل الخمسمائة من الهجرة[45].

22 ــ الأردي : أبو محمد عبد الجبار بن خلف بن لب الاردي، سكن مدينة بلنسية ودانية، فقيه، ومن أهل الحديث، سمع من أبي عبد البر، وأبي العباس العذري[46].

23 ــ ابن اللوقية : أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن يوسف الأنصاري، الذي كان يعرف بابن اللوقية،فقيه، وطبيب، سمع الفقه عن كثير من علماء عصره بالأندلس، ودرس الطب على أبي المطرف بن واقد، سكن قرطبة، ومات بها سنة ثماني أو تسع وتسعين وأربعمائة هجرية[47].

24 ــ الكتاني : أبو الحسن علي بن المنذر بن علي الكتاني، فقيه، من رجال الحديث، روى عن أبي عمر الطلمنكي، شيخ ابن عبد البر، وقام برحلة الى المشرق للسماع والأخذ عن الفقهاء والعلماء. توفي حوالي ثمانين وأربعمائة هجرية[48].

25 ــ السرقسطي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري السرقسطي، سمع مع علماء الأندلس، ثم رحل الى المشرق، فدخل دمشق، وحدث بها، فقيه، محدث، توفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة هجرية[49].

26 ــ ابن فتوح الأنصاري : أبو عبد الله محمد بن فتوح بن علي بن وليد بن علي الأنصاري، فقيه، محدث، له دراية بالرأي. سمع عن كثير من العلماء الأجلاء، وتولى أحكام القضاء بغرناطة، توفي سنة ثماني وتسعين وأربعمائة هجرية[50].

(44) الحلل السندسية ــ ج2 /159. الطبعة الاولى 1355ــ1936.
(45) الحلل السندسية ــ ج2 /159. الطبعة الاولى 1355ــ1936.
(46) الحلل السندسية ــ ج2°259. الطبعة الاولى 1355ــ1936.
(47) الحلل السندسية ــ ج2 /37 . الطبعة الاولى 1355ــ1936.
(48) الحلل السندسية ــ ج2 /37 . الطبعة الاولى 1355ــ1936.
(49) نفح الطيب 2 /153، تحقيق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر ــ بيروت.
(50) الحلل السندسية 2 /44. الطبعة الاولى سنة 1355ــ1936.

27 ــ ابن ياسين : أبو عبد الرحمن بن باسين، من أهل شاطبة، كان مهتما بالقرآن، وسماع الحديث. توفي سنة احدى وثمانين وأربعمائة هجرية(51).

28 ــ موصل بن أحمد بن موصل، من ضواحي بلنسية، فقيه، من رجال الحديث، سمع كثيراً من العلماء، ومنهم أبو عمر بن عبد البر. توفي سنة ثمانين وأربعمائة هجرية(52).

29 ــ أبو القاسم أحمد بن سعيد الكاتب، محدث، فقيه، أخذ عن ابن عبد البر «موطأ الإمام مالك» وقرأها عليه(53).

30 ــ ابن جحاف المعافري : أبو محمد جعفر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري البلنسي، فقيه مالكي،ومن رجال الحديث، سمع من كثير من علماء الأندلس وأئمتها في الحديث، وقد قرأ صحيح مسلم على أبي العباس العذري، تلميذ أبي عمر بن عبد البر.

كان قاضيا في بلنسية، ورئيسا لها في الفتنة(54)، أحرقه القنبيطور لعنه الله سنة ثمان وثمانين وأربعمائة هجرية(55)، وهو آخر القضاة من بني جحاف ببلنسية(56).

31 ــ ابن اسماعيل الأنصاري : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن اسماعيل الأنصاري، فقيه، محدث، سمع من أشهر علماء الأندلس وجهابذتها، منهم أبو عمر بن عبد البر، ولم تكن له رحلة الى المشرق. توفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة هجرية(57).

---

(51) الصلة ــ ص : 563 ــ ط. مجريط.
(52) الصلة ــ ص : 579 ــ ط. مجريط.
(53) التكملة 1 /25 ــ نشر عزت العطار سنة 1375ــ1956.
(54) التكملة 1 /239. نشر عزت العطار سنة 1375ــ1956.
(55) البغية ــ ص : 241، فقرة 615 ــ ط. مجريط.
(56) نفس المصدر السابق.
(57) الحلل السندسية 2 /147. الطبعة الاولى 1355ــ1936.

32 ــ الحراز : أبو الخليل مفرج الحراز، كان يسكن بضواحي طليطلة، فقيه، عابد، من الزاهدين في الدنيا؛ اذ كان مداوما على الصوم، حيث صام ستين سنة[58]. توفي سنة سبعين وأربعمائة هجرية[59].

33 ــ ابن عتاب : أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب، ولد سنة ثلاثين وأربعمائة هجرية، من كبار الفقهاء، ومن المحدثين المكثرين، أجازه أبوه وهو لا زال صغيرا، وروى عن جماعة من الأعلام الأجلاء بالأندلس. توفي سنة عشرين وخمسمائة هجرية[60].

34 ــ العبدري : أبو الحسن خليص بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله العبدري، فقيه، جليل، ومن رجال الحديث، روى عن جماعة من علماء الأندلس، وفي مقدمتهم أبو عمر بن عبد البر، والعذري، والباجي، والسمرقندي، والوقشي، كان من التلاميذ الملازمين لأبي عمر بن عبد البر، والمختصين بالرواية عنه، والاكثار منها[61].

35 ــ عبد الله بن اسماعيل بن حرث الداخل بالأندلس[62].

36 ــ ابن العمال : عبد الله بن فرح بن عزلون اليحصبي، يعرف بابن العمال، فقيه، محدث[63].

37 ــ أبو محمد بن عبد الله بن فرحون بن غلام بن حيان الأنصاري[64]، سكن بلنسية.

---

(58) الحلل السندسية 2 /26. الطبعة الأولى.
(59) الحلل السندسية 2 /26. الطبعة الأولى.
(60) البغية ــ ص : 344 ــ ط. مجريط.
(61) الصلة ــ ص : 276 ــ ط. مجريط.
(62) الصلة ــ ص : 276 ــ ط. مجريط.
(63) الصلة ــ ص : 280 ــ ط. مجريط.
(64) الصلة ــ ص : 283 ــ ط. مجريط.

38 ــ عبد العزيز بن محمد بن أبي بكر[65].

39 ــ عبد العزيز بن شفيع، فقيه، مقرىء، محدث، روى عن كثير من الشيوخ[66]. كان شيخا صالحا، مجودا للقرآن. توفي بالمرية سنة أربع عشرة وخمسمائة هجرية.

40 ــ خلف بن داود الصدفي البلنسي، فقيه، محدث، روى عن كثير من علماء الأندلس، منهم أبو عمز بن عبد البر، والباجي، والوقشي، وأبو المطرف بن جحاف.

41 ــ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن حسن بن مهلب بن جعفر، من أهل قرطبة، محدث، فقيه، درس كتاب «التقصّي» على أبي عمر بن عبد البر بمدينة دانية، وذلك سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة هجرية[67].

42 ــ ابن أبي العافية : أبو عبد الله محمد بن أبي العافية، فقيه مشهور، وله عناية كبيرة بالحديث وسماعه، رحل من قرطبة الى شاطبة لسماع الحديث من أبي عمر بن عبد البر، وكان يصحبه في السماع منه طاهر بن مفوز[68].

43 ــ ابن ربيعة : أبو عبد الله محمد بن عبيد الله بن عبد البر بن ربيعة، من أهل بلنسية، وكان أصله من جزيرة شقرا، فقيه بارز، حافظ، من المفتين المشهورين، سمع من العلماء الأجلاء الأندلسيين، ومنهم أبو عمر بن عبد البر.

توفي سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية[69].

44 ــ ابن خلصة المعافري : أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن خلصة المعافري، من أهل شاطبة، من رجال الحديث، رحل الى المشرق حاجا،

(65) الصلة ــ ص : 364 ــ ط. مجريط.
(66) الصلة ــ ص : 366، والبغية ــ ص : 373 ــ ط. مجريط.
(67) التكملة على الصلة 1 /298. نشر عزت العطار سنة 1375ــ1956.
(68) التكملة على الصلة 1 /390. نشر عزت العطار سنة 1375ــ1956
(69) التكملة 1 /398. نشر عزت العطار سنة 1375ــ1956.

فلقي بمكة أبا الحسن بن المفرج الصقلي، وسمع منه «صحيح البخاري».

توفي سنة تسعين وأربعمائة هجرية[70].

45 ــ البشكلاري : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الوارث بن سعيد البشكلاري، وبشكلار قرية بجيان، فقيه، سمع وروى العلم بالأندلس[71].

46 ــ أبو العباس عبد الله بن أحمد بن سعدون، من أهل بلنسية، فقيه، محدث، روى عن كثير من علماء الأندلس، ومنهم أبو عمر بن عبد البر، وغيره[72].

47 ــ ابن فتحون : أبو بكر محمد بن خلف بن سليمان بن فتحون، من أهل أربولة، عمل مرسية، كان معتنيا بالحديث، عالما برجاله، روى عن أبيه، وعن أبي الحسن طاهر بن مغوز تلميذ ابن عبد البر، وأبي علي الحسين بن محمد الصدفي ومن كتبه «استلحاق عَلّى أبي عمر بن عبد البر في كتاب الصحابة»، وهو كتاب في سِفْرَيْن، وهو كتاب حسن، و«أوهام أبي عمر بن عبد البر في كتاب الصحابة»، وأصلح أيضاً «أوهام المعجَم» لابن قانع، في جزء، توفي سنة عشرين وخمسمائة هجرية[73].

القسم الثاني : التلاميذ الذين أجازهم ابن عبد البر، وأخذوا عنه : ومن أهمهم

1 ــ ابن الوراق : أبو المطرف عبد الرحمن بن سعيد، يعرف بابن الوراق، ولد سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة هجرية، من أهل سرقسطة، وسكن قرطبة، مقرىء ثقة فيما رواه، سمع من كثير من شيوخ الأندلس، وعلى رأسهم أبو الوليد الباجي، كما أجازه أبو عمر بن عبد البر، وعبد الحق بن هارون الصقلي. توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة هجرية[74].

---

(70) التكملة 1 /403ــ404. نشر عزت العطار سنة 1375ــ1956.

(71) التكملة ــ ج1 /418. نشر عزت العطار سنة 1375ــ1956.

(72) التكملة ــ ج2 /808. نشر عزت العطار سنة 1375ــ1956.

(73) الصلة ــ ص : 519 ــ ط. مجريط.

(74) الصلة ــ ص : 344 ــ ط. مجريط.

2 ــ الجذامي : أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن موهب الجذامي، من أهل المرية، مولده سنة 441 هجرية، عالم بالحديث، من أهل الذكاء والفهم، أصولي، روى عن أبي العباس العذري كثيرا، واختص به، وأجاز له أبو عمر بن عبد البر، وأبو الوليد الباجي، وله «تفسير القرآن»، وهو كتاب حسن مفيد، روى الناس عنه، وأجاز لابن بشكوال ما رواه. توفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة هجرية(75).

3 ــ ابن عون المعافري : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عون المعافري، من أهل قرطبة، ولد سنة أربعين وأربعمائة هجرية (76)فقيه، فاضل، مشهور بالعلم والافتاء، من أهل الصلاح والخير والمعرفة والفهم، جمع كثيرا من الكتب، روى عن أشهر شيوخ الأندلس، وأجاز له أبو عمر بن عبد البر، وأبو بكر بن صاحب، وأبو العباس العذري.

توفي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة هجرية(77).

4 ــ ابن حمدين : أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين الثعلبي، قاضي الجماعة بقرطبة، ولد سنة تسع وثلاثين وأربعمائة هجرية(78). من أهل التفنن في العلوم، حافظ، أديب، شاعر، أصولي، ولي القضاء بقرطبة سنة 490 هـ. كان من بيت علم ونباهة وفضل. توفي سنة ثماني وخمسمائة هجرية(79).

5 ــ ابن حزم الابن : أبو أسامة يعقوب بن علي بن أحمد بن حزم، من أهل قرطبة، وهو ولد الحافظ أبي محمد علي بن حزم، فقيه، من رجال الحديث، ومن أهل النباهة والاستقامة. نشأ في بيت العلم والفضل والسؤدد، روى عن أبيه، وعن أبي عمر بن عبد البر، وعن أبي العباس العذري، وهو ممن أجازه أبو عمر بن عبد البر.

(75) الصلة ــ ص : 419 ــ ط. مجريط.
(76) الصلة ــ ص : 514 ــ ط. مجريط.
(77) الصلة ــ ص : 541 ــ ط. مجريط.
(78) الصلة ــ ص : 514 ــ ط. مجريط.
(79) نفس المصدر السابق.

ولد سنة أربعين وأربعمائة، وتوفي سنة ثلاث وخمسمائة(80).

6 ــ الهوزني : أبو القاسم الحسين بن عمر الهوزني، من أهل اشبيلية، فقيه، مشاور ببلده، عال في روايته، ذاكر للأخبار والحكايات، درس الفقه والعلم بالأندلس على أكابر علمائها، ثم رحل الى المشرق، وحج، وسمع بالمهدية والإسكندرية، وبمصر، وأجاز له أبو محمد بن الوليد، وأبو عمر بن عبد البر.

توفي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة هجرية(81).

7 ــ البكري : أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن قاسم البكري، فقيه، محدث، روى عن أشهر علماء الأندلس، وأكابر شيوخها، ثم رحل الى المشرق، وحج، وأخذ العلم عن شيوخ مكة والإسكندرية، ثم رجع الى الأندلس سنة احدى وثمانين وأربعمائة(82)، ثم سكن باجة، وغيرها من مدن الأندلس، وأجازه أبو عمر بن عبد البر، توفي ببجاية(83).

8 ــ أبو عبيد البكري : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، من أهل شلطيش، سكن قرطبة، فقيه، محدث، روى عن أبي مروان بن حيان، وأبي بكر المصحفي، وأبي العباس العذري، وأجاز له أبو عمر بن عبد البر، توفي سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية(84).

9 ــ الماموني : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الماموني، من أهل الحديث والعلم، روى عن أبي عمر بن عبد البر، وأجاز له ولأبيه عبد الله، وذلك سنة 447 هـ. وقرأ قراءة أجازته هذه لبنيه في شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين وأربعمائة هجرية(85).

---

(80) الصلة ــ ص : 628 ــ ط. مجريط.
(81) الصلة ــ ص : 140 ــ ط. مجريط.
(82) الحلل السندسية ــ ج2 /24. ط.1
(83) الحلل السندسية ــ ج2 /24. ط.1
(84) الصلة ــ مجلد 1 /283 ــ ط. مجريط.
(85) التكملة على الصلة ــ ج1 / 406. نشر عزت العطار

10 ــ التجيبي : أحمد بن مروان بن محمد بن مروان بن عبد العزيز بن محمد التجيبي، فقيه، محدث، درس بالأندلس على أشهر علمائها. وأجازه أبو عمر ابن عبد البر، وأبو المطرف ابن جحاف. ولد سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وتوفي سنة احدى عشرة وخمسمائة هجرية(86).

11 ــ ابن أبي جمرة : أبو العباس أحمد بن عبد الملك بن موسى بن أبي جمرة، فقيه، محدث، ومن رجال العلم والفهم، سمع من أكابر شيوخ الأندلس وعلمائها، ثم استجاز له أبوه عبد الملك جماعة من العلماء الأجلاء، المشهورين بالفضل والعلم، منهم أبو عمر بن عبد البر، وأبو عمر المقرىء، وأبو العباس العذري، وأبو الوليد الباجي، ولم تكن له رحلة الى المشرق(87).

12 ــ الحجري : أبو اسحاق ابراهيم بن أبي الفضل بن صواب الحجري من أهل شاطبة، سمع من علماء الأندلس، وأجازه أبو عمر بن عبد البر، وممن روى عنهم أبو عمر بن عبد البر، وأبو الحسين بن سيده. توفي بمكناسة الزيتون، وهو ابن ثمانين سنة(88).

13 ــ التجيبي : مروان بن محمد بن عبد العزيز التجيبي، من أهل بلنسية، وأصل سلفه من «قرطبة»، أجاز له ابن عبد البر، وأبو مروان بن سراج. توفي سنة ثماني وثمانين وأربعمائة هجرية(89).

14 ــ ابن بشتغير: أحمد بن سعيد بن خالد اللخمي أبو جعفر بن بشتغير، من أهل لورقة، حدث عن كثير من علماء الأندلس، وقد عادل شيوخه باجازة أبي عمر بن عبد البر له. توفي سنة ست عشرة وخمسمائة هجرية(90).

(86) التكملة على الصلة ــ ج1 /30. نشر عزت العطار.
(87) التكملة ــ ج1 /46 ــ نشر عزت العطار سنة 1375ــ1956.
(88) التكملة ــ ج1 /140 ــ نشر عزت العطار سنة 1375ــ1956.
(89) التكملة ــ ج1 /693ــ694. نشر عزت العطار سنة 1375ــ1956.
(90) معجم الصدفي ــ حرف أ ص : 10.

وهذا غيض من فيض، وقليل من كثير؛ إذ تلاميذ ابن عبد البر كثيرون جدا، لا يمكن أن يحصيهم أحد، نظراً لما كان يمتاز به من المكانة العلمية، فقد تخرج منه علم كثير من جلة أهل العلم[91] المشاهير، بل ربما من خارج الاندلس، وآخر من حدث عنه من الاندلسيين أبو سفيان العاصي، وكان سنده مما يتنافس فيه، ويرحلون اليه من أماكن قاصية.

(91) الديباج المذهب ــ ص : 357.

الفصل الثاني

قائمة إجمالية لمؤلفاته

توطئة وتقسيم :

كان لكتب ابن عبد البر شهرة ومكانة ممتازة في الأندلس، وخارج الأندلس، حتى راح الشعراء يتورون بها، وخاصة كتاب التمهيد، والاستذكار، والتقصي، فقد قال فيها أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي :

من اغتدى موطنا أكنافه ... صح له التمهيد في أحواله
وقابل استذكاره بالمنتقي ... من رأيه المختار من أعماله
وأضحت المسالك الحسنى له ... تدني تقصيا قصي آماله
وسار من مشارق الأنوار في ... أدنى المدارك الى أكمامه[1]

ولما وقف على هذه القطعة، الفاضل أبو علي حسين بن صالح بن أبي دلامة، عارضها وزاد ذكر القبَس والمعلم، فقال :

قل للموطأ للورى أكنافه ... بُشراه بالتمهيد في الأموال
واذا اكتفى بالمنتقَى استذكاره ... وفى له المختار في الأعمال
ومسالك الحسنى تؤويه إلى ... أقصى التقصي من قصي الآمال
ويلوح من قبس الهداية رشده ... من معلم التفصيل والاجمال

وذكره ابن خلكان، فقال : «كان ابن عبد البر موفقا في التأليف مُعانا عليه، ونفع الله بتآليفه[2]». والحقيقة أن حياة ابن عبد البر كانت حياة خِصبة، بارك الله فيها، وأعانه على إثراء المكتبات الاسلامية بتآليفه الكثيرة والمتنوعة، ومما

---

(1) نفح الطيب — ج 5 /538—539، تحقيق د. إحسان عباس، توزيع دار الفكر بيروت.
(2) نفس المصدر السابق.

ساعده على ذلك، امتداد عمره، وحبه الشديد للعلم والمعرفة، وميل علماء عصره ــ ولا سيما أساتذته ــ الى التأليف، وتنافس الأمراء في عهده على جلب العلماء الى قصورهم، وجمع الكتب النفيسة.

وهذه كتب التراجم التي تحدثت عنه، تُنسب اليه طائفة كبيرة من الكتب، وهي على كثرتها، ربما ليست كل ما ترك وراءه من كتب، فليس بعيدا أن يكون ثَمة كتاب أو أكثر لم يعرفه مترجموه؛ لأنه ضاع الكثير منها، وأما ما وصلنا فقد طبع بعضه، ولا يزال بعضه الآخر مخطوطا، ومبعثرا في شتى الخزانات بين المشرق والمغرب.

وانه لمن الصعب جمع تلك المؤلفات في فئات مختلفة، ومرتبة على حسب مادتها؛ لأن الكثير منها متداخل، ومختلف الموضوعات، أو متعدد المعاني، مثل «جامع بيان العلم وفضله»، و«الاستيعاب»، و«الاستذكار» ...الخ فهي كتب جمعت الحديث والفقه والأخبار والشعر.

ولكن مهما كانت حقيقتها، فإننا نستطيع أن نصنفها، ونميز العلوم التي ألفت فيها، رغم أننا لم نطلع إلا على القليل منها؛ لأن أسماءها وعناوينها تدل على موضوعاتها دون غموض أو التباس، فيصنّف منها في علوم القرآن، وصنف في الحديث والفقه، وصنف في الأخبار والتراجم والسِّيَر، وصنف في الأدب، وأشتات من العلوم الأخرى.

ومن ثم سيكون تقسيمنا لمؤلفات ابن عبد البر، ولو على وجه التغليب، كالتالي :

أ – في علوم القرآن.

ب – في الحديث وعلومه وفقهه.

ج – في الفقه.

د – في التاريخ والأخبار.

ه – في الآداب والعلوم الأخرى.

أ – علوم القرآن :

ومن كتبه في علوم القرآن :

1 – كتاب البيان عن تلاوة القرآن، جزء واحد، ذكره الحميدي(3) والضبي(4) وابن خير الأشبيلي(5)، والقاضي عياض(6).

وقال فيه ابن خَيْر الاشبيلي : «تأليف الشيخ أبي عمر بن عبد البر – رحمه الله – حدثني به الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد أبي طاهر، وغير واحد عن أبي علي حسين بن محمد الغساني، قال حدثني به مؤلفه عمر بن عبد البر – رحمه الله – قراءة عليه وأنا أسمع، وحدثني به أبو محمد ابن عتاب – رحمه الله – إجازة عن أبي عمر مؤلفه – رحمه الله –»(7).

ولم أعثر عليه في أي مكتبة، إلا ما وجدته من الحديث في الكتب.

2 – كتاب الاكتفاء في قراءة نافع، وأبي عمرو بن الصلاح بتوجيه ما اختلفا فيه، والحجة لكل منهما، جزء واحد، ذكره الحميدي والضبي(8).

3 – كتاب «الإنصاف فيما في بسم الله من الخلاف»، جزء واحد، صغير، وهو عبارة عن الفتوى في قراءة البسملة في الصلاة، وعدم قراءتها، وفي كونها آية من الفاتحة، والحجج على ذلك.

---

(3) وفيات الأعيان ــ ج7 /67، تحقيق د. احسان عباس، والديباج المذهب لابن فرحون ــ ص : 358.

(4) الجذوة ــ ص : 345 ــ الطبعة الأولى ــ القاهرة.

(5) البغية ــ ص : 475 ــ ط. مجريط.

(6) فهرست ابن خير ــ ص : 327 ــ ط. مدريد بمطبعة قومش سنة 1893.

(7) ترتيب المدارك ــ ج4 /809 ــ بيروت.

(8) الفهرست ــ ص 327 ــ ط. مدريد بمطبعة قومش.

وقد ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك بهذا الاسم[9]، أما بروكلمان فقد ذكره باسم «الانصاف فيما بين العلماء من الاختلاف»، ويوجد بهذا الاسم في كشف الظنون لحاجي خليفة[10]، وكذلك في دائرة المعارف البستانية[11]، وقد طبع في مصر في مجموعة الرسائل المنيرية سنة 343 هـ. وهل الأسماء لمسمى واحد أو لكتابين ؟

4 – «التجويد والمدخل إلى علم القراءة بالتجويد»، جزآن، ذكره الحميدي، والضبي[12] ورد في الأعلام للزركلي باسم : «المدخل في القراءات» ورمز إلى حالته بحرف (خ) التي تدل عنده على أنه لازال مخطوطا، ولكن لم يذكر المكان الذي هو موجود فيه.

ويبدو من العنوان الذي ورد في الجذوة والبغية، أن الإسمين لكتاب واحد.

ب – **الحديث وعلومه وفقه السنة :**

5 – «كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»[أ].

6 – «كتاب «الاستذكار لمذاهب الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار» أربعة أجزاء، طبع منه جزءان بالقاهرة، بتحقيق الأستاذ علي النجدي ناصف تحت عنوان «الاستذكار لمذاهب الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار» وقد ذكره القاضي عياض في «ترتيب المدارك» باسم : «الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من المعاني الرأي والآثار[13]»، وكذلك ابن خلكان[14].

---

(9) الجذوة ــ ص 345 ــ ط. القاهرة، تحقيق ابن تاويت، والبغية ــ ص : 475، ط. مجريط.

(10) ج4 /809 ــ ط. بيروت.

(11) طبعة لندن.

(12) ج3 / 333ــ334.

(أ) التعريف بهذا الكتاب سياتي في الفصل الثالث الخاص بدراسته وتحليله.

(13) الجذوة ــ ص : 345، ط. القاهرة، والبغية ــ ص : 475، ط. مجريط.

(14) ج 4 / 809 ــ ط. بيروت.

أما ابن حزم في رسالة فضل الأندلس، فقد ذكره باسم «الاستذكار» وقال : إنه «اختصار التمهيد»[15]، ولم يَرِدْ له ذكر في الجذوة، ولا في البُغْية. ويبدو أن المؤرخين أخذوا اسم هذا الكتاب من المدارك، ووفيات الأعيان، وخاصة المشارقة منهم.

وموضوعه شرح ما ورد في موطأ الإمام مالك من الرأي والآثار.

7 – كتاب «التقصّي لما في الموطأ من حديث رسول الله – ﷺ –» مجلد واحد[16]، أو أربعة أجزاء[17]، ذكره الحميدي، وأحمد الضبي، والقاضي عياض[18]، ويسمى أيضا التجريد، أو تجريد التمهيد[19]، وهو مختصر التمهيد، إذ جرد من الأسانيد، ولذا سمي بالتجريد، وهو مطبوع بالقاهرة، طبعته مكتبة القدسي.

والحقيقة أن التجريد هو اختصار للتمهيد، وهو مرتب بترتيب التمهيد.

8 – «كتاب في حديث مالك خارج الموطأ»، ذكره القاضي عياض في كتابه «ترتيب المدارك»[20].

ج ــ الفقــه :

9 – كتاب «الكافي في الفقه على مذهب أهل المدينة»، ستة عشر جزءا[21]، أو خمسة عشر جزءا[22]، ولم يرد لهذا الكتاب ذكر في الصلة، أما في الجذوة والبغية فقد ورد فيهما بهذا الاسم، أما القاضي عياض في «ترتيب المدارك»،

---

(15) وفيات الأعيان ــ ج 7 /67، تحقيق د. احسان عباس.

(16) نفح الطيب ــ ج 3 /169ــ170، تحقيق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر بيروت.

(17) الجذوة ــ ص : 345، طبعة القاهرة ــ تحقيق ابن تاويت.

(18) البغية ــ ص : 475 ــ ط. مجريط سنة 1884.

(19) المدارك ــ ج4 / 809 ــ ط. بيروت.

(20) الأعلام للزركلي ــ ج9 /316ــ317. ط.2.

(21) ج2 /84 ط.1 بالمغرب لوزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.

(22) الجذوة ــ ص : 345، ط. القاهرة، البغية ــ ص : 475، ط. مجريط، الفهرست لابن خير، ط. مجريط سنة 1893م.

فقد ذكره باسم : «الكتاب الكافي في الفقه في الاختلاف وأقوال مالك وأصحابه»، وقال فيه : هو «عشرون كتابا»[23]، وفي الديباج المذهب «كتاب الكافي في الفقه»[24]، وفي الأعلام للزركلي باسم «الكافي في الفقه»، وهو لا زال مخطوطا، وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم : 540 ك، وأخرى بخزانة القرويين بفاس، وفي الفاتيكان والمدينة المنورة[25]، وهو في الفقه المالكي وأصحابه، وفي الاختلاف بينهم.

10 ــ كتاب «اختلاف أصحاب مالك بن أنس واختلاف رواياتهم عنه»، أربعة وعشرون جزءا، ذكره الحميدي والضبي[26]، وقد ورد اسم هذا الكتاب في كتب المؤرخين المحدثين، وأعتقد أنهم نقلوه من الجذوة والبغية.

11 ــ كتاب الاجوبة الموعية في الأسئلة المستغربة، ذكره القاضي عياض[27] في ترتيب المدارك وصاحب كشف الظنون[28] وهو كتاب في الحديث جمع فيه المسائل المستغربة من كتاب البخاري[29].

12 ــ كتاب «جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله»، ذكره الحميدي، والضبي، والقاضي عياض[30]وقال فيه الحميدي : هو «ستة أجزاء»، وذكر أحمد الضبي «أنه سفران»، وقد عده بعض المؤرخين من مسانيده، وهو كتاب في الآداب الشرعية، التي تتعلق بالعلم والعالم والمتعلم، والتاريخ، ويشتمل في تضاعيفه على ثمانية وثمانين ومائة ترجمة لبعض الشعراء والأدباء والفقهاء، وهو من أهم كتب ابن عبد البر.

---

(23) نفح الطيب ــ ج3 /169،170، تحقيق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر، بيروت.

(24) المدارك ــ ج 4 /809 ــ ط. بيروت.

(25) ص : 357ــ358.

(26) مقدمة كتاب «بهجة المجالس وأنس المجالس».

(27) الجذوة ــ ص : 345، ط. القاهرة، البغية ــ ص : 375، ط. مجريط.

(28) ج4 /809 ــ ط. بيروت.

(29) مجلد 7 /265، ط. لندن.

(30) مقدمة الاستذكار لعلي النجدى ناصف، ط. القاهرة.

طبع مرتان : الأولى مجردا من الاسناد باسم «مختصر جامع بيان العلم»، في جزء واحد، اختصره أحمد بن عمر الخمصاني البيروتي الأزهري بالقاهرة سنة 320هـ. والثانية في جزءين بالمطبعة المنيرية سنة 1346هـ. بالقاهرة أيضا.

13 ــ كتاب «الشواهد في إثبات خبر الواحد»، جزء واحد، أشار اليه ابن عبد البر في كتابه التمهيد عند كلامه على مصطلح الحديث[31]، حيث قال : «وقد أفردت لذلك كتابا كافيا موعبا والحمد لله، وذكره الحميدي وأحمد الضبي، والقاضي عياض[32]، وبذلت مجهودات لأعثر عليه، فلم أتمكن.

14 ــ «الإشراف في الفضائل»، ذكره القاضي عياض[33] في المدارك، ولم يرد له ذكر في الجذوة، ولا في البغية.

15 ــ «اختصار التحرير، واختصار التمييز لمسلم»، ذكره الأستاذ علي النجدي، صاحب تحقيق كتاب «البهجة»[34].

د ــ التاريخ والسّير :

16 ــ «الإنباه على قبائل الرواة»، كتاب صغير، ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك[35]، وابن خير في فهرسه[36].

وهو بمثابة المدخل الى كتاب «الاستيعاب»، وقد طبعه مع القصد والأمم، ونشره حسام المقدسي سنة 1350 بالقاهرة، ومن اسمه ندرك أنه كتاب له علاقة بالتاريخ وبالحديث أيضا، لأن ابن عبد البر وضعه للتنبيه على قبائل رواة الحديث، وأصلهم، وأحوالهم، ثم بعد ذلك وضع كتابا آخر خاصا بتراجمهم.

---

(31) الجذوة ــ ص : 345، ط. القاهرة، البغية ــ ص : 475، ط. مجريط. المدارك 4 /809 ــ ط. بيروت.

(32) الجزء الاول ــ ص : 2 ط. 1 ــ المغرب.

(33) الجذوة ــ ص : 345 ــ ط. القاهرة، والبغية ــ ص : 475 ــ ط. مجريط، والمدارك ــ ج4 / 809 ــ ط. بيروت.

(34) المدارك ــ ج4 /809 ــ ط. بيروت.

(35) البهجة ــ ج1 /26 ــ ط. القاهرة

(36) ج4 / 809 ــ ط. بيروت.

17 ــ «الاستيعاب في طبقات الأصحاب»، اثنا عشر جزءا[37]، أو أربعة أسفار[38]، ذكره ابن خير، وقال فيه : «الاستيعاب تأليف أبي عمر بن عبد البر أيضا، وهو جزء ضخم[39]. وذكره أفراد البستاني أنه يقع في جزأين[40].. وهو في أسماء المذكورين في الروايات والسير من الصحابة لابن حجر سنة 1328 هـ. بمطبعة السعادة، وطبع مؤخرا، وقد طبعت الإصابة والاستيعاب في كتاب واحد بعد مقابلتهما على عدة نسخ. وورد في مقدمة الطبعة الأولى للكتابين بمصر ما نصه : «وقد طبعت الإصابة والاستيعاب بعد مقابلتهما على عدة نسخ الموجودة في المغرب الأقصى، والتي عليها خطوط بعض العلماء الأعيان، على نفقة سلطان المغرب الأقصى، جلالة أمير المومنين، وحامي حوزة الدين، فرع الشجرة النبوية، وخلاصة السلالة الطاهرة العلوية، سيدنا ومولانا عبد الحفيظ بن السلطان مولاي الحسن بن السلطان سيدي محمد خلد الله ملكه، وبتوكيل الحاج محمد بن العباس بن شقرون، خديم المقام العالي بالله الآن بثغر طنجة، ووكيل دولة المغرب الأقصى سابقا بمصر، على يد نجله الحاج عبد السلام بن شقرون [41]».

وهو كتاب جليل مفيد في تمييز أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ وتراجمهم وأصلهم وأحوالهم.

18 ــ «كتاب الدرر في اختصار المغازي والسِّيَر»، ثلاثة أجزاء[42]، أو سفر واحد[43]، ذكره الحميدي، والضبي، والقاضي عياض[44]، وابن خلكان[45]. وهو

(37) فهرست ابن خير ــ ص : 214ــ215 ــ ط. مدريد.
(38) الجذوة ــ ص : 345 ــ ط. القاهرة، تحقيق ابن تاويت.
(39) البغية ــ ص : 475 ــ ط. مجريط.
(40) فهرست ابن خير ــ ص : 214ــ215 ــ ط. مدريد بمطبعة قومش سنة 1893.
(41) دائرة المعارف البستانية ــ ج 3 /333 ــ 334.
(42) الاستيعاب ــ ج1 / ص : 1 ط. القاهرة سنة 1319.
(43) الجذوة، ص : 345 ــ ط. القاهرة.
(44) البغية ــ ص : 475 ــ طبعة مجريط.
(45) المدارك ــ ج 4 /809 ــ ط. بيروت.

كتاب اختصر فيه ابن عبد البر السيرة النبوية لابن هشام، ويوجد مخطوطا في دار الكتب المصرية، وهو تحت الطبع، وربما الآن طبع بتحقيق الدكتور شوقي ضيف.

19 ــ «أخبار أئمة الأمصار»، سبعة أجزاء، ذكره الحميدي والضبي[46].

20 ــ كتاب «القصد والأمم في التعريف بأنساب العرب والعجم»، كتاب صغير عبارة عن رسالة، ذكرها القاضي عياض[47]. طبعها حسام المقدسي سنة 1350هـ. مع كتاب «الإنباه على قبائل الرواة»، وقد اعتنى بهذه الرسالة المستشرقون، ومنهم «كراتشكوفسكي» الذي درسها في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب»، دراسة ممتازة، ونقل عن نولدكه أنه يعتقد أن هذه الرسالة ذيل لكتاب كبير في الأنساب[48]، وله ترجمة بالفرنسية بقلم عبد الرحمن المحجوب[49].

21 ــ كتاب «أسماء المعروفين بالكنى»، سبعة أجزاء، ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك[50].

22 ــ «الانتقاء في فضل الثلاثة الفقهاء:مالك والشافعي وأبي حنيفة»، جزء واحد، ذكره ابن خير[51] والقاضي عياض[52]، وهو كتاب ترجم فيه ابن عبد البر مالكا والشافعي وأبا حنيفة وأصحابهم، كما سيأتي في فصل خاص بتحليله. وقال فيه ابن خير في فهرسه:وهو من تأليف الشيخ الحافظ أبي عمر بن عبد البر[53]. طبع بمطبعة المقدسي سنة 1350هـ. بالقاهرة.

---

(46) وفيات الأعيان ــ ج7 /67، تحقيق احسان عباس. دار صادر ــ بيروت.

(47) الجذوة ــ ص : 345 ــ ط. القاهرة، والبغية ــ ص : 475 ــ ط. مجريط.

(48) المدارك ــ ج 4 /809 ــ ط. بيروت.

(49) مقدمة البهجة لمحمد مرسي الخولي ــ ص 15، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ــ ج1 /273.

(50) نشرت متسلسلة في المجلة الافريقية بالجزائر سنة 1955.

(51) ج 4 /809 ــ ط. بيروت.

(52) فهرست ابن خير ــ ص : 214ــ215 ــ ط. مدريد.

(53) المدارك ــ ج 4 /809 ــ ط. بيروت.

23 ــ «أخبار أئمة الأمصار» ــ سبعة أجزاء، ذكره الحميدي والضبي، ولم يرد له أي ذكر لغيرهما من كتاب التراجم.

24 ــ «جمهرة الأنساب»، ذكره ابن فرحون في الديباج المذهب[54]، وابن خلّكان في وفيات الأعيان[55]، وهو كتاب صغير في قبائل العرب وأنسابهم[56]، وربما هو نفس كتاب القصد والأمم.

25 ــ «اختصار تاريخ أحمد بن سعيد (أ)، ذكره الحميدي والضبي والقاضي عياض[57].

26 ــ «فهرس شيوخه»، ذكره محمد مرسي الخولي في مقدمة «بهجة المجالس وأنس المجالس»[58].

٥ ــ الأدب :

وله في الأدب :

27 ــ «بهجة المجالس، وأُنْس المجالس» مجلدان، ذكره الحميدي والضبي وابن خير والقاضي عياض[59].

وورد في دائرة المعارف البستانية، أن هذا الكتاب فيه ثلاثة أسفار[60].

وقد طبعت منه مقتطفات مع كتاب الأدب الكبير لابن المقفع في كتاب بعنوان : «جواهر الحكماء» ألحق بالمجلد الخامس من مجلة المحيط سنة 1907

(أ) هو ابن حزم الصوفي المنتجيلي، أبو عمر.

(54) ص : 214ــ215 ــ ط. مدريد.

(55) ص : 357ــ358.

(56) ج 7 /67، تحقيق الدكتور احسان عباس.

(57) نفس المصدر السابق.

(58) الجنوة ــ ص : 345 ــ ط. القاهرة، البغية ــ ص : 475 ــ ط. مجريط.

(59) ص : 27 ــ الطبعة الأولى ــ القاهرة.

(60) الجنوة ــ ص : 345 ــ ط. القاهرة، البغية 475 ــ ط. مجريط، المدارك ج4 /809 ط. بيروت، فهرست ابن خير ص : 327 ــ ط. مدريد.

بالقاهرة، كما طبع منه القسم الأول بدار الجيل للطباعة بمصر بتحقيق محمد مرسي الخولي، وتوجد منه ثلاث نسخ : النسخة الأولى بدار الكتب المصرية، وهي ملفقة من نسختين، النسخة الأولى تحتوي على الجزأين : الأول والثاني بدار الكتب المصرية[61]، والثانية، وتحتوي على الجزأين : الثالث والرابع من الكتاب في مجلد واحد.

النسخة الثانية : هي نسخة مراد مُلاّ باستنبول[62].

النسخة الثالثة : نسخة رواق المغرب بالجامع الأزهر، وهي نسخة مغربية قيمة كتبت سنة 1158 هـ. والكتاب يتضمن الآداب الشرعية، وما يجري في المذاكرات من غرر الأبيات، ونوادر الحكايات، وقد كتبه للأمير المظفر[63].

28 ــ «العقل والعقلاء وما جاء في أوصافهم عن الحكماء والعلماء»، جزء واحد، ذكره الحميدي والضبي وابن فرحون[64].

ويبدو من عنوانه أن الكتاب في الفلاسفة والعلماء العقلانيين.

29 ــ «نزهة المستعين وروضة الخائفين»، ذكره الزركلي[65]، وهذا ربما في الزهد، ولا زال مخطوطا في مكتبة الفاتكان[66]، وفي الأعلام للزكلي، ودائرة المعارف البستانية باسم «نزهة المستعين وروضة الخائفين[67].

30 ــ «الابتهال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال»، ذكره عمر كحالة في كتابه : «المنتخَب» من محفوظات المدينة المنورة، عدد صفحاته :

---

(61) ج3 / 337، 334.
(62) تحت رقم : 1366 ــ أدب.
(63) تحت رقم : 1487.
(64) مقدمة البهجة، بتحقيق محمد مرسي الخولي.
(65) الجذوة، ص : 345، ط. القاهرة، البغية ــ ط. مجريط، الديباج المذهب ص : 357،358.
(66) الأعلام ــ ج 9 /316ــ317. الطبعة الثانية.
(67) البهجة ــ ج1 / 26 ــ الدار المصرية للترجمة والنشر.

316، في نسخة جيدة مهذبة مضبوطة بالشكل، تاريخ نسخها : 992هـ. (8أدب)[68].

31 ــ «رسالة أدب المجالسة وخوض اللسان» مخطوطة في دار الكتب المصرية[69].

32 ــ «شرح زهديات أبي العتاهية»، توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، ومنها نسخة في معهد المخطوطات[70].

(68) ج 9 /316ــ317.

(69) المنتخب من محفوظات المدينة المنورة، وضعه عمر كحالة (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق).

(70) مقدمة بهجة المجالس وانس المجالس.

الفصل الثالث

دراسة تحليلية لكتاب «التمهيد»

سأخصص هذا الفصل لتحليل كتاب التمهيد ودراسته، حيث سأتناول فيه الكلام على التعريف به، والباعث على تأليفه، والهدف منه، وموضوعه وأقسامه ووصفه، ثم منهجه وأسلوبه، وقيمته، العلمية والأدبية.

أولا : التعريف بالكتاب :

كتاب «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، وهو كتاب ضخم يضم عشرة أسفار[1]، أو عشرين مجلدا[2]، أو تسعين جزءا[3].

ويبدو أن الكتاب قسم الى عشرة أسفار، وكل سِفْر يحتوي على مجلدين، وكل مجلد قسم الى أجزاء، وكل جزء كان في العادة يضم سبعين صفحة، أو تسعين على الأكثر[4]، فيكون «التمهيد» على هذا فيه4900 صفحة،أو في 90 صفحة، وقد اختصر التمهيد وسمي كتاب «التبصرة»[5]، وهو ينشر الآن في المغرب، تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، وينتظر أن تصل طبعته الى عشرين جزءا من الحجم الكبير، وسيكون الجزء الأخير خاصا بالبلاغات والفهارس (أ).

(أ) من كلام الاستاذ سعيد أعراب، محقق التمهيد.

(1) البغية — ص : 475 — ط. مجريط.
(2) ترتيب المدارك — ج4 /809 — ط. بيروت.
(3) الصلة، مجلد 2 /618 — ط. مجريط.
(4) من كلام المحقق سعيد أعراب شفويا.
(5) البغية — ص 450، فقرة 1352 — ط. مجريط.

ولم أعثر على زمن ومكان تأليف «التمهيد» بالتحديد، لكن يبدو أن ابن عبد البر بدأ في تأليفه في العِقْد الثاني من القرن الخامس الهجري، حيث استغرق فيه ثلاثين سنة، كما قال عند وصفه له :

سَمِير فؤادي من ثلاثين حجة ... وصاقل ذهني والمفرج عن هَمِّي
بسطت لكم فيه كلام نبيكم ... لما في معانيه من الفقه والعلم
وفيه من الآداب ما يهتدى به ... الى البر والتقوى وينْهى عن الظلم(6)

وقد بدأ طبع «التمهيد» بالمغرب بتاريخ 20 صفر سنة 1387 هـ. بالرباط، وذلك بأمر من صاحب الجلالة أمير المومنين الحسن الثاني نصره الله.

ثانيا : **الباعث على تأليفه** :

إن العوامل والأسباب التي حملت ابن عبد البر على تأليف «التمهيد» كثيرة ومتنوعة، منها :

أ ــ المسؤولية الملقاة على عاتق العلماء من قبل الله عز وجل، في بيان وتبليغ ما تعلموه الى من يطلب منهم ذلك، وترك الكتمان لما علموه(7).

ب ــ رجاؤه في عظيم الثواب، والزلفى يوم المآب(8).

ج ــ خدمة العلم ونشره وتدوينه لمن ياتي بعده.

د ــ أنه رأى أن كل من خرج الأحاديث الموجودة في موطأ مالك، قالوا إنهم سيقتصرون على المسند وسيتركون المنقطع المرسّل، ولكنهم لم يلتزموا بما شرطوه، فألف هذا الكتاب لتصحيح ما وقعوا فيه، والى هذا أشار في مقدمة «التمهيد» بقوله :

---

(6) المدارك ــ ج4 /809 ــ ط. بيروت.
(7) جامع بيان العلم وفضله ــ ج1 /3 ــ دار الفكر بيروت.
(8) نفس المصدر السابق.

«أما بعد، فإني رأيت كل من قصد الى تخريج ما في موطأ مالك بن أنس ــ رحمه الله ــ من حديث رسول الله ــ ﷺ ــ قصد بزعمه الى المسند، وأضرب عن المنقطع والمرسل، وتأملت ذلك في كل ما انتهى إلي مما جمع في سائر البلدان، وأُلِّفَ على اختلاف الأزمان، فلم أر جامعيه وقفوا عند ما شرطوه، ولا سَلِم لهم في ذلك ما أَصَّلُوه، بل أدخلوا من المنقطع شيئا في باب المتصل، وأتوا بالمرسل مع المسند، وكل من يتفقه منهم لمالك وينتحله، اذا سألت من شئت منهم، عن مراسيل الموطأ قالوا: صحاح، لايسوغ لأحدٍ الطعنُ فيها لثقة ناقليها، وأمانة مُرْسليها، وصدقوا فيما قالوه من ذلك، لكنها جملة ينقصها تفسيرهم باضرابهم عن المرسل والمقطوع[9].

ويفهم من هذا النص ان ابن عبد البر دفعه الى تأليف كتاب «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» تصحيح الأخطاء التي وقع فيها من خرج الأحاديث من موطأ مالك بن أنس.

ثالثا : **الهدف من تأليف «التمهيد»** :

إن الهدف من تأليف «التمهيد» يمكن أن نجمله في النقط التالية :

1 ــ شرح ما تضمنه موطأ مالك بن أنَس برواية يحيى بن يحيى الليثي، من الأحاديث المسْنَدة، والمقطوعة، والمرسَلة، وما يمكن إضافته الى ذلك من الأحاديث غير الموجودة في موطأ مالك بن أنس[10].

2 ــ وصْل كل مقطوع أو مرسَل، جاء متصلا من غير رواية مالك، وكل مرسَل جاء مسندا من غير طريقه، رحمه الله[11].

3 ــ إبراز موقع الموطأ وآثاره من الشهرة والصحة ومكانتها من كتب الحديث[12].

---

(9) التمهيد ــ ج1 /2 ــ الطبعة الاولى ــ المغرب.

(10) التمهيد ــ ج1 /8 ــ الطبعة الاولى ــ المغرب.

(11) نفس المصدر السابق.

(12) التمهيد ــ ج1 /9 ط 1 ــ المغرب.

4 ــ حاول أن يستوفي معاني الآثار وأحكامها المقصودة بظاهر الخطاب، وجلب أقوال العلماء في تأويلها، وناسخها ومنسوخها، وأحكامها ومعانيها، معززا ذلك بالشواهد والأدلة، مما أخصب الكتاب وجعله ثروة هائلة في علوم الحديث والفقه[13].

5 ــ شرح ما استجمع من ألفاظ حديث الموطأ وآثارها، مؤيدا بأقوال أهل اللغة، وشعر الشعراء[14].

6 ــ ترجمة الرواة الذين وردوا في رواية مالك في الموطأ ذاكرا بعض أحوالهم وأنسابهم ومنازلهم[15].

7 ــ ملءُ الفراغ الذي كان يحسه في حياته، وطرد السأم والملل والهموم التي كانت تساوره، وقد قال في ذلك عند وصفه للتمهيد :

سمير فؤادي من ثلاثين حِجـــة وصاقل ذهني والمفرج عن همي[16]

8 ــ استخراج ما في كلام الرسول ــ ﷺ ــ من الأحكام والآداب الشرعية :

بسطت فيه كلام نبيكم لما في معانيه من الفقه والعلم
وفيه من الآداب ما يهتدى به الى البر والتقوى وينهى عن الظلم[17]

رابعا : **موضوع الكتاب** :

الحديث وعلومه من مصطلح الحديث، والجرح والتعديل، وأحوال الرواة وأنسابهم وتواريخهم، والفقه وأحكامه ومذاهبه، واللغة وقواعدها وآدابها، فقد جمع فيه

---

(13) نفس المصدر السابق.
(14) نفس المصدر السابق.
(15) التمهيد ــ ج1 /9 ــ الطبعة الاولى ــ المغرب.
(16) المدارك ــ ج4 /809 ــ ط. بيروت.
(17) نفس المصدر السابق.

مؤلفه ما تضمنه موطأ مالك من حديث رسول الله ــ ﷺ ــ وما هو خارج عنها، وأقوال العلماء ومذاهبهم[18]، فهو في موضعه من الكتب القلائل التي ربطت بين الحديث والفقه، ولست أبالغ اذا قلت بأنه من أهم ما كتب في هذا الميدان، فهو شرح مستفيض لما في الموطأ من الأحاديث والآثار، «وجلب أقوال العلماء على ذلك، في تاويلها وناسخها ومنسوخها وأحكامها ومعانيها، ما يشتفي منه الطالب القارىء ويبصره، وينبه العالم ويذكره[19]».

خامسا : **وصف الكتاب** :

استهل ابن عبد البر مؤلفه، بالبسملة والصلاة على الرسول ــ ﷺ ــ ثم الحمدلة، ثم التصلية مرة ثانية.

وقد قسمه الى مقدمة ومدخل، وكتاب أو شرح للموطأ.

ففي المقدمة تعرض إلى الباعث الذي حمله على تأليف الكتاب، والى الهدف منه، ثم إلى منهجه، وبعد ذلك عرج إلى الكلام على مذهب مالك وأصحابه في مرسل الثقة، وأنه مثل المسند تجب فيه الحجة[20]، ويلزم به العمل، ثم انتقل الى خبر الواحد، فأشار الى أن أهل العلم من أهل الفقه، أجمعوا على قبول خبر الواحد، وايجاب العمل به، إذا ثبت ولم ينسخه غيره من أثر أو إجماع[21].

ثم انتقل الى الكلام على المرسل، وآراء العلماء فيه، ثم اختلاف العلماء في خبر الواحد العدل[22].

وأخيرا، أشار الى هدفه ومنهجه في التمهيد[23]، ثم ختم هذه المقدمة بالدعاء، وطلب العون من الله تعالى، ثم أشار الى الأسباب التي جعلته يعتمد على

(18) التمهيد ــ ج1 /8،9 ــ الطبعة الاولى ــ المغرب.
(19) التمهيد ــ ج1 /9 ــ ط. 1 المغرب.
(20) التمهيد ــ ج1 /2 ــ ط. 1 المغرب.
(21) نفس المصدر السابق.
(22) التمهيد ــ ج1 /3 ــ ط. 1 ــ المغرب.
(23) التمهيد ــ ج1 /8،9 ــ الطبعة الاولى ــ المغرب.

رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي[24]، وبعد ذلك عاد الى الدعاء، فسأل الله حسن العون على ما يرضيه ويقربه منه.

والمقدمة في مجملها منظمة وممنهجة، وهي جاءت كتصميم وتخطيط محكم للتأليف في الوقت الذي كان العالم فيه لا يعرف شيئا عن منهجية التأليف، ورغم ما فيها من الاستطراد، فهي أقرب الى مقدمة الكتب في عصرنا الحاضر.

وبعد هذه المقدمة انتقل الى باب معرفة المرسل، والمسند، والمنقطع، والمتصل، والموقوف، ومعنى التدليس ــ المدخل ــ أو القسم الأول من كتابه.

وقد اشتمل هذا المدخل ــ أو هذا القسم ــ على ثلاث أبواب :

ــ الباب الأول : وقد تكلم فيه على علوم الحديث ومصطلحه، من مرسل، ومسند، ومنقطع، ومتصل، وموقوف، ومعنى التدليس، مدعما كلامه بأقوال العلماء وآرائهم، وبالاستشهادات المختلفة[25].

ــ الباب الثاني : وفيه تعرض بالدرس والتحليل الى التدليس، ومن يقبل نقله، ويُقبَل مُرسَله أو تدليسه، ومن لا يقبل ذلك منه. كما تعرض الى أشياء تتعلق بالمحدِّث الذي يُقبَل نقْله، ويحتجّ بحديثه، والتدليس الذي أجازه العلماء بالحديث[26]، معززا كلامه بالشواهد والحجج المختلفة.

ــ الباب الثالث : «ذكر عيون من أخبار مالك» ــ رحمه الله ــ وذكر فضل موطئه»، جمع فيه أقوال العلماء في إمامة مالك، ومكانته ومركزه العلمي، ثم أقوالهم في كتابه الموطأ وفضله، وأنها أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل، وبعد هذا انتقل الى تاريخ مالك فتحدث عن ولادته وحياته وأولاده ونسبه ووفاته.

(24) التمهيد ــ ج1 /10 ــ ط.1 ــ المغرب.
(25) التمهيد ــ ج1 /12 الى 280.
(26) التمهيد ــ ج1 / ص : 28ــ60.

وختم هذا الباب بالصلاة على الرسول ــ ﷺ ــ والحمد لله[27]، **وأثناء** حديثه على مالك وموطئه، أتى بمقاطع شعرية في مزايا مالك، **وفضل الموطأ، وبأقوال** العلماء فيه.

وبعد هذا المدخل، أو القسم الأول من التمهيد، انتقل الى **القسم الثاني،** وهو شرح ما تضمنه الموطأ.

ــ القسم الثاني : اشتمل هذا القسم على الأحاديث التي رواها عن شيوخه، وقد اشتمل هذا القسم على واحد وعشرين بابا، مرتبة على أسماء شيوخ مالك الموجودين في الموطأ حسب حروف المعجم، حيث جعل لكل حرف بابا ضمنه جميع شيوخ مالك الذين ابتدأ اسمهم بحرف الباء، مع عدد الأحاديث التي رواها عن كل شيخ من هؤلاء الشيوخ، مبتدئا بحرف الألف، ومنتهيا بحرف الياء، ثم أشفع هذه الحروف بباب الكنى فيمن يوقف على اسمه، ثم تلاه بـ «باب بلاغات مالك ومرسلاته»، ثم بباب ذكر فيه الأحاديث التي لم يذكرها مالك في الموطأ.

وهكذا جعل كل حرف من الحروف الهجائية بابا، وكل باب يحتوي على عدة فصول حسب عدد أسماء وشيوخ مالك الذين ابتدأ اسمهم بحرف الباء مع عدد الأحاديث ودرجتها تحت هذه العناوين :

باب الألف : وفيه سبعة شيوخ لمالك :

1 ــ ابراهيم بن عقبة : لمالك عنه في الموطأ حديث واحد مرسل.

2 ــ ابراهيم بن أبي عبلة، ولمالك عنه حديث واحد مرسل.

3 ــ اسماعيل بن محمد بن أبي وقاص، لمالك عنه في الموطأ حديث واحد يجري مجرى المتصل.

---

(27) من ص : 61 الى ص : 92.

4 ــ اسماعيل بن أبي حكيم، لمالك عنه أربعة أحاديث، أحدها متصل مسند، والثلاثة منقطعة مرسلة.

5 ــ اسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري، لمالك عنه في الموطأ خمسة عشر أحاديث، منها عن أنس عشرة، وعن رافع بن إسحاق حديثان، وعن زخر ابن صعصعة حديث واحد، وعن أبي مرة حديث واحد.

6 ــ أيوب السختياني بصري، لمالك عنه في الموطأ حديثان مسندان من رواية يحيى، وله عنه حديثان آخران من غير رواية يحيى.

7 ــ أيوب بن حبيب، لمالك عنه في الموطأ حديث واحد مسند.

باب الثاء : وفيه اسم واحد وهو :

ثور بن زيد الديلي، لمالك عنه في الموطأ أربعة أحاديث، أحدهمامسند متصل، والثلاثة منقطعة.

باب الجيم : وفيه اسم واحد وهو :

1 ــ جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب (ض)، لمالك عنه في الموطأ تسعة أحاديث، منها خمسة متصلة، وأربعة منقطعة، تتصل من غير رواية مالك من وجوه.

باب الحاء : ويضم شيخين هما :

1 ــ حميد الطويل بن أبي حميد أبو عبيدة بصْري، ولمالك عنه في الموطأ سبعة أحاديث مسندة، وواحد موقوف.

2 ــ حميد بن قيس الأعرج المكي، لمالك عنه في الموطأ ستة أحاديث مرفوعة في الموطأ، منها حديثان متصلان مسندان، ومنها حديث ظاهرها موقوف، ومنها ثلاثة منقطعات.

باب الخاء : وفيه شيخ واحد هو :

1 ــ خبيب بن عبد الرحمن من **الأنصار**، لمالك عنه **في الموطأ حديثان** متصلان صحيحان.

باب الدال : وفيه شيخ واحد هو :

1 ــ **داود** بن الحصين أبو سليمان مولى عبد الله بن عمرو بن عثمان بن **عفان**، ولمالك عنه من مرفوع حديث الموطأ أربعة أحاديث، منها ثلاثة متصلة، وواحد **مرسل**.

باب الراء : ويشتمل على شيخ واحد هو :

1 ــ **ربيعة** بن أبي عبد الرحمن المدني، صاحب الرأي أبو عثمان، وروى **عنه مالك في** موطئه اثنى عشر حديثا، منها خمسة متصلة، ومنها واحد مرسل عن **سليمان بن** يسار، ومنها ستة أحاديث من بلاغاته.

باب الزاي : وفيه خمسة شيوخ :

1 ــ زيد بن أسلم أبو أسامة أحد ثقات المدينة، لمالك عنه من مرفوعات الموطأ **واحد وخمسون** حديثا، منها ثلاثة وعشرون كلها مسندة، ومنها حديث منقطع، **ومنها سبعة** وعشرون مرسلة، واحد من مراسيل سعيد بن المسيب، وخمسة عشر **مرسلا** من مراسيل عطاء بن يسار، وأحد عشر من مراسيله عن نفسه.

2 ــ زيد بن أبي أنبسة الجزري الرهاوي، ويكنى أبا سعيد، لمالك عنه في الموطأ حديث واحد، وهو مسند لا يتصل من وجهه هذا.

3 ــ زيد بن أبي رباح مولى أدرم بن غالب بن فهر، روى عنه مالك في موطئه حديثا واحدا مسندا.

4 ــ زيد بن أبي زياد، مولى عبد الله بن عياض بن أبي ربيعة المخزومي، يكنى أبا جعفر، لمالك عنه في الموطأ حديث واحد مرسل، وآخر موقوف مسند من جهة أخرى.

5 ــ زياد بن سعد بن عبد الرحمن الخراساني أبو عبد الرحمن، ولمالك عنه في الموطأ ثلاثة أحاديث، أحدها متصل مسند، والثاني مرسل عند أكثر الرواة، والثالث موقوف.

باب الطاء(28) : ضم هذا الباب شيخا واحدا من شيوخ مالك هو :

1 ــ طلحة بن عبد الملك الأَيلي، لمالك عنه حديث واحد مسندا صحيحا، وليس عند يحيى عن مالك، ولكن رواه عن مالك في الموطأ جماعة الرواة الآخرون.

باب الميم(29): وهذا الباب ضم بين دفتيه تسعة عشر شيخا، وهم :

1 ــ محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله الزهري، ولمالك عنه في الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي مائة وواحد وثلاثون حديثا، منها اثنان وتسعون حديثا كلها متصلة مسندة، وسائرها منقطعة مرسلة سماها مالك مراسيل ابن شهاب عن غيره، ومراسيل ابن شهاب عن نفسه.

2 ــ محمد بن مسلم بن تدرس أبو زير المكي، لمالك عنه في الموطأ ثمانية أحاديث كلها مسندة.

3 ــ محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير التيمي، تيم قريش، روى عنه مالك في الموطأ خمسة أحاديث، أحدها مرسل.

4 ــ محمد بن يحيى بن حبان بن منقذ الأنصاري، لمالك عنه أربعة أحاديث صحاح.

5 ــ محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، لمالك عنه في الموطأ اثنا عشر حديثا مُسْنَدة.

---

(28) يدل اتيان باب الطاء بعد باب الزاي أن ابن عبد البر رتب شيوخ مالك على حروف المعجم عند المغاربة، وفعل ذلك في كتابيه : التجريد والاستيعاب، لكن بعض الناشرين المشارقة غير هذا الترتيب، ووقع في نفس الخطأ بعض المحققين.

(29) لم يذكر ابن عبد البر من حروف المعجم ــ بعد الطاء ــ الظاء، والكاف، واللام، ولعل ذلك راجع الى أنه لم يكن لمالك شيوخ في أول أسمائهم أحد تلك الحروف.

6 ــ **محمد بن عمرو بن حلحلة الديلي**، له عنه حديثان.

7 ــ **محمد** بن أبي أمامة، له عنه حديث واحد.

8 ــ محمد بن أبي بكر الثقفي، له عنه حديث واحد.

9 ــ محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم الأنصاري، حديث واحد.

10 ــ محمد بن عبد الرحمن بن الأسود بن نوفل بن خويلد بن أسيد القرشي الأسدي، لمالك عنه في الموطأ خمسة أحاديث.

11 ــ محمد بن عمارة الجرمي الأنصاري، له عنه حديث واحد مسند.

12 ــ محمد بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، له عنه حديثان.

13 ــ محمد بن عبد الرحمن أبو الرجال من ولد حارثة بن النعمان الأنصاري، لمالك عنه في الموطأ أربعة أحاديث مراسيل.

14 ــ موسى بن عقبة مدني، له عنه حديثان.

15 ــ موسى بن ميسرة، له عنه حديثان.

16 ــ موسى بن أبي تميم، حديث واحد.

17 ــ مسلم بن أبي مريم، لمالك عنه ثلاثة أحاديث.

18 ــ مخرمة بن سليمان الوالي، له عنه حديث واحد مسند.

19 ــ مسور بن رفاعة بن أبي مالك القرظي، لمالك عنه في الموطأ حديث واحد.

باب النون :

1 ــ نافع مولى ابن عمر، يكنى أبا عبد الله، لمالك عنه في الموطأ ثمانون حديثا.

2 ــ نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، عم مالك، له عنه حديثان.

3 ــ نعيم بن عبد الله المجمر، لمالك عنه في الموطأ خمسة أحاديث : ثلاثة مسندة، واثنان موقوفان يستندان من وجوه.

باب الصاد : اشتمل هذا الباب على أربعة شيوخ، وهم :

1 ــ صفوان بن سليم، ولمالك عنه في الموطأ حديثان مسندان، وخمسة مرسلة.

2 ــ صيفي مولى ابن فليح أبو سعيد، له عنه حديث واحد.

3 ــ صدقة بن يسار المكي، له عنه حديث واحد يدخل في المسندات.

4 ــ صالح بن كيسان، له عنه حديثان مسندان.

باب الضاد المعجمة : ضم هذا الباب شيخا واحدا من شيوح مالك المبدوئين بهذا الحرف، وهو :

1 ــ ضمرة بن سعيد الأنصاري المازني.

باب العين : ضم هذا الباب ستة وعشرين شيخا من شيوخ مالك، هم :

1 ــ عبد الله بن دينار، ولمالك عنه في الموطأ ستة وعشرون حديثا.

2 ــ عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، لمالك عنه ستة وعشرون حديثا.

3 ــ عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم أبو طوالة، لمالك عنه ثلاثة أحاديث.

4 ــ عبد الله بن فضل الهاشمي، لمالك عنه حديث واحد صحيح.

5 ــ عبد الله بن يزيد مولى الأسود بن سفيان، لمالك عنه في الموطأ خمسة أحاديث كلها مسندة.

6 ــ عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك الأنصاري، لمالك عنه حديثان.

7 ــ عبد الله بن أبي حسين المكي، حديث واحد مرسل.

8 ــ عبد الله بن ذكوان أبو الزناد، لمالك عنه في الموطأ أربعة وعشرون حديثا كلها مسندة.

9 ــ عبيد الله بن أبي عبد الله الأغر، له عنه حديث واحد مسند.

10 ــ عبيد الله بن عبد الرحمن، لمالك عنه حديث واحد مسند.

11 ــ عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، لمالك عنه خمسة أحاديث، ثلاثة منها مسندة، واثنان مرسلة.

12 ــ عبد الرحمن بن القاسم بن أبي بكر الصديق، لمالك عنه عشرة أحاديث، واحد منها مرسل، وسائرها مسندة.

13 ــ عبد الله بن حرملة بن عمرو أبو حرملة، لمالك عنه خمسة أحاديث، أربعة مراسيل وأحدها مرسل.

14 ــ عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري، لمالك عنه حديث واحد منقطع.

15 ــ عبد ربه بن سعيد بن قيس الأنصاري، لمالك عنه ثلاثة أحاديث، أحدها مرسلة.

16 ــ عبد الحميد بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف، حديث واحد مسند.

17 ــ عبد الكريم بن مالك الجزري، حديث واحد مسند.

18 ــ عبد الكريم بن أبي المخارق أبو أمية، حديث واحد منقطع.

19 ــ عثمان بن حفص بن عمر بن خلدة، لمالك عنه حديث واحد منقطع.

20 ــ عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام أبو الحارث، لمالك عنه حديثان مسندان.

21 – علقمة بن أبي علقمة، لمالك عنه حديثان، قطع أحدهما يحيى، وهما مسندان صحيحان.

22 – عمر بن يحيى بن عمارة بن أبي حسن الأنصاري المازني، لمالك أربعة أحاديث، أحدهما مرسل.

23 – عمر بن الحارث بن يعقوب المصري، مولى الأنصاري، لمالك عنه حديث واحد مسند.

24 – عمرو بن أبي عمرو، لمالك عنه حديث واحد مسند.

25 ــ العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحرقة، لمالك عنه تسعة أحاديث، أحدها مرسل.

26 ــ عطاء الخرساني، لمالك عنه ثلاثة أحاديث، واحد مسند، واثنان مرسلان.

باب القاف : وفيه شيخ واحد هو :

1 – قطن بن وهب بن عويمر الأجدع، أحد بني سعد بن ليث، ولمالك عنه في الموطأ حديث واحد مسند.

باب السين : اشتمل هذا الباب على ثمانية أسماء من شيوخ ابن عبد البر، وهم :

1 – سعد بن إسحاق، ويقال سعيد، لمالك عنه في الموطأ حديث واحد.

2 – سعيد بن أبي سعيد القبري، خمسة أحاديث دون لمالك.

3 – سعيد بن عمرو بن شرحبيل بن سعيد بن سعد، لمالك عنه حديث واحد.

4 – سملة بن دينار الحكيم أبو حازم، لمالك عنه تسعة أحاديث.

5 – سملة بن صفوان الزرقي، حديث واحد.

6 – سالم أبو النضر، لمالك عنه خمسة عشرة حديثا، سبعة متصلة مسندة، وسائرها منقطعة.

7 – سهيل بن أبي صالح، لمالك عنه عشرة أحاديث، منها واحد مرسل، وسائرها مسندة.

8 – سمي مولى أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، لمالك عنه ثلاثة عشرة حديثا.

باب الشين : وفيه اسم واحد من شيوخ مالك هو :

1 – شريك بن عبد الله بن أبي نمر الليثي، لمالك عنه حديثان.

باب الهاء : وفيه ثلاثة شيوخ، هم :

1 – هلال بن أسامة، وهو **هلال بن أبي ميمون**، لمالك عند حديث واحد مسند.

2 – هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري، حديث واحد.

3 – هشام بن عروة بن الزبير بن العوام أبو المنذر، لمالك عنه في الموطأ ستة وخمسون حديثا، منها ستة وثلاثون مسندة، وسائرها مراسيل.

باب الواو : وفيه اثنان :

1 – وهب بن كيسان أبو نعيم، لمالك عنه حديثان مسندان.

2 – الوليد بن عبد الله بن صباه، حديث واحد.

باب الياء : ويضم ستة شيوخ، هم :

1 – يزيد بن حصيفة، لمالك عنه ثلاثة أحاديث مسندة.

2 – يزيد بن رومان أبو روح، لمالك عنه حديث واحد مسند.

3 – يزيد بن الهادي، لمالك عنه ثلاثة أحاديث مسندة.

4 – يزيد بن عبد الله بن قسيط الليثي، لمالك عنه حديث واحد مسند.

5 – يزيد بن زياد القرظي، لمالك عنه حديثان، واحد منهما مسند من غير وجه مالك.

6 – يحيى بن سعيد الأنصاري، لمالك عنه ستة وسبعون حديثا، ثلاثون منها مسندة، وتسعة موقوفة، والباقي مرسلة.

وبعد هذا الباب أتى بمراسيل مالك عن ابن حماس وعن يعقوب بن زيد بن طلحة.

باب الكُنَى فيمن لا يوقف على اسمه : وفيه ثلاثة أسماء :

1 – أبو بكر بن عمر العمري، لمالك عنه حديث واحد.

2 – أبو بكر بن نافع، حديثان.

3 – أبو ليفي الأنصاري، حديث واحد مرفوع.

باب بلاغات مالك ومرسلاته : وفيه ذكر الأحاديث التي بلغته عن الرجال الثقات، والأحاديث المرسلة عن نفسه وعن غيره.

وأخيراً ختم كتابه بباب قال فيه : (نذكر فيه ما لم يذكر في الموطأ، وقد اشتمل على عشرة أبواب أيضاً بدأها بالألف وختمها بالياء).

سادسا : **منهج الكتاب** :

إن ابن عبد البر لا شك أنه خطط لكتاب «التمهيد» تخطيطا دقيقا، وأفنى عمره في جمع مواده، وتهييء أبوابه وفصوله ومباحثه، حيث رجع إلى مئات المصادر والمراجع في الفقه والحديث والشعر واللغة والتاريخ والسِّيَر، فجاء كتابه فريدا في منطقه، ودقيقا في منهجه، لم يسبقه إليه أحد، إذ جعله على هيئة المسانيد، ورتبه على حروف المعجم حسب أسماء شيوخ مالك الذين روى عنهم في الموطأ.

وقد اتسم منهج ابن عبد البر في «التمهيد» بالبرهنة والمنطق، وطول النفس، وذلك أنه بعد أن يعقد الباب باسم من أسماء شيوخ مالك، يأتي بالحديث الذي رواه مالك عن شيخه في الموطأ، ثم يأتي بالطرق الأخرى التي رُوِيَ بها هذا الحديث غير طريق مالك التي رواه بها، وهذه الطرق أحيانا تتعدد حتى تصل إلى أكثر من خمسة، وهو لا يكتفي بجمع الطرق المتعددة لتصحيح الحديث وإسناده ووصله، بل يأتي بألفاظ أخرى غير الألفاظ التي رواه بها مالك، وإذا كان الحديث يختلف في المعنى، يأتي بألفاظه ليقابله به، ويقارن معناه بمعنى الحديث الذي يوجد في الموطأ ليدرك الصحيح من الضعيف، والمتصل من المنفصل.

فهو عند دراسته لحديث الباب، لا يترك لا صغيرة ولا كبيرة إلا وأشبعها بحثا ودراسة، وقتلها قتلا، فيبدأ بجمع الطرق المختلفة التي رُوِيَ بها، ويناقشها مناقشة علمية ومنهجية، ليطلع القارىء على الفروق بينها ويصل به إلى الصواب منها، ثم يتناول رجال سنده فيفعل معهم مثل ما فعل بالطرق من الدراسة والتنقيب عن أحوالهم وترجمتهم والأمكنة التي استوطنوها، وما قيل فيهم من طرف العلماء من جرح وتعديل، وأحيانا يستعمل عقله ومعلوماته التاريخية المتوفرة لديه، وربط الأحداث والوقائع بعضها ببعض، ثم يستخلص الحكم الصائب في كل راو من رواة الحديث، وأحيانا يصل بحثه ودراسته حتى إلى الصحابة، مثل ما فعل في الحديث الثاني عَشَر لزيد بن أسلم، حين تعرض فيه للكلام على الصاحب، فقال : «وليس حكم الصاحب إذا لم يسم، كحكم مَن دُونه إذا لم يسم عند

العلماء، لارتفاع الجرحة عن جميعهم، وثبوت العدالة لهم، قال الأثرم : قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل : إذا قال رجل من التابعين : حدثني رجل من أصحاب النبي - ﷺ - ولم يُسَمِّه، فالحديث صحيح ؟ قال : نعم»(30). وإذا كانت المسألة فيها خلاف بين الفقهاء أتى على جميع أقوالهم، ثم يقارن بعضها ببعض، وبعد ذلك يصحح هذا، أو يرجح هذا على هذا، ويحسِّنُ أو يُصَوب أو يختار، وهذا سر عظمة ابن عبد البر.

وطريقته بعد أن يذكر عنوان الباب أن يروي الأحاديث التي وردت فيه، ولكنه لا يلتزم في روايتها نهجاً واحدا، فهو في أكثر الأحيان يرويها كلها، وقد يروي بعضا، ويَدع بعضا، وقد يجتزىء بالفقرة التي يدور عليها الكلام، وبعد أن يفرغ من رواية الحديث يَكُر عليه بالنقد والتمحيص متُنا وسندا، فيبين درجته، وينزل روايته بمنازلهم، كلما دعت داعية إلى ذلك، فهذا حديث صحيح، ثابت بنقل العدول والثقات له، وذلك حديث منقطع، وقد روي متصلا مسندا من طريق آخر، والثالث حديث منسوخ كانت الفتيا به في أول الاسلام وهكذا.

ويقول عن الرواة فيما يقول : هو ثقة، فقيه، أو تابعي وليست له صحبة، أو هو مخطىء في زعمه ذلك، ولم يسلم الإمام مالك نفسه من التخطئة، إذ قال عن زينب بنت جحش، إنها كانت تحت عبد الرحمن بن عوف، مكَّنَ له من ذلك علمه الواسع بتاريخ الصحابة والرجال بفضل ما ألف فيهم من كتب.

فإذا قضى وطَرَه من ذلك، أقبل على الحديث يبين ما اشتمل عليه من أحكام الفقه وأدب الاسلام، فيروي في المسألة التي يعرضها آراء الصحابة والتابعين وأئمة مذاهب الفقه، ما بقي منها وما اندثر، وآراء فقهاء الأمصار.

وإذا فرغ من الرواة والنقل يبدأ النقد والتعليق على ما روى ونقل بقوله : «قال أبو عمر»، ثم يأخذ في مناقشته الآراء التي تخالف رأيه، وينقد الحجج التي

(30) التمهيد - ج4 /94 - الطبعة الأولى - المغرب.

تستند إليها في غزارة دافقة، وبراعة فائقة، ومنطق قويم، تسعفه روايةٌ واسعة، وألمعية ثاقبة، ثم يعرض الرأي الذي يرتضيه، معزّزا بكثير من الآيات والأحاديث، في فهم صحيح، وتأويل سديد.

ولا يفوته عند الحاجة أن يفسر الغريب من مفردات الحديث، وقد يتبع التفسير بشواهد من الشعر في مختلف العصور، حتى يبدو لك أحيانا أن «التمهيد» ديوان شعر، لا كتاب حديث وفقه، وهذا لا يعد من الاستطراد؛ لأن كل ما يأتي به يكون مناسِبا للفكرة الرئيسية وفي محله.

وبالجملة، فإن منهج ابن عبد البر في «التمهيد» يمكن تلخيصه في النقط التالية[31] :

أولا : جعَله على هيئة المسانيد، ورتبه على حروف المعجم **حسب أسماء** شيوخ مالك الذين روى عنهم في الموطأ.

ثانيا : قسّمه إلى أبواب حسب حروف المعجم.

ثالثا : ترجمة الرواة الذين تتصل بهم رواية مالك في الموطأ، ذاكرا بعض أحوالهم، ونُبَذاً من تاريخهم.

رابعا : شرح ما استعجم من الألفاظ.

خامسا : وصل كل مقطوع أو مرسل جاء متصلا أو مسندا من غير رواية مالك.

سادسا : شرح ما **تضمنه موطأ** مالك برواية يحيى بن يحيى المسندة والمقطوعة والمرسلة..[32] الخ.

سابعا : استيفاء معاني الآثار في كل باب، وجلْبُ أقوال العلماء على ذلك، في تأويلها، وناسخها ومنسوخها.

---

(31) مقدمة التمهيد ــ لابن عبد البر، ص : 2،3،4.

(32) مقدمة التمهيد ــ ج1 /9 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

سابعا : **أسلوب التمهيد** :

أما أسلوب التمهيد، فيمتاز بالدقة والرصانة والوضوح، والتفريع والمنهجية العلمية، فهو أسلوب تأليفي واضح، يرسله على سجيته في غير تكلف ولا احتراس، يتردد فيه التكرار هنا وهناك، وقد يطول الفصل بسبب الاعتراض والاستطراد، بين طرفي العبارة، فما يدرك القارىء المسترسل معناها، ولا يتبين وجه التماسك فيها، إلا بالعودة إلى حيث تبدأ ثم مسايرتها إلى الآخر في تفهم وأناة.

وأحيانا يأتي أسلوبه ميالا إلى الأسلوب الأدبي، فيستعمل السرد والحوار القصصي.

ومن العيوب التي تتخلل أسلوبه، أنه يبدأ الشرح اللغوي، ثم يتركه إلى آخر الكلام كما فعل في الحديث الثاني عشر لزيد بن أسلم(33)، وكذلك حذف الفاء في جواب أما، وهو قليل في العربية، كقوله : «وأما قوله تربت يداك وتربتْ يمينك فيه قولان»، ولولا أن هذا الحذف يتردد في مواضع مختلفة لحسبته من تحريف النسخ، وكذلك تعريف اسم العدد بأل مع إضافته إلى المجرد منها، وذلك عند النحاة، كقوله : «الخمسة أقساط».

ثامنا : **قيمة التمهيد** :

أولا : أقوال العلماء فيه :

قال ابن عبد البر نفسه في وصفه :

سمير فؤادي من ثلاثين حجة ... وصاقل ذهني والمفرج عن همي
بسطت لهم فيه كلام نبيهم ... لما في معانيه من الفقه والعلم
وفيه من الآداب ما يَهْوَى به ... إلى البرّ والتقوى وينبيء عن العلم

(33) التمهيد ــ ج4 /24 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.
(34) المدارك ــ ج4 /809 ــ ط. بيروت.

وقد وصفه الإمام الحافظ أبو محمد بن حزم، فقال : «إنه كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله فكيف أحسن منه[35]».

وقال فيه القاضي عياض : «التمهيد لما في الموطإ من المعاني والأسانيد وهو عشرون مجلداً، وهو كتاب لم يضع أحد مثله[36]» وقال فيه ابن فرحون : «وهو كتاب لم يتقدمه أحد إلى مثله[37]».

وقال مثل ابن فرحون ابنُ خِلكان : «وهو كتاب لم يتقدمه أحد إلى مثله وهو سبعون جزءا».

وقال فيه مؤرخ الاسلام الامام الحافظ الحجة شمس الدين الذهبي : «قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان أحد المجتهدين : «ما رأيت في كتب الاسلام من العلم مثل «المحلى» لابن حزم، وكتاب «المغني» للشيخ موفق الدين. قلت لقد صدق الشيخ عز الدين، وثالثهما «السنن الكبير للبيهقي»، ورابعها (كذا) «التمهيد» لابن عبد البر، فمن حصل على هذه الدواوين، وكان من أذكياء المُفْتين وأدْمَنَ المطالعة فيهم (كذا) فهو العالم حقا»[38].

وقال فيه بعض الشعراء متوريا به :

من اغتدى موطأ أكنافه صح له التمهيد في أحواله[39]

وقال فيه آخر :

قل للموطأ للورى أكنافه بشراه بالتمهيد في الأحوال

وقيل فيه أيضا :

---

(35) نفح الطيب — ج 3 /169 — 170، تحقيق د. احسان عباس — توزيع دار الفكر بيروت.

(36) المدارك — ج4 /808 — طبعة بيروت.

(37) الديباج المذهب — ص 357—358.

(38) وفيات الأعيان — ج 7 /67، تحقيق د. احسان عباس.

(39) جزء خاص بترجمة ابن حزم — ص : 31—32، لسعيد الافغاني، مقتبس من سير النبلاء — للذهبي — دار الفكر — بيروت سنة 1389 — 1969.

قل للذي طلب الحديث مسافرا في البحر يبغي الكتب بعد البَرِ
فعليك كتبا في الحديث أفادها بالغرب حافظه ابن عبد البر

فمما سبق، ندرك منزلة «التمهيد»، وقيمته لدى العلماء، وأنه يعد من المصادر العلمية المفيدة، ومن الأمهات المهمة في الفقه والحديث.

ثانيا : **قيمته العلمية** :

إنه دائرة المعارف الكبرى في الحديث والفقه والتراجم، والجرح والتعديل، ومصطلح الحديث، واللغة والشعر، فهو في الفقه جامع المذاهب الأربعة عشر أو الثلاثة عشر(40)، أو قل: جمعَ المذاهبَ منذ عصر الصحابة.

وفي الحديث مسنَدَ عامٌ وشامل لا يقف عند كتب الحديث الستة أو العشرة، فهو ديوان وسِجِل جمع فيه من المصنفات والمسانيد، وكتب الأجزاء العتيقة منها والحديثة في عصره.

وفي الجرح والتعديل، والتاريخ والسير، وتاريخ الرواة وأحوالهم، تكاد تقطع أن الرجل قرأ كل ما كتب في هذا الميدان في الشرق والغرب.

وفي مصطلح الحديث لا يكتفي بالقاعدة المجردة، بل يصحبها بتطبيق عملي، يجعلك تدرك مواطن الداء في الأسانيد العليلة، والأحاديث السقيمة، وكم من أسانيد ردها وأحاديث أعَلها أغفلها الأئمة.

وهو في هذا وذاك، يعطي مما عنده، فيختار ويرجح وينقد ويصحح، ويرمي الزائف عرض الحائط(41)، ثم إن هناك روايات انفرد بها، وأحاديث أسندها بطرقه الخاصة، يجوز أن نسميها : (مسند ابن عبد البر)، وثمة آراء واختيارات في الفقه والتشريع يصح أن ندعوها فقه ابن عبد البر، أو مذهبه في الفقه(42).

---

(40) مجلة «دعوة الحق» ــ عدد : 10 سنة 16 صفر 1395، مارس 1975.
(41) مجلة «دعوة الحق» ــ عدد : 10 صفر 1395، ماي 1975.
(42) نفس المصدر السابق.

وفي اللغة قاموس تجد فيه من الشروح والمفردات والتراكيب ما لا تجده في كثير من القوامس، بجانب هذا يتضمن مختارات من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، ونتفا من الشعر منثورة هنا وهناك.

وبالجملة، فهو الموسوعة الكبرى في فقه السنة، أو في الفقه المقارن، وهي ة لا يكاد يشاركه فيها أي كتاب سواه، وهو خير رسول في سبيل البعث الاسلامي، وإشعاع روح الاسلام بين المسلمين عموما، والمثقفين بوجه خاص.

ويرحم الله السلطان المولى عبد الحفيظ، الذي كان يقول لما أعوزته الوسائل لنشره : لو قدّر لهذا الكتاب أن يرى النور لأغنى الناس عن سائر كتب المذهب.

الفصل الرابع

دراسة تحليلية لكتاب : «جامع بيان العلم وفضله»

خصصت فصلا كاملا لهذا الكتاب، وذلك نظرا لأهميته العلمية والتاريخية، بعد كتاب التمهيد، حيث احتوى على عُصارة فلسفة ابن عبد البر في العلم والحياة، وآرائه في الدين والفقه، وعبقريته وأصالته الفكرية، كما أنه جمع بين دفتيه كثيرا من شيوخه، وعددا من مصادر علمه.

ودراستي لهذا الكتاب سيتركز على وصفه وأقسامه ومنهجه وقيمته، وقبل ذلك سأشير إلى أسباب تأليفه ودوافعه.

أولا : أسباب تأليفه :

لم أعثر على زمن ومكان تأليفه، خاصة وأنه يشير فيه تارة إلى كتابه «التمهيد»، وتارة أخرى يشير إليه في «التمهيد»، ولهذا فلا يمكن أن يقطع بزمن ومكان تأليفه(أ).

أما الأسباب التي دفعته إلى تأليفه، فقد ذكرها ابن عبد البر في مقدمته حيث قال : «أما بعد، فإنك سألتني – رحمك الله – عن معنى العلم وفضل طلبه، وحمْدِ السعي فيه والعناية به، وعن تثبيت الحجاج بالعلم، وتبيين فساد القول في دين الله بغير فهم، وتحريم الحُكْم بغير حجة، وما الذي أجيز من الاحتجاج والجدل، وما الذي كره منه، ورغبت أن أقدم لك قبل هذا من آداب التعلم، وما

(أ) ويحتمل أن يكون قد ألفه بعد كتاب «التمهيد» او معه، كما ورد في «جامع بيان العلم وفضله» – ج 1 /3 – دار الفكر بيروت.

يلزم العالمَ والمتعلمَ التخلقُ به، والمواظبةُ عليه، وكيف وجه الطلب، وما حمد ومدح فيه من الاجتهاد والنَّصَب إلى سائر أنواع آداب التعلم والتعليم، وفضل ذلك وتلخيصه باباً باباً، مما رُوِيَ عن سلف هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين لِتتَّبِعَ هديهم، وتسلكَ سبيلهم، وتعرف ما اعتمدوا عليه من ذلك مجتمعين أو مختلفين في المعنى منه، فأجبتك إلى ما رغبت، وسارعت فيما طلبت رجاءَ عِظَم الثواب، وطمعا في الزلفَى يوم المآب، ولما أخذه الله عز وجل على المسؤول العالم بما سئل عنه من بيان ما طُلِب منه، وترك الكتمان لما علمه، قال الله عز وجل : (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)(1).

فمن هذا النص يمكن أن نستخلص الأسباب التي دفعته إلى تأليف هذا الكتاب، وهي :

1 – سؤال السائل أن يبين له معنى العلم وفضل طلبه، وفضل العمل من أجله، والاهتمام به.

2 – رغبته في الحصول على عظيم الثواب، والتقرب إلى الله عز وجل يوم المآب.

3 – المسؤولية التي يتحملها العالم أمام الله عن كتمان ما علمه.

ثانيا : **موضوعه** :

وموضوع هذا الكتاب مجموع محاضرات، ومواضيع مختلفة في العلم والتربية، والآداب الشرعية، والأخلاق الحميدة التي يجب أن يتحلى بها العالم والمتعلم، وفي شروط الاجتهاد والفتيا والتقليد، والمناظرة والأصول، إذ جمع فيه حديث رسول الله – ﷺ – على أبواب الفقه بإسناده، مزيجا بارائه، وفلسفته، ولعله أراد أن يتخذ منه مُسنَدا خاصا به.

(1) مقدمة جامع بيان العلم وفضله – ج1 /3 – دار الفكر – بيروت.

فهو كشكول من المسائل المختلفة التي كانت تشغل بال العلماء في عصر ابن عبد البر، والتي كان يثار حولها الجدال من عقائد وأصول واجتهاد وتقليد.

وقد سجل كل ذلك متحسرا وناقدا للحالة التي آل إليها علماء عصره من التقليد، والإكثار من الحديث دون فهمه.

ولعل «جامع بيان العلم وفضله»، هو حصيلة الدروس التي كان يتلقاها ابن عبد البر عن شيوخه في مجالسهم العلمية.

ثالثا : **وصف الكتاب** :

«جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله»، هو ستة أجزاء(2)، أو سِفْران(3)، وقد طُبع مرتين : الأولى مجردا من الإسناد باسم : «مختصر جامع بيان العلم وفضله» في جزء واحد(4)، والثانية في جزأين بالمطبعة المنيرية سنة 1346 هـ بالقاهرة.

وفي الأخير نشر من قبل دار الفكر بيروت في طبعة مصورة، وفي جزأين.

وكل جزء اشتمل على عدة أبواب، وبإيجاز مفرط، سأحاول التحدث عن بعض ما احتواه هذا المؤَلَّف النافع مستعينا بشذور منه، ليرى القارىء الكريم مدى الجهد الذي بذله فيه ابن عبد البر.

فالجزء الأول مقسّم إلى تسع وثلاثين بابا تحت هذه العناوين :

1 – طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم.

2 – تفْريع أبواب فضل العلم.

(2) الجذوة – ص 345 – ط. القاهرة، والبغية ص 475، ط. مجريط.

(3) التمهيد – ج1 /2 – ط. الاولى – المغرب.

(4) اختصره أحمد بن عمر المصاني البيروتي الازهري سنة 1320 هـ.

3 – ينقطع عمل المرء بعد موته إلا من ثلاث.

4 – الدال على الخير كفاعله.

5 ــ لا حسَدَ إلَّا في اثنين.

6 ــ الناس معادن.

7 ــ من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين.

8 ــ تفضيل العِلم على العبادة.

9 ــ العالم والمتعلم شريكان.

10 ــ تفضيل العلماء على الشهداء.

11 ــ في فضل العلم.

12 ــ ذكر حديث أبي الدرداء في ذلك، وما كان في مثل معناه.

13 ــ دعاء رسول الله (ص) لمستمع العلم وحافظه ومُبلِّغه.

14 ــ قوله ﷺ من حفظ على أمتي أربعين حديثاً.

15 ــ جامعٌ في فضل العلم.

16 ــ ذكر كراهية كتابة العلم وتخليده في الصحف.

17 ــ ذكر الرخصة في كتاب العلم.

18 ــ معارضة الكتاب.

19 ــ الأمر بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث وتتبع معانيه.

20 ــ في فضل التعلم في الصِغر والحض عليه.

21 ــ حمد السؤال، والإلحاح في طلب العلم، وذم ما منع منه.

22 ــ ذكر الرحلة في طلب العلم.

23 ــ الحض على استدامة الطلب، والصبر على النصب.

24 ــ جامع في الحال التي تنال بها العلم.

25 ــ كيفية الرتبة في أخذ العلم.

26 ــ ما روي عن لقمان الحكيم من وصية ابنه وحضه اياه على مجالسة العلماء والحرص على العلم.

27 ــ آفة العلم، وغائلته وإضاعته، وكراهية وضعه عند من ليس بأهله.

28 ــ في هيبة المتعلم للعالم.

29 ــ في ابتداء العالم جلساءه بالفائدة، وقوله سلوني،وحرصهم على أن يؤخذ ما عندهم.

30 ــ منازل العلم.

31 ــ طرح العالم المسألة على المتعلم.

32 ــ فتوى الصغير بين يدي الكبير باذنه.

33 ــ جامع لنشر العلم.

34 ــ جامع في آداب العالم والمتعلم.

35 ــ ما روي في قبض العلم وذهاب العلماء.

36 ــ حال العلم اذا كان عند الفساق والأرذال.

37 ــ ذكر استعاذة رسول الله ــ ﷺ ــ من علم لا ينفع، وسؤاله العلم النافع.

38 ــ ذم العالم على مداخلة السلطان الظالم.

39 ــ ذم الفاجر من العلماء ، وذم طالب العلم للمباهاة والدنيا.

والجزء الثاني تحت عنوان «كتاب جامع بيان العلم وفضله»، اندرجت تحته هذه الأبواب.

1 ــ ما جاء في مساءلة الله عز وجل العلماء يوم القيامة عما عملوا فيما عَلِموا.

2 ــ جامع القول في العمل بالعلم.

3 ــ الخبرُ عن العِلم أنه يقـود الى الله عز وجل على كل حال.

4 ــ معرفة أصول العلم وحقيقته، وما الذي يقع عليه اسم الفقه والعلم مطلقا.

5 ــ العبارة عن حدود علم الديانات، وسائر العلوم المنتحلات عند جميع أهل المقالات.

6 ــ مختصر عن مطالعة كتب أهل الكتاب، والرواية عنهم.

7 ــ من يستحق أن يسَمّى فقيها أو عالما حقيقة لا مجازا، ومن يجوز له الفتيا عند العلماء.

8 ــ ما يلزم العالم اذا سئل عما لا يدريه من وجوه العلم.

9 ــ اجتهاد الرأي على الأصول عند عدم النصوص في حين نزول النازلة.

10 ــ نكتة يستدل بها على استعمال عموم الخطاب في السُّنَن والكتاب، وعلى إباحة ترك ظاهر العموم للاعتبار بالأصول.

11 ــ مختصر في إثبات المقايسة في الفقه.

12 ــ في خطأ المجتهدين من المفتين والحكام.

13 ــ نفي الالتباس في الفرق بين الدليل والقياس، وذكر من ذَمّ القياس على غير أصل.

14 ــ جامع بيان ما يلزم الناظر في اختلاف العلماء.

15 ــ ذكر الدليل في أقاويل السلف على أن الاختلاف خطأ وصواب.

16 ــ ما يكره فيه المناظرة والجدال والمِراء.

17 ــ إثبات المناظرة والمجادلة، واقامة الحجة.

18 ــ فساد التقليد ونفيه، والفرق بين التقليد والاتباع.

19 ــ ذكر من ذم الاكثار من الحديث دون التفهم له والتفقه فيه.

20 ــ ما جاء في ذم القول في دين الله بالرأي والظن والقياس على غير أصل وعيب الاكثار من المسائل دون الاعتبار.

21 ــ حكم قول العلماء بعضهم في بعض.

22 ــ تدافع الفتوى، وذم من سارع اليها.

23 ــ رتب الطلب والنصيحة في المذهب.

24 ــ في العرض على العالم، وقول أخبرنا وحدثنا، واختلافهم في ذلك، وفي الاجازة والمناولة.

25 ــ الحض على لزوم السنة والاقتصار عليها.

26 ــ موضع السنة من الكتاب وبيانها له.

27 ــ فيمَنْ تأول القرآن أو تدبره وهو جاهل بالسُنة.

28 ــ فضل السنة ومباينتها لسائر أقاويل علماء الأمة.

29 ــ ذكر بعض من كان لا يحدث عن رسول الله الا وهو على وضوء.

30 ــ إنكار أهل العلم ما يجدونه من الأهواء والبدع.

31 ــ فضل النظر في الكتب وحمد العناية بالدفاتر.

ومن مقارنة أبواب الجزء الأول بأبواب الجزء الثاني، نرى أن عناوينها عبارة عن ألفاظ الحديث في الغالب، وأنها أطول من عناوين أبواب الجزء الثاني، مثل : «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، و «ينقطع عمل المرء بعد موته إلا من ثلاث»، و «الدال على الخير كفاعله»، بينما عناوين الجزء الثاني يندر فيها ألفاظ الحديث، هذا وأن فلسفة ابن عبد البر، ومذهبه الفقهي والعقائدي، يبدو جليا في الجزء الثاني، الذي تناول فيه عدة مسائل تتصل بالاجتهاد والتقليد، والأصول وأهل البدع، وبعض الأفكار التي تتصل بالجدال والمناظرة.

رابعاً : **منهج الكتاب** :

أما منهجه في عرض أفكاره ومناقشتها، فهو منهج المحدّثين والمؤرخين، الذي يعتمد على النقل والرواية المتسلسلة، وهو يقترب كثيرا من طريقته في الكتب الأخرى، كالاستيعاب والانتقاء، وغيرهما؛ إذ يعقد الباب بحديث أو بمسألة فقهية أو أصولية أو في الآداب الشرعية، أو في التربية والتعليم، أو غيرهما كما سبق في وصف الكتاب، ثم يجلب حولها ما اختصره من آيات قرآنية أو أحاديث رسول الله ـــ ﷺ ـــ ومن أقوال الصحابة، أو التابعين، ثم الأئمة والعلماء، وإذا كان هناك أشعار نظمت في الموضوع، أتى بها، وكذلك ما قيل فيه نثرا، وذلك كله عن طريق المسند المتصل، والرواية المتسلسلة عن أساتذته إلى أن يصل إلى النبي ﷺ مثلا يقول بعد عرض عنوان الباب : «قرأت على أبي عثمان سعيد بن نصر حدثهم قاسم بن أصبغ واسماعيل بن اسحاق القاضي، قال: حدثنا عارم بن الفضل قال حدثنا الصعق بن حزن عن علي بن حكيم عن المنهال بن عمرو عن زر بن حبيس قال : «جاء رجل من مراد يقال له صفوان بن عسال الى رسول الله ﷺ وهو في المسجد متكىء على بُرْدٍ له أحمَرَ، قال : فقلت : يا رسول الله إني جئت أطلب العلم، فقال مرحبا بطالب العلم[5]...الخ.

(5) جامع بيان العلم وفضله ـــ ج1 /38 ـــ دار الفكر ـــ بيروت.

وهو أثناء جلب الأحاديث والآثار لا يتدخل إلا نادراً، وخاصة في الجزء الأول، وذلك عند ما يريد أن يصحح المتن أو السند، فيقول : «قال أبو عمر : لم يحدث أحد بهذا الحديث بهذا الإسناد غير ابن وهيب، رواه عنه يونس بن عبد الأعلى، فجعله عن ابن عمر عن النبي ﷺ (6)»، أو ينبه على أن هذه المسألة ذكرها في «التمهيد»، فيقول مثلا : «قد ذكرنا قول من قال شهود الجماعة فرض فتعين، ومن قال ذلك فرض على الكفاية، ومن قال ذلك سنة مسنونة في كتاب «التمهيد»»(7).

وأحيانا يتدخل بكل ثقله، وخاصة اذا كانت المسألة خلافية، ولا نص فيها من الكتاب والسنة، فيصول ويجول، وياخذ ويعطي، ويوافق ويخالف، وأحيانا لا يدلي بأية ملاحظة أو فكرة، فهو لا يعدو أن يكون ناقلا وساردا لما وجده في الكتب، أو رواه عن شيوخه.

وهذه بعض النماذج منه للاستدلال والاستشهاد على منهجيته.

النموذج الأول : «باب جامع بيان ما يلزم الناظر في اختلاف العلماء»، وهو نموذج لملاحظاته وتدخلاته :

«قال أبو عمر : اختلف الفقهاء في هذا الباب على قولين، أحدهما أن اختلاف العلماء في الصحابة ومن بعدهم من الأئمة (رحمه الله) رحمة واسعة، وجائز لمن نظر في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ أن يأخذ بقول من شاء منهم، وكذلك الناظر في أقاويل غيرهم من الأئمة ما لم يعلم أنه خطأ، فاذا بان له أنه خطأ لخلافه نص الكتاب أو نص السنة، أو اجماع العلماء لم يسعه اتباعه، فاذا لم يتبين له ذلك من هذه الوجوه، جاز له استعمال قوله، وان لم يعلم صوابه من خطئه، وصار في حيز العامة التي يجوز لها أن تقلد العالم اذا سألته عن شيء، وإن لم تعلم وجهه،هذا قول يروى معناه عن عمر بن عبد العزيز، والقاسم بن محمد،

(6) الجزء الأول ــ ص : 23 ــ دار الفكر بيروت.

(7) الجزء الأول ــ ص : 15 ــ دار الفكر ــ بيروت.

وعن سفيان الثوري إن صح، وقال به قوم. ومن حجتهم على ذلك قوله ﷺ : «أصحابي كالنجوم فبأي أحدهم اقتديتم اهتديتم»، وهذا مذهب ضعيف عند جماعة من أهل العلم، وقد رفضه أكثر الفقهاء وأهل النظر، ونحن نبين الحجة عليه في هذا الباب ــ إن شاء الله ــ على ما شرطناه من التقريب والاختصار، ولا قوة إلا بالله، على أن جماعة من أهل الحديث، متقدمين ومتأخرين، يميلون اليه ــ وبعد ذكر سبعة عشر بيتا من نظم أبي مزاحم في هذا الموضوع، قال : وقال أبو عمر : قد يحتمل قوله «فآخذ من مقالهم اختياري» وجهين : أحدهما أن يكون مذهبه في ذلك كمذهب القاسم بن محمد ومن تابعه من العلماء وأن الاختلاف سعة ورحمة، والوجه الآخر أن يكون أراد «أخذ من مقالهم اختياري وأن أصير من أقاويلهم الى ما قام عليه الدليل، فاذا بان لي صحته اخترته، وهذا أولى من أن يضاف الى أحد الأخذ بما أراده في دين الله بغير برهان، ونحن نبين هذا إن شاء الله. حدثنا عبد الوارث بن سفيان قال حدثنا قاسم بن أصبغ قال حدثنا أحمد بن زهير قال حدثنا الوليد بن شجاع وحدثنا عبد الرحمن بن يحيى قال حدثنا علي بن محمد، قال حدثنا أحمد بن داود، قال حدثنا سحنون ابن سعيد قالا حدثنا عبد الله بن وهب قال أخبرني أفلح بن حميد عن القاسم بن محمد بن أبي بكر قال : إلى آخر الباب[8]».

النموذج الثاني : (باب معارضة الكتاب) وهو نموذج ينعدم فيه تدخله حيث لم يُبْدِ أية ملاحظة :

«أخبرنا عبد الوارث قال حدثنا قاسم قال : حدثنا أحمد بن زهير قال : حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي قال : حدثنا اسماعيل بن عياض بن هشام ابن عروة أن أباه قال له كتبت ؟ قال نعم. قال : قال : عارضت ؟ قال : لا، قال : لم تكتب.

وأخبرنا أحمد بن قاسم قال : حدثنا محمد بن معاوية قال : حدثنا أحمد ابن الحمين الصوفي قال : حدثنا الهيثم بن خارجة قال : حدثنا اسماعيل بن عياض عن هشام بن عروة قال : قال لي أبي : يا بني كتبت ؟ قلت : نعم، قال : عارضت ؟ قلت لا، قال : لم كتبت.

(8) الجزء الثاني ــ ص 96 ــ دار الفكر ــ بيروت.

وأخبرنا عبد الرحمن بن سعيد قال حدثنا عبد الملك بن بحر، قال حدثنا محمد بن اسماعيل الصائغ، قال حدثنا عضان، قال حدثنا أبان العطار عن يحيى ابن أبي كثير، قال : الذي يكتب ولا يعارض مثل الذي يدخل الخلاء ولا يستنجي. وأخبرنا عن الوارث قال حدثنا قاسم، قال حدثنا أحمد بن زهير، قال حدثنا الحوطي، وحدثنا أحمد بن سعيد بن بشر، قال حدثنا محمد بن أبي دليم، قال حدثنا ابن وضاح، قال حدثنا سليمان بن سليم الحمصي قال، حدثنا بقية عن الأوزاعي، قال : مثل الذي يكتب ولا يعارض مثل الذي يدخل الخلاء ولا يستنجي.

وذكر الحسن الحلواني في كتاب المعرفة، قال : سمعت عبد الرزاق يقول : سمعت معمرا يقول : لو عارض الكتاب مائة مرة ما كاد يسلم من أن يكون فيه سقط أو قال خطأ[9].

وبالجملة، أن منهج ابن عبد البر في «جامع البيان وفضله»، لا يختلف عنه في مؤلفاته الأخرى، الا قليلا، فهو يعقد الباب الذي غالباً ما تكون عبارة عن حكم أو فضيلة يتعلق بالعلم والعالم والمتعلم كما في الجزء الأول، أو يتعلق بالأفكار التي كانت يثار حولها الجدال والخلاف، كالاجتهاد والتقليد، ثم يستدل على ذلك بما ورد في الموضوع، من القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين، والعلماء والفقهاء، وأشعار الشعراء، وكلام اللغويين، وأحيانا ينَّظِم بعض القطع الشعرية من عنده لتضمن تلك المعنى[10]، كما فعل في تلخيص «لا يستطاع العلم براحة الجسم» فقال :

يا من يرى جمْعَ المال والكتُب خدعت ـ والله ـ ليس الجِد كاللعب

خامسا : **أسلوبه** :

أما أسلوب كتاب «جامع بيان العلم وفضله»، فهو أسلوب مزدوج من أسلوب أهل الحديث، والذي يسوده ألفاظ النقل والرواية، مثل : أخبرنا، قرأت،

(9) جامع بيان العلم وفضله ــ ج1 /93 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(10) في الجزء الأول ــ ص : 110.

رأيت، سمعت، حدثنا، وجدت، ومن أسلوب أهل المنطق، الذي يتسم بالتفريع، والترتيب، والمصطلحات المنطقية.

وهذا الازدواج في الأسلوب، قد أتاه من ازدواجية موضوعات الكتاب، فهو في بعضها محدث، يسند الأقوال والأفكار الى أصحابها، دون تعليق أو مناقشة، وهنا قلما تبرز شخصيته؛ اذ لا يعدو أن يكون ناقلا ومنسّقا، اللهم إلا اذا رأى ذلك مخالفا للمنطق أو للواقع التاريخي، فحينئذ يتدخل فيصحح الأشياء، ويردها الى حقيقتها، كقوله : «قرأت على عبد الوارث بن سفيان أن قاسم بن أصبغ حدثهم، قال أخبرنا بكر بن حماد قال : أخبرنا مسدد قال : أخبرنا عبد الوارث عن علي بن الحكيم عن رجل عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : من سئل عن علم علمه فكتمه، جاء يوم القيامة عليه لجام من نار». قال أبو عمر : الرجل الذي يرويه عن عطاء يقولون إنه الحجام بن أرطاة أيضاً. مشهور بالتدليس عندهم(11)، ومثل هذا كثير، فابن عبد البر لم يزد على أن وضح اسم الرجل الذي وقع في السند، ثم تجريحه.

أما في الحقائق العلمية والعقلية، والمسائل التي لا نص فيها من الكتاب والسنة والآثار، فتبدو شخصيته واضحة وقوية في أسلوبه، فيحاور ويجادل، ويستدل بما لديه من الدلائل العقلية والنقلية.

وهنا يجنح الى الأسلوب العلمي والمنطقي، الذي يتسم بالدقة والوضوح، والمنهجية والاستقراء، بجزئيات الموضوع، وذلك كما في تعريفه لحقيقة العلم، حيث قال :

«حَدُّ العلم عند العلماء المتكلمين في هذا المعنى، هو ما استيقنته وتبينته، وكل من استيقن شيئا وتبينه، فقد علمه، وعلى هذا لم يستيقن الشيء وقال به تقليدا، فلم يعلمه، والتقليد عند جماعة العلماء غير الاتِّباع؛ لأن الاتباع هو أن تتبع القائل على ما بان لك من فضل قوله، وصحة مذهبه، والتقليد أن تقول بقوله

(11) جامع بيان العلم وفضله ــ ج1 /4 دار الفكر ــ بيروت.

وأنت لا تعرفه ولا وجه القول ولا معناه وتأبى من سواه، أو أن يتبين لك خطؤه فتتبعه مهابة خلافه، وأنت قد بان لك فساد قوله، وهذا محرم القول به في دين الله سبحانه[12]».

ففي هذا النص، يتضح أسلوبه العلمي، وطبيعته جليا، فهو دقيق، وواضح، وسهل الفهم، وأنه يتدرج من الجزء الى الكل، ومن المجهول الى المعلوم، فليس فيه غموض، ولا تعقيد، ولا غرابة، فعبارته وفقراته، تعطي معناها واضحا ومحددا، يفهمها كل من له أدنى المام باللغة العربية، والإدراك العلمي، فهو أسلوب رصين، ومتين، وجزل، يخدم المعنى قبل المبنى.

لكن في تناوله للحديث والرواية، يغلب على أسلوبه مصطلح الحديث وعلومه كما سبق، أما في تناوله الحِكَم والأمثال والشِعر، فتغلب على أسلوبه الكلمات والعبارات المهذبة والمسجوعة بالسجع الغير المتكلف، كقوله :

«قال أبو عمر : ولقد أحسن القائل[13]، و «الحمد لله المبتدىء بالنعم، بارىء النَسَم، ومُنْشِر الرحم، ورازق الأمم، الذي علمنا ما لم نكن نعلم[14].

أما في المواضيع العلمية والعقلية، فقد طبع أسلوبه بالطابع المنطقي، حيث يغلب عليه ترتيب الأفكار في الزمن والمكان، واستعمال المصطلحات المنطقية، مثل الحكماء، الحكيم، الحكمة، حدود العلم، والمتكلمين، النظري، الضروري، الاستدلال، الدلالة، وتفريعاتهم مثل : «والعلوم تنقسم الى قسمين : ضروري ومُكتسَب، فحد الضروري ما لا يمكنُ العالِمَ أن يشك فيه نفسه، ولا يدخل فيه على نفسه شبهة، ويقع له العلم بذلك قبل الفكر والنظر، ويدرك ذلك من جهة الحس والعقل، كالعلم باستحالة كون شيء متحركا ساكنا، أو قائماً قاعدا، أو مريضا صحيحا في حال واحدة.

(12) جامع بيان العلم وفضله ــ ج2 /45 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(13) كتاب جامع بيان العلم وفضله ــ ج2 /45 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(14) كتاب جامع بيان العلم وفضله ــ ج1 /3 ــ دار الفكر ــ بيروت.

ومن الضروري أيضا علم الناس أن في الدنيا مكة والهند ومصر والصين، وبلدانا عرفوها وأمما خلت.

أما العلم المكتسَب، فهو ما كان طريقه الاستدلال والنظر، ومنه الخفي والجلي، فما قرب من العلوم الضرورية كان أجلى، وما بَعُدَ مِنا كان أخفى.

والمعلومات على ضربين : شاهدٍ وغائب، فالشاهد ما عُلِم ضرورة، والغائب ما عُلِمَ بدلالة من الشاهد.

والعلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة : علم أعلى، وعلم أسفل، وعلم أوسط، فالعلم الأعلى عندهم علم الدين الذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزله الله[15].

سادسا : **قيمة الكتاب** :

إن «كتاب جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله» قيمة علمية وتاريخية وأدبية.

فقيمته العلمية، تتجلى بكل وضوح في المواضيع العلمية التي طرقها فيه ــ والتي كانت على ما يبدو من مشاكل الساعة ــ اذ تعرض فيه لأصول العلم وحقيقته، وما الذي يقع عليه اسم الفقه والعلم مطلقا[16]، ومنهج التدريس، الذي يتجلى في فضل التعلم في الصغر والحض عليه[17]، وفي حمد السؤال والالحاح في طلب العلم[18] والحض على استقامة الطلب والصبر على الأواء والنصب[19]، والرحلة في طلب العلم[20]، وكيفية الرتبة في أخذ العلم[21]، وفي مجالسة العلماء،

(15) جامع بيان العلم وفضله ــ ج2 /45، 46، 47 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(16) جامع بيان العلم وفضله ــ ج2 /29 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(17) جامع بيان العلم وفضله ــ ج1 /98 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(18) جامع بيان العلم وفضله ــ ج1 /105 ــ دار الفكر بيروت.
(19) نفس المصدر السابق ــ ج1 /114.
(20) نفس المصدر السابق ــ ج1 /111.
(21) نفس المصدر السابق ــ ج1 /125.

والحرص على العلم[22]، وفي هيبة المتعلم للعالم[23]، وفي ابتداء العالم جلساءه بالفائدة، وقوله سلوني، وحرصهم على أن يأخذ ما عتدهم[24]، وفي طرح العالم المسألة على المتعلم[25]، وغير ذلك مما يتعلق بالتدريس.

كما تتجلى قيمته العلمية أكثر وضوحا في الكلام على الاجتهاد والتقليد، والفرق بينه وبين الاتّباع[26]، وفي علوم الحديث، حيث قسم السنة الى قسمين : متواتر يجب العمل به قطعا، ويُكفّرُ جاحدُه، وخبر آحاد، وفي معرفة أصول العلم وحقيقته[27]، وفي حدود علم الديانات، وسائر العلوم المنتحلات، وفي الكلام على النجوم، ودرجات العلم، وفي الموسيقى[28].

أما قيمته التاريخية، فتكمن في تسجيله لبعض المظاهر الاجتماعية والاقتصادية، ومنها أنه أشار الى أن العلماء كانوا يتصلون بذوي السلطان والحكم[29]، وأنهم كانوا يتهافتون على الدنيا، وأن كثيرا منهم كانوا يجمعون الأحاديث دون فهمها، والتدبر في معانيها، للمباهاة[30].

وأفضل مثال على قيمته التاريخية، كلامه على التقليد، وفساد ذلك[31]، واختلاف العلماء في علة الربا، واختلاف العلماء في الفروع، واعتقادات السلف في الصفات[32]. والتحذير من مخالطة أهل[33] البدع، وهذا يدل أن الخلافات

---

(22) نفس المصدر السابق — ج1 /128.
(23) نفس المصدر السابق — ج1 /135.
(24) نفس المصدر السابق — ج1 /136.
(25) نفس المصدر السابق — ج1 /144.
(26) الجزء الثاني — ص 133 — دار الفكر بيروت.
(27) الجزء الثاني — ص 29 — 30 دار الفكر — بيروت.
(28) الجزء الثاني — ص 47،48،49 — دار الفكر — بيروت.
(29) جامع بيان العلم وفضله — ج1 /198 — دار الفكر — بيروت.
(30) جامع بيان العلم وفضله — ج1 /229 — دار الفكر — بيروت.
(31) جامع بيان العلم وفضله — ج1 /133 — دار الفكر — بيروت.
(32) جامع بيان العلم وفضله — ج1 /113 — دار الفكر — بيروت.
(33) نفس المصدر السابق.

العقائدية في هذا الوقت كانت قد وصلت الى الأندلس، وعلى كل حال، فالكتاب أعطانا صورة واضحة عن المواضيع العلمية التي كان يدور حولها الجدل في هذا العصر، وأن علماء الأندلس كانت بينهم مناظرات ومناقشات حول تلك المواضيع، وأن منهم من كان وصل الى درجة الاجتهاد، ومنهم من كان متطفلا، أو مقلدا تقليدا أعمى لأقوال أئمة المذاهب، وأقوال الفقهاء، كما أن الكتاب سجل لنا ظاهرة تاريخية مهمة، هي دخول الأفكار الاعتزالية والشيعية الى الأندلس.

بالاضافة إلى هذا، أنه تضمن عدة أسماء الكتب والمراجع التي كان ابن عبد البر يستقي منها، كما احتفظ لنا بعدة أسماء الشيوخ والعلماء الذين درس عليهم ابن عبد البر، كأبي القاسم خلف بن القاسم، وخلف بن جعفر، ويعيش ابن سعيد، وعبد الوارث بن سفيان، وغيرهم كثير.

أما قيمته الأدبية، فتتجلى في أسلوبه، وفي كمية هائلة من الحكم والأمثال والأشعار، التي توجد منثورة هنا وهناك من الكتاب. فهو من الناحية الأدبية عبارة عن ديوان، ضم بين دفتيه عدة مقاطع شعرية وقصائد مختلفة. فمن ذلك ما ورد في العلم :

1 – كقول عمرو بن بحر الحافظ بن جناح في العلم :

تعلم إذا ما كنت ليس بعالم فما العلم إلا عند أهل التعلم
تعلم فإن العلم زَيْنٌ لأهله ولن تستطيع العلم إن لم تعلم
تعلم فإن العلم أزين بالفتى من الحلة الحسناء عند التكلم
ولا خير فيمن راح ليس بعالم بصير بما يأتي ولا متعلم(34)

2 – وكقول أبي بكر بن دريد في تفضيل العلماء على الشهداء :

أهلا وسهلا بالذين أحبهم وأودهم في الله ذي الآلاءِ
أهلا بقوم صالحين ذوي تُقَى غُرٍّ الوجوه وزَيْنِ كل ملاء

(34) الجزء الاول ص : 36 ــ دار الفكر ــ بيروت.

يسعون في طلب الحديث بعفة وتوقـــر وسكينـــة وحيـــاء
لهم المهابة والجلالة والنهى وفضائل جلت عن الاحصاء
ومداد ما تجري بها أقلامهم أزكى وأفضل من دم الشهداء
يا طالبي علم النبي محمد ما أنتم وسواكم بسواء(35)

3 – وكقول علي بن أبي طالب أيضا في العلم وتفضيل أصحابه :

الناس في جهة التمثيل أكفاء أبوهـــــم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة أعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حَسَبٌ يفاخرون به فالطين والماء

ما الفضل إلا لأهل العلم أنهم على الهدى لمن استهدى أدّلاء
وقدْرُ كل امرىء ما كان يُحْسِنه وللرجال على الأفعال أسماء
وعند كل امرىء ما كان يجهله والجاهلون لأهل العلم أعداء(36)

4 – ولأبي القاسم أحمد بن عمر بن عبد الله بن عصفور :

مع العلم فاسلك حيث ما سلم العلم وعنه مكاشف كل من عنده فهم
ففيه جلاء للقلوب من العمى وعون على الدين الذي أمره حتم

فإني رأيت الجهل يُزْرِي بأهله وذو العلم في الأقوام يرفعه العلم
سيعد كبير القوم وهو صغيرهم وينفذ منه فيهم القول والحكم
وأي رجاء في امرىء شاب رأسُه وأفنَى سِنِيهِ وَهو مستعجم فدم
يروح ويغدو الدهر صاحب بِطنة تركب في أحضانها اللحم والشحم
إذا سئل المسكين عن أمر دينه بدت رحضاء العي في وجهه تسمو
وهل أبصرت عيناك أقبحَ منظر مِن أشيبَ لا علمٌ لديه ولا حِكْمٌ

(35) ج1 /37 — دار الفكر — بيروت.
(36) ج1 /58 — دار الفكر — بيروت.

هي السوءة السوءى فاحذر شماتها ... فأولها خزي وآخرهـــا ذم
فخالط رواة العلم واصحَبْ خيارهم ... فصحبتهم زين وخلطتهم غنْم
ولا تَعْدُوَنْ عيناك عنهم فإنهم ... نجوم إذا ما غاب نجم بدا نجم
فوالله لولا العلم ما اتضح الهدى ... ولا لاح من غيب الأمور لنا رسم(37)

ونكتفي بهذه المقاطع للتدليل على أن «جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله» عبارة عن سجل علمي وتاريخي وأدبي، يشدك إليه عند قراءته، ويجذِبُكَ لما احتوى عليه من تنوع في المواضيع العلمية، والأخبار والنوادر والأمثال، ولما ضمه بين دفتيه من الشعر، فلا تشعر عند قراءته بالسأم والملل؛ لأنه ينقلك، بين الفَيْنة والأخرى، إلى أجنة وبساتين مملوءة بالزهور والورود.

بل إن عبد البر يسميه بالديوان، فقد قال عند تسجيل بعض الأبيات لأبي العتاهية، في ذم العلماء الذين يامرون بالبِر وَينسَوْن أنفسهم، حيث قال :

«وقد ذكرنا الأبيات في باب قول العلماء بعضهم في بعض من هذا الديوان»(38).

ومما يؤكد ما قلناه من أن «جامع بيان العلم وفضله»، عبارة عن ديوان، أنه احتوى على قصائد شعرية، تعدت أبياتها العشرين(39).

وبالجملة، أن كتاب «جامع بيان العلم وفضله»، عظيم الفائدة، لا من الناحية العلمية، كالحديث والأصول والفقه، ولا من الناحية التاريخية والأدبية.

(37) ج1 /59 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(38) ج1 /237 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(39) ج2 /153، 154، 155 ــ دار الفكر ــ بيروت.

الفصل الخامس

عرض وتحليل لكتاب «الانتقاء[1]»

توضيح :

اخترت دراسة هذا الكتاب من بين كتبه العديدة، رغم صغر حجمه، وذلك لكي يتسنى لي دراسة كتبه دراسة مختلفة ومتنوعة. مختلفة من حيث الحجم والشكل، إذ أتيت بكتاب ضخم هو كتاب «التمهيد»، وبكتاب متوسط الحجم وهو : «جامع بيان العلم وفضله»، وبكتاب صغير الحجم وهو هذا. ومتنوعة من حيث الكيف والمادة؛ إذ سُقت كتابا خاصا بالحديث والفقه، وكتابا جامعا لجميع فنون العلم والمعرفة، وأخيرا كتابا تاريخيا، خاصا بالتراجم والسير.

وهكذا أكون قد أعطيت بهذا التنويع صورة واضحة بواسطة هاته الدراسات عن كفاءة ابن عبد البر، ومقدرته في ميدان التأليف، وعلى جميع المستويات.

وسأتعرض في هذا الفصل للكلام على أسباب تأليف كتاب «الانتقاء»، وموضوعه، ومنهجه، وأسلوبه، وقيمته، مثل الكتابين السابقين : «التمهيد»، و«جامع بيان العلم وفضله» مع اختلاف يسير.

أولا : موضوع «الانتقاء» وأقسامه :

كتاب «الانتقاء» هو عبارة عن كتاب تاريخي على طريقة الكتب التاريخية القديمة التي تعتمد على الرواية، والاعتماد على المعلومات التي توجد في بواطن كتب الأخبار والسّير، وموضوعه الأئمة الثلاثة وأصحابهم رحمهم الله، وهم : الإمام

(1) التعريف بهذا الكتاب سبق لدى الكلام على مؤلفاته اجمالا في الفصل الثاني من هذا الباب.

مالك وأصحابه، والشافعي وأصحابه، وأبو حنيفة وأصحابه، وإذا أمعنا التأمل في الكتاب، وجدنا ابن عبد البر قسمه بعد البسملة والتصلية والحمدلة إلى أربعة أقسام : المقدمة، وثلاثة :

– المقدمة : وفيها تعرض للأسباب التي دفعته إلى تأليف كتاب «الانتقاء» منه.

– الجزء الأول : وفيه تكلم عن مالك وأخباره وفضائله، ثم أصحابه الذين أخذوا عنه.

الجزء الثاني : وفيه تكلم عن الشافعي، وترجمته وأخباره وفضائله، وأصحابه.

– الجزء الثالث : وفيه ترجم لأبي حنيفة، وفضائله وأصحابه.

وقد استهله بالبسملة، ثم ثنى بالصلاة على النبي وآله وأصحابه، ثم الحمد لله على رب العالمين، ثم الدعاء لنفسه أن يجعله الله من الأئمة المتقين، وأن يجعله من الفائزين، ويجعل له لسانَ صِدق في الآخِرين.

وبعد هذه الديباجة، انتقل إلى المقدمة التي ضمنها دوافع تأليف هذا الكتاب والهدف منه، كما قال : «إن طائفة ممن عُنِيَ بطلب العلم وحَمْلِه وعَلِمَ بمَا عَلّمهُ الله عَظيمِ بركَتِه وفضْلِه سألوني مجتمعين ومتفرقين أن أذكر لهم من أخبار الأئمة الثلاثة الذين طار ذكرهم في آفاق الاسلام لما انتشر عنهم من علم الحلال والحرام، وهو أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي المدني، وأبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي المكي، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي».

إذَن،السبب في تأليف كتاب «الانتقاء» والدافع إليه، هو طلب طائفة من أهل العلم لمعرفة أخبار الأئمة الثلاثة، نظرا لمكانتهم في الدين، ولشهرتهم في الفقه الاسلامي، والناس عالة عليهم في معرفة الحلال والحرام.

ونرى هنا، أن ابن عبد البر لم يرتب هؤلاء الأئمة الثلاثة ترتيبا زمنيا، بل رتّبَهُم ترتيبا مكانيا، فقدم مالكا المدني، ثم الشافعي المكي، ثم أبا حنيفة الكوفي، وهو في ذلك يرجع إلى أن المدينة أفضل من مكة، ومكة أفضل من الكوفة، لاعتبار في أنفسهم، وإلا لقدم التابعي على تابع التابعين، وتابع التابعين على من تبع التابعين، ومراتبهم في الفقه الاسلامي، مما يستغني به عن التنويه ولذلك كان تقديم بعضهم لنافع على ابن كثير، وابن كثير على ابن عامر، وهكذا إلى تمام القراء السبعة بالنظر إلى أن نافعا مقرىء المدينة، وابن كثير مقرىء مكة، وابن عامر مقرىء الشام، والا فابن عامر أقدم السبعة في الطبقة، ثم ابن كثير، ثم عاصم، ثم أبو عمرو بن العلاء، ثم حمزة، ثم نافع، ثم الكِستائي، كما لا يخفى[2].

واتّباع ابن عبد البر هذا الترتيب المكاني، أي المدينة ومكة والكوفة، يخالف مذهبه في تفضيل مكة على المدينة الذي أشار إليه غير ما مرة، ودافع عنه في الاستذكار والتمهيد.

أما الهدف من كتاب «الانتقاء» فهو تلبية طالبيه وحملة العلم، وذكر أخبار الأئمة الثلاثة وأصحابهم حتى ينتفع بهم وبعلمهم، وحتى يقف القارىء على مكانتهم العلمية، وعلى ما بذلوا من جهد في سبيل الفقه الاسلامي، والشريعة السمحة، ليقتدى بهم في الذّوْد عن العلم والدين.

وهي مقدمة صغيرة جدا في توضيح الهدف من تصنيف هذا الكتاب، والأسباب التي دعت إليه، رغم قصرها.

وبعد هذه المقدمة القصيرة، انتقل إلى الجزء الأول، والأحسن أن نقول القسم الأول، وهو القسم الذي اشتمل على ترجمة وفضائل الإمام مالك وأخباره، ومن ذكر فيه معه من أصحابه رحمهم الله.

---

(2) من تعليق المحقق حسام الدين القدسي.

وقد تعرض في هذا القسم لكل ما يتعلق بالإمام مالك، من أول حياته إلى آخرها، فبدأ بمولده، وختم بوفاته، وهو في سرده للوقائع والأحداث التي تتصل بمالك، يعنون ذلك بالأبواب، وهي عشرون بابا، فيقول : «باب ذكر مولد مالك ونسبه وخلقَه في قريش».

ويفتتح الكلام في كل باب إما بقول قال أبو عمر رضي الله عنه : نذكر هنا مولده وحده، حمل أمه به ونسبه، ثم يعقب ذلك بقوله «أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد قال نا محمد بن عيسى بن رفاعة قال نا يحيى بن أيوب بن بادي العلاف قال سمعت يحيى بن بُكَير يقول : ولد مالك بن أنَس سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، وقال يحيى بن بكير نا عطاف بن خالد قال : ولد مالك بن أنس....».

هكذا عن طريق السند المبني على النقل والرواية التي اعتمدها في مجل كتبه.

وإما أن يستهل كلامه بقوله : «حدثنا عبد الوارث بن سفيان» دون أن يقول قال أبو عمر.

وهو غالبا ما ينقل هنا عن الدولابي في كتابه فضائل مالك، وهو لا يألو جهدا في جلْب الأقوال والآراء التي قيلت في مالك، وفي علمه وفضائله، ويعقد لكل قول بابا فيقول : (باب قول أيوب السختياني وحماد بن زيد فيه رضي الله عنهم أجمعين)، و(باب قول شُعْبة بن الحجام فيه)، و(باب قول المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي فيه)، و(باب قول الشافعي فيه وثنائه عليه)، ووو الخ.. إذ لا يترك أي قول قيل فيه من أي جهة كان.

وبعد انتهائه من أخبار مالك، يُعَرِّجُ على أصحابه، فيقول : (أخبار أصحاب مالك)، وبعد هذا العنوان يأتي بالبسملة، وكأنه بدأ كتابا جديدا ومستقلا عما قبله، حيث يذكر بعد البسملة، كمقدمة صغيرة، جميع أصحابه بصفة إجمالية، ثم يفصلهم واحدا واحدا، فيقول :

قال أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري رضي الله عنه،: سألتم رحمكم الله عن التعريف بابن وهب، وابن القاسم، وأشهب، فخذوا الجواب فيهم ومن حضرني ذكره من نظرائهم من أهل الفقه من أصحاب مالك رحمهم الله أجمعين.

وتعرض في هذا الباب لعشرين من أصحاب مالك، بدأ بعبد الله بن وهب، وختم بيحيى بن يحيى بن بكر بن عبد الرحمن التميمي، ولم يُعَنْوِنْ لهم لا بالباب، ولا بالفصل، وإنما اكتفى بجعل اسمهم عنوانا لهم فيقول : (عبد الله بن وهب) (أخبار ابن القاسم) (أخبار أشهب) (عبد الله بن عبد الحكم) (المغيرة بن شعبة) (محمد بن إبراهيم ابن دينار الجهني) (عبد العزيز بن أبي حازم) (عثمان بن عيسى بن كنانة) (محمد بن مسلمة أبو هشام المخزومي الفقيه المدني) (عبد الله بن نافع الصائغ) (عبد الله بن نافع الزبيري) (عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله ابن أبي سلمة الماجشون) (مطرف بن عبد الله) (يحيى بن يحيى الأندلسي) (علي ابن زياد التونسي) (عبد الله بن غانم الافريقي) (معن بن عيسى) (عبد الله بن مسلمة بن قعنب القعني) (أبو مصعب الزهري) (يحيى بن يحيى بن بكر بن عبد الرحمان التميمي).

والكلام في سرد أخبار هؤلاء يختلف من شخص إلى آخر، فهو يطول ويقصر، فتجده استغرق صفحتين أو صفحة، وتجده مرة ثانية لم يتعدّ سطرين إلا ربعا، أو سطرا ونصفا، كما فعل بعلي بن زياد التونسي، وعبد الله بن غانم الافريقي؛ إذ لم يزد الكلام فيهما على سطرين إلا رُبعا في الأول، وسطراً ونصفاً في الثاني.

وبعد ما أنهى الكلامَ عن الإمام مالك، وأخبار أصحابه، انتقل إلى الكلام عن أخبار الشافعي، وأخبار أصحابه فبدأه بقوله :

الجزء الثاني :

(فيه أخبار الشافعي وأصحابه).

بسم الله الرحمان الرحيم :

وفي هذا القسم تعرض أيضا لترجمة الإمام الشافعي وحياته وأخباره، وفعل فيه مثل ما فعل في الإمام مالك وأصحابه، وبنفس الأسلوب والمنهاج مع تغيير طفيف في الأبواب وتسميتها، نظرا لاختلاف ظروف الإمام مالك مع ظروف الإمام الشافعي.

وبدأ هذا الجزء بباب معرفة نسبه وبلده ومولده ومدة عمره، ثم تلاه بباب في طلبه العلم وملازمته، ثم باب في فضائل الشافعي، وثناء العلماء عليه وإقرارهم له بالتقدم في علمه.

وختم هذا الجزء بقوله : (كملت أخبار أصحاب الشافعي والحمد لله رب العالمين)، ثم أعقب هذه العبارة بمرثية الازد بن الغَوث يرثي الامام محمد بن إدريس الشافعي، وفيها 26 بيتا منها :

علت صدغيه للمشيب طوالع ذوائد عن وِرْد التصابي ووادع
تصرفه طلوع العِنان وربما دعاه الصبا فقاده وهو طائع
ومَن لم يَزعه لبه وحياؤه فليس له من شيب فوديه وازع

وأخيرا أتى بقصيدة اشتملت على صفات الله تعالى في علم التوحيد، ضمت أربعين بيتا، للأستاذ الإمام زين الاسلام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن العشيري (ض)، مطلعها :

بحمد الله أفتتح المقالا وقد جلت أياديه تعالى
وأعقب بالصلاة على المُعَلَّى على كل الورى شرفا وحالا
وقفت على معاني ما سألتم من التوحيد أذكره ارتجالا
بنظم لا مخلٍ بالمعاني ولا بسط فيورثكم ملالا
سأسعفكم بربي مستعينا أؤمل أن يجنبني الضلالا

حكمنا بالحدوث لكل شيء وجدنـــاه تغير واستحـــالا
ودل المحدثـــات على قديم يحصلها ولم يقبـــل زوالا

وهذا الجزء الخاص بالإمام الشافعي قسمه إلى عشرين جزءا تقصر وتطول بين ربع ونصف صفحة، وصفحة ونصف، وتطول إلى ما بين صفحتين وثلاث صفحات، وإلى تسعة وعشرين تلميذا، فقسمهم إلى ثلاثة أقسام حسب المدن أو البلاد الثلاثة : مكة، بغداد، مصر.

وهو عند الكلام عليهم يقول : (أذكر بعض من أخذ عن الشافعي علمه وكتبه وتفقه له وخالفه في بعض قوله).

قال أبو عمر رضي الله عنه : فمن أخذ عنه من أهل مكة : (أبو بكر الحميدي)، وممن صحبه بمكة وأخذ عنه (أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن محمد ابن العباس بن عثمان بن شافع المطلبي)، وأخذ عنه بمكة (أبو بكر محمد بن إدريس وراق الحميدي) (أبو الوليد موسى بن أبي الجارود بن عمران).

فهؤلاء النفر صحبوا الشافعي بمكة وأخذوا عنه وتفقهوا بقوله قبل خروجه إلى بغداد.

وممن أخذ عنه ببغداد وصحبه، وتفقه له : (أبو على الحسن بن محمد بن الصباغ البزار... الزعفراني)، (أبو علي الحسين بن علي الكرابيسي)، (أبو ثـور إبراهيم بن خالد الكلبي)، (أبو عبد الله أحمد بن حنبل)، (أبو عبيد القاسم بن سلام)، (أبو عبد الرحمن أحمد بن محمد بن يحيى الأشعري البصري)، (أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد).

وممن أخذ عن الشافعي بمصر، وكتب كتبه، وتفقه له، ولم يخالف مذهبه :

(حرملة بن يحيى بن حرملة بن عمران بن قراد التجيبي)، (أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي)، (إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن عمرو بن مسلم المزني)، (ابن الشافعي وهو أبو عثمان محمد بن محمد بن إدريس الشافعي)، (عبد العزيز بن

عمران بن أيوب بن مغلاص)، (أبو موسى يونس بن عبد الله علي الصدفي)، (بحر ابن نصر بن سابق الخولاني)، (أبو عبد الله أحمد بن يحيى الوزيري)، أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي)، (أشهب بن عبد العزيز)، (عبد الله بن عبد الحكم)، محمد بن عبد الله بن عبد الحكم)، (هارون بن محمد الأبلي)، (هارون بن سعيد بن الهيثم)، (إبراهيم بن هرم)، (عمرو بن سواد بن الأسود)، (بشر بن بكر)، (قحزم ابن عبد الله بن قحزم الأسواني).

وهذه الأبواب أو الفصول عبارة عن قائمة بأسماء تلاميذ الإمام الشافعي، وهو قليلا ما يتكلم عنهم، أو يعلق، فأحيانا لا يزيد على نصف سطر.

وأما لدى الكلام على الشافعي وأخباره، فالأبواب هناك أيضا تطول وتقصر حسب أهميتها وحسب ما لديه من معلومات وأقوال وروايات، وهو في ذا وذاك يقف موقفا محايدا، فلا ينافس، ولا يبدي رأيا، ولا يتدخل إلا لماما، مثل آلة مسجلة، وكأنه لا يريد أن يجرأ على التاريخ وأحداثه، وكأن كل ما روى وقيل هنا وهناك هو حق وصدق.

أما الجزء الثالث والخاص بأبي حنيفة، فقد تكلم فيه على أبي حنيفة من حيث مولده ونسبه وسنه، ثم عقد بابا ذكر فيه العلماء الذين أثنوا عليه وتفضيلهم له تحت عنوان : (باب ذكر ما انتهى إلينا من ثناء العلماء على أبي حنيفة)، وقد جمع تحت هذا العنوان ستة وعشرين عالماً، وهم :

(أبو جعفر محمد بن علي بن حسن) – (حماد بن أبي سليمان) – (مسعر ابن كرام)– (أيوب السختياني) – (الأعمش) – (شعبة بن الحجاج) – (سفيان الثوري) – (المغيرة بن مقسم الضبي) – (الحسن بن صالح بن حي) – (سفيان ابن عيينة) – (سعيد بن أبي عروبة – ض) – (حماد بن زياد) – (شريك القاضي) – (ابن شبرمة) – (يحيى بن سعيد القطان) – (عبد الله بن المبارك) – (القاسم ابن معن) – (حجر بن عبد الجبار) – (زهير بن معاوية) – (ابن جريج) – (عبد

الرزاق) – (قول الشافعي فيه) – (وكيع) – (خلد الواسطي) – (الفضل بن موسى الينائي) – (عيسى بن يونس).

وبعد هذه القائمة من العلماء الذين أثنوا على أبي حنيفة، عقد بابا سماه (باب جامع فضائل أبي حنيفة وأخباره)، ثم باباً خصه لمذهبه، ثم باباً لزهده، ثم انتقل إلى أصحابه، وهم قليلو العدد بالنسبة لأصحاب مالك والشافعي، فهم لا يتعدون الثلاثة : أبا يوسف القاضي، وزفر بن الهذيل العنبري، ومحمد بن الحسن.

وختم كتاب «الانتقاء» بقوله : «تمت أخبار أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله، وبتمامها تم كتاب الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم».

ثانيا : **أسلوبه** :

هذه صورة دقيقة عن كتاب «الانتقاء»، وأبوابه، وفصوله، أما أسلوبه فيكاد يكون مثل أسلوبه في باقي مؤلفاته الأخرى، فهو لا يسجل أي خبر أو فكرة عن الائمة الأربعة إلا بعد أن يأتي بسندها مرويا عن شيوخه، أو مأخوذا من الكتب مثل «كتاب فضائل مالك» للدولابي، و«كتاب الطبقات» لخليفة بن خياط، وغيرهما. وأحيانا يأتي بالفعل المبني للمجهول مثل قال أبو عمر : روي عن مالك أو الشافعي أو أبي حنيفة كذا.

لذا فيمكن أن يعد أسلوبه من أسلوب المحدثين حيث يأتي مشبعا بالأسانيد المنقولة، بعيدا عن الدراسة التاريخية، والتحليل للأحداث والوقائع، وتمحيصها وتدقيقها.

ويمتاز أسلوبه بالوضوح والرصانة، والبعد عن السجع المكلف الذي طبع أسلوب القرن الرابع الهجري، فهو أسلوب مزيج بين أسلوب المحَدِّثين وأسلوب المؤرخين، ويميل إلى الناحية الأدبية أكثر من الأسلوب العلمي، حيث يكثر فيه أبيات ومقاطع شعرية، بل أحيانا يأتي بقصائد تحتوي أكثر من أربعين بيتا.

ويعتمد في غالبيته على السرد القصصي؛ لأنه حشر فيه حكايات ونوادر، تستهوي القارىء، وتدفعه إلى متابعة القراءة.

وهو أقرب إلى الأسلوب الحديث منه إلى الأسلوب القديم، حيث توجد هناك كلمات وجمل، بل وفقرات لا زلنا نستعملها في عصرنا الحاضر، مثل : «بطاقة مكتوب فيها إذا غاض الكرام غيضا وفاض اللئام فيضا وكان الشتاء قيظا والولد غيظا...»(3)، ومثل قوله : «أنشد الأستاذ الإمام زين الاسلام».

فهاتان العبارتان توحي لنا بأن ابن عبد البر كأنه عاش في عصرنا الذي نعيش فيه، فكلامه طبيعي، خال من التكلف، والكلام الغريب المعقد الذي يصعب فهمه، فحينما تقرأه لا تشعر بتعب في النطق به، ولا تشعر بصعوبة إدراك معناه، فتعيد الجملة، أو الفقرة حتى تفهم معناها، فلا تحتاج إلى هذا تماما كأنك تقرأ الصحيفة اليومية.

ثالثا : **قيمته** :

وكتاب «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء» له قيمة كبرى، وأهمية قصوى، تاريخية وأدبية.

فقيمته التاريخية تتجلى في كثرة الوقائع والأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية، حيث أتى بأخبار الأئمة الثلاثة مزيجة بأخبار الخلفاء والأمراء والقواد الذين عايشوا هؤلاء الأئمة، الشيء الذي لا تحصل عليه من مصادره الأصلية إلا بعد مشقة وتعب شديدين، بل ربما ضاع أكثرها أو جلها، ولذا فهو وثيقة تاريخية، حفظت لنا كثيرا من المعلومات من الضياع، يصعب الحصول عليها من غيره، بجانب هذا، جمع عدة علماء بخصائصهم، ومميزاتهم، واتجاهاتهم الفكرية والمذهبية، ومواقفهم نحو مذهبهم، ونحو مذهب الآخرين...

(3) الانتقاء ــ ص. 117

أما قيمته الأدبية، فتتجلى في أسلوبه الجميل، وفي تنسيق جمله، وتنظيم فقراتها، وحسن التخلص من فكرة إلى أخرى؛ إذ يجعل أدوات الربط في محلها، بحيث إذا أخذت منه، يفسد المعنى، وينهار جمال الأسلوب، فتشعر بخلل حدث في التعبير، وهذا مما لا يحسنه كثير من الكتاب الفطاحل، فهو يتصرف في حروف الجر، وحروف العطف، وغيرها تصرف الكاتب الماهر، والأديب المبدع.

وإلى جانب هذا الكتاب، يحتوي على عدة مقاطع، وقصائد شعرية متنوعة ومختلفة المواضيع والمعاني، ربما ضاعت أصولها ومصادرها.

رابعا : **نماذج من كتاب «الانتقاء»**(4) :

1) «أما بعد، فإن طائفة ممن عُني بطلب العلم وحمّله وعَلِم بما علمه الله عظيمَ بركته وفضله سألوني مجتمعين ومتفرقين أن أذكر لهم من أخبار الأئمة الثلاثة الذين طار ذكرهم في آفاق الاسلام لما انتشر عنهم من علم الحلال والحرام، وهم أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي المدني، وأبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المكي، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي...».

2) «باب من فضائل الشافعي وثناء العلماء وإقرارهم له بالتقدم في عمله» (فمن ذلك ثناء سفيان بن عيينة عليه تفضيله له)، أخبرنا إسماعيل بن إسحاق المصري الاستجي رحمه الله قال نا حماد بن شقران قال نا أبو سعيد بن الأعرابي بمكة قال نا تميم بن عبد الله الرازي بن سويد بن سعيد أنه قال : كنا عند سفيان بين عيينة بمكة فجاء الشافعي فنظر إليه ابن عيينة، قال هذا أفضل فتيان أهل زمانه...».

(4) أخذت هذه النماذج من كتاب الانتقاء ــ مكتبة القدسي ــ القاهرة عام 1350 للهجرة.

الفصل السادس

نماذج من فتاويه

ومن الآثار التي تركها لنا ابن عبد البر، فتاويه التي كان يصدرها إما تلبية لِطَالبيها[1]، أو ردا على منتقديه[2]. ومن المعلوم أن ابن عبد البر كان من المجتهدين الذين كان يُرجَع إليهم في الأمور الدينية والدنيوية، ويُطلَب منهم الإفتاء فيها سواء في الأندلس أو خارجها.

وتتميماً للكلام على آثاره، ارتأيت أن أنقل هنا بعض النماذج من فتاويه، حتي يَطّلع القراء على مختلف آثاره.

ونظرا لكثرتها وطولها، خصصت لها فصلا كاملا، اقتصرت فيه على نموذجين إثنين منهما، أحدهما في أكل طعام الأمراء، والثانية في قراءة البسملة، وعدم قراءتها في الصلاة.

النموذج الاول : **فتواه في أكل طعام الأمراء** :

قال المَقّري في كتابه : (نفح الطيب)[3] : (فتوى ابن عبد البر في أكل طعام الأمراء) : «وذكر القرطبي صاحب «التذكرة» في كتابه : «قمع الحرص بالزهد والقناعة» ما صورته : روينا أن أبا عُمر بن عبد البر بلغه وهو بشاطبة أن أقواما عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه، فقال :

قل لمن ينكر أكلي لطعام الأمراء
أنت من جهلك هذا في محل السفهاء

(1) مثل فتواه في قراءة البسملة في الصلاة وعدم قراءتها.
(2) وكفتواه في أكل طعام الأمراء من قبل العلماء.
(3) ج 219/4 ــ الطبعة الأولى ــ عام 1367 ــ 1949، تحقيق محمد محيي الدين.

لأن الاقتداء بالصالحين من الصحابة والتابعين، وأئمة الفتوى من المسلمين من السلف الصالح هو ملاك الدين، فقد كان ابن ثابت ــ وكان من الراسخين في العلم ــ يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد. وكان ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ مع ورعه وفضله، يقبل هدايا صهره المختار بن أبي عبيد، ويأكل طعامه، ويقبل جوائزه.

وقال عبد الله بن مسعود ــ وكان قد ملئى علما ــ لرجل سأله فقال : إن لي جارا يعمل بالربا، ولا يجتنب في مكسبه الحرام، يدعوني الى طعامه، أفأجيبه ؟ قال : نعم، لك المهنأ، وعليه المأثم، ما لم تعلم الشيء بعينه حراما، وقال عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ حين سئل عن جوائز السلاطين : لحم ظبي ذكي، وكان الشعبي، وهو من كبار التابعين وعلمائهم، يؤدب بني عبد الملك بن مروان، ويقبل جوائزه، ويأكل طعامه، وكان ابراهيم النخعي، وسائر علماء الكوفة، والحسن البصري ــ مع زهده وورعه ــ وسائر علماء البصرة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبان ابن عثمان، والفقهاء السبع بالمدينة ــ حاشى سعيد بن المسيب ــ يقبلون جوائز السلطان، وكان ابن شهاب يقبلها ويتقلب في جوائزهم، وكانت أكثر كسبه، وكذلك أبو الزناد، وكان مالك وأبو يوسف والشافعي وغيرهم من فقهاء الحجاز والعراق، يقبلون جوائز السلاطين والأمراء، وكان سفيان الثوري ــ مع ورعه وفضله ــ يقول : جوائز السلطان أحب الي من صلة الإخوان؛ لأن الإخوان يمنون، والسلطان لا يمن، ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير، وقد جمع الناس فيه أبوابا، ولأحمد بن خالد فقيه الأندلس وعالمها في ذلك كتاب حمله على وضعه وجمعه طعن أهل بلده عليه في قبوله جوائز عبد الرحمن الناصر؛ إذ نقله الى المدينة بقرطبة، وأسكنه دارا من دور الجامع قربه، وأجرى عليه الرزق من الطعام والإدام والمال، وله ولمثله في بيت المال حظ، والمسؤول عن التخليط فيه هو السلطان، كما قال عبد الله بن مسعود : ««لك المهنأ، وعليه المأثم ما لم تعلم الشيء بعينه حراما».

ومعنى قول ابن مسعود هذا قد أجمع العلماء عليه، فمن علم الشيء بعينه حراما مأخوذا من غير حله، كالجريمة وغيرها وشبهها من الطعام أو الدابة وما كان

مثل ذلك من الأشياء المتعينة غصبا، أو سرقة، أو مأخوذة بظلم بين لا شبهة فيه، فهذا الذي لم يختلف (فيه) أحدٌ في تحريمه، وسقوط عدالة أكله وأخذه وتملكه، وما أعلم من علماء التابعين أحداً تورع عن جوائز السلطان إلا سعيد بن المسيب بالمدينة، ومحمد بن سِيرِينَ بالبصرة، وهما قد ذهبا مَثَلاً في التورع، وسلك سبيلهما في ذلك أحمد بن حنبل، وأهل الزهد والورع والتقشف ـــ رحمة الله تعالى عليهم أجمعين ـــ .

والزهد في الدنيا من أفضل الفضائل، ولا يحل لمن وفقه الله تعالى وزهد فيها أن يحرّم ما أباح الله تعالى منها. والعَجَب من أهل زماننا يعيبون الشبهات، وهم يستحلون المحرمات، ومثالهم عندي كالذين سألوا عبد الله بن عمر ـــ رضي الله عنهما ـــ عن المحْرِم يقتل الفَرَا والحلمة، فقال للسائلين : من أنتم ؟ فقالوا من أهل الكوفة، قال : تسألونني عن هذا وأنتم قتلتم الحسين بن علي ـــ رضي الله عنهما !

وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : «ما أتاك من غير مسألة فكله وتَمَوَّلْه»، وروى أبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله عن النبي ـــ ﷺ ـــ معناه. وفي حديث أحدهما : «انما هو رزق رزقه الله تعالى». وفي لفظ بعض الرواة «ولا أرُدُّ على الله رزقه»، هذا كله مبني على ما أجمعوا عليه، وهو الحق، فمن عرف الشيءَ الحرام بعينه فإنه لا يحل له، المسألة من كلام ابن عبد البر انتهى(4)».

النموذج الثاني : **فتوى ابن عبد البر في قراءة البسملة وعدمها** :

وقد سماها بـ «الإنصاف فيما بين العلماء في بسم الله الرحمن الرحيم من الخلاف»(5) وهذا نصها :

---

(4) توجد هذه الفتوة بنفح الطيب ـــ ج 4 /219 الى 221 ـــ الطبعة الأولى بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(5) وتوجد في الرسائل المنيرية ج 153/2 الى 194.

«الحمد لله رب العالمين،الذي جعل العلم نورا للمهتدين، وشفاء لصدور المومنين، وحجة على الجاهلين والمبطلين، وصلى الله على محمد وعلى آله أجمعين.

أما بعد، فإن بعض اخواننا المعتنين بالعلم، المقيدين له، والحاملين لآثاره، المتفقهين فيه، رغبَ أن أجمع له ما يقف به على ما كان عليه العلماء السلف من الصحابة والتابعين في قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في أول فاتحة الكتاب في الصلاة، وهل كلهم يعُدُّونها آية منها، فيجهرون بها اذا قرأوا فاتحة الكتاب، أو يُخفُونها عند قراءتهم لها، أو يُسقطونها فلا يرونها آية منها، ولا من أوائل سائر سور القرآن سواها، وهل اختلفوا في ذلك، أو كانوا على وجه منه متفقين، وما الذي اختاره أئمة الفقهاء الذين تدور على مذاهبهم الفتيا في أمصار المسلمين من ذلك. وما الآثار التي كانت سبب اختلافهم فيما اختلفوا فيه من اسقاط بسم الله الرحمن الرحيم، وفي إثباتها، وفي الجهر بها، وإخفائها، وما نزعت به كل فرقة لمذهبها من جهة الأثر، واحتجت به من ذلك لاختيارها بما روته عن سلَفها، فأجبته بعون الله تعالى وفضله فيما رغب، وسارعت الى ما طلب ابتغاء ثواب الله تعالى في نشر ما علمني الله ، وخوف الوعيد الوارد في كتمان ما أنزل الله في كتابه، أو بينه رسول الله ــ ﷺ ــ والى الله عز وجل أضرع مبتهلا في أن يهَبَ لنا وللناظرين فيه علما نافعا، وعملا يُقَرِّبُ منه متقبّلا، وهو حسبي، عليه توكلت فيما له قصدت، وما توفيقي الا بالله.

فأول ما أبدأ به الأخبار عن جملة أقوال العلماء في ذلك :

باب ذكر اختلافهم في قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة في أول فاتحة الكتاب، وهل هي آية منها. اختلف علماء السلف والخلَف في قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في أول فاتحة الكتاب وهل هي آية منها، فذهب مالك وأصحابه الى أنها لا تقرأ في أول فاتحة الكتاب في شيء من الصلاة المكتوبات سرا ولا جهرا، وليست عندهم آيةَ من أم القرآن، ولا من غيرها من سور القرآن إلا في سورة النمل في قوله عز وجل : «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» وأن الله لم ينزلها في كتابه في غير هذا الموضوع من سورة النمل، وروى مثل قول مالك في ذلك

كله عن الأوزاعي، وبذلك قال أبو جعفر محمد بن جعفر بن يزيد الطبري، وأجاز مالك وأصحابه قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة النافلة في أول فاتحة الكتاب، وفي سائر سور القرآن للمتهجدين، ولمن يعرض القرآن عرْضا على المقرئين. وأمُّ القرآن عندهم سبعُ آيات يعُدُّون ««أنعمتَ عليهم» آية، وهو عند أهل المدينة من القرآن، وأهل الشام وأهل البصرة. وقال أهل العراق والمشرق، وسفيان الثوري، وابن أبي ليلى، والحسن بن حيي، وأبو حنيفة وأصحابه، وأحمد ابن حنبل، واسحاق بن راهوية، وأبو عبيدة القاسم بن سلاَّم، يقرأ الإمام في أول فاتحة الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم، ويُخْفيها عمن حوله، ورُوِيَ ذلك عن عمر وعثمان وعلي — رضي الله عنهم — على اختلاف في ذلك عن عمر وعلي، ولم يختلف عن ابن مسعود في أنه كان يخفيها، وهو قول ابراهيم النخعي، والحكَم بن عتيبة، وحماد بن أبي سليمان، وغيرهم، وهي آية من أول فاتحة الكتاب عند جماعة قراء الكوفيين وجمهور فقهائهم، إلا أن السنة عندهم فيها إخفاؤها في صلاة الجهر تسليماً واتباعاً للآثار المرفوعة في ذلك، وقال الكرخي وغيرُه من أصحاب أبي حنيفة : إنه لا يحفظ عنه هل هي آية من فاتحة الكتاب أوْ لا؟ قالوا : ومذهبه يقتضي أنها ليست آية من فاتحة الكتاب؛ لأنه يُسِرُّها في صلاة الجهر، قال داود ابن علي : هي آية من القرآن منفردة في كل موضع كتبت فيه في المصحف في أول فاتحة الكتاب، وفي أول كل سورة من القرآن، وليست من شيء من السُّوَر الا في سورة النمل، وانما هي آية منفردة غير لاحقة بالسورة.

وزعم الرازي أن مذهب أبي حنيفة يقتضي عنده ما قال داود.

وذهب الشافعي وأصحابه الى قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في أول فاتحة الكتاب جهرا في صلاة الجهر، وسرا في صلاة السر، وقال : هي آية من فاتحة الكتاب أول آياتها، ولا تتم سبع آيات إلا بها، ولا تجزىء صلاة من لم يقرأ فيها لقول رسول الله — ﷺ — يعني لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب، وقوله عليه الصلاة والسلام «كل صلاة لا يُقرأ فيها بأم القرآن، فهي خِدَاج»، ومن لم يقرأها كلها فلم يقرأها، وقول أبي ثور في ذلك كله كقول الشافعي، وروى الجهر بها عن

عمر وعلي ــ رضي الله عنهما ــ على اختلاف عنهما، ورُوِيَ ذلك عن عمار وأبي هريرة وابن عباس، وابن الزبير فلم يختلف في الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم عن ابن عمر، وهو الصحيح عن ابن عباس أيضا، وعليه جماعة أصحابه : سعيد بن جبير، وعطاء، ومجاهد، وطاوس، وهو مذهب ابن شهاب الزهري، وعمر بن دينار، وابن جُرَيج، ومُسْلِم بن خالد، وسائر أهل مكة.

واختلَف قول الشافعي، وكذلك اختلَف أصحابه في بسم الله الرحمن الرحيم، في غير فاتحة الكتاب، هل هي من أوائل السور آيةٌ مضافة الى كل سورة أم لا ؟.

ومُحصَّل مذهبه، أنها آية من أول كل سورة على قول ابن عباس: ما كنا نعلم انقضاء السورة الا بنزول بسم الله الرحمن الرحيم في أول غيرها وهو قول ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وعطاء وطاوس ومكحول، وإليه ذهب ابن المبارك وطائفة، ووافق الشافعي على أنها آية من فاتحةِ الكتاب، أحمد وإسحاق وأبو عبيدة وجماعة أهل الكوفة وأهل مكة وأكثر أهل العراق، إلاّ أن أحمد وإسحاق وأبا عبيدة يخفونها في صلاة الجهر، فذهب سفيان وابن أبي ليلى والحسن بن حيي وابن شُبرمة وجماعة أهل الكوفة على ما ذكرنا عنهم والحمد لله.

قال أبو عمر : لكل فِرقةٍ من فرق الفقهاء المذكورين آثار رووها وصاروا اليها فيما ذهبوا اليه من ذلك عن النبي ﷺ وعن أصحابه والتابعين، نذكر منها ما حضَرَنَا ذِكرُه على حذف التّكرار والإيثار بما عليه المَدَار بعون الله وفضله ــ إن شاء الله ــ .

ذكر الآثار التي احتج بها من أسقط بسم الله الرحمن الرحيم من أول فاتحة الكتاب في الصلاة، وكره قراءتها فيها، ولم يَعُدّها آيةً منها.

فمن ذلك حديث عبد الله بن مُغَفَّل المُزَني، وهو حديث يدور على أبي مسعود سعيد ابن اِياس الجريري عن أبي نعامة قيس بن عُبَابة الحنفي، عن عبد الله

ابن مغفل عن أبيه، وقد زعم قوم أن الجريري انفرد به، وليس هو عندي كذلك؛ لأنه قد رواه غيره عن قيس بن عبابة، وهو ثقة عند جميعهم وكذلك الجريري محدث أهل البصرة ثقة روى عنه الجلة من أئمة الحديث، منهم شُعْبةُ وسفيان وابن عُلَية والحَمّادانِ، إلا أنه اختلط في آخر عمره، وأما ابن عبد الله بن مغفل، فلم يرو عنه أحد إلا أبو نعامة قيس بن عبابة فيما علمت، ولم يرو عنه إلا رجل واحد، فهو مجهول عندهم، والمجهول لا تقوم به حجة.

فمن طرق حديث عبد الله بن مغفل ما حدثنا به سعيد بن نصر، وعبد الوارث بن سفيان قالا : حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا محمد بن وضاح، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا اسماعيل بن ابراهيم، هو ابن علية، عن الجريري، عن قيس بن عبابة، حدثني ابن عبد الله بن مغفل عن أبيه قال : «وما رأيت رجلا أشد عليه في الاسلام حدث منه فسمعني وأنا أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فقال لي يا بني اياك والحدَثَ، فإني صليت مع رسول الله ــ ﷺ ــ ومع أبي بكر وعمر وعثمان، فلم أسمع أحدا منهم يقرأها، فإذا قرأت فقل الحمد لله رب العالمين».

ورواه معْمَر عن الجريري قال : أخبرني من سمع ابن عبد الله بن مغفل عن أبيه، فذكر معناه، ورواه خالد بن عبد الله الواسطي الطحان، فاختلف عليه فيه. ورواه سعيد بن منصور ووهب بن بقية عنه عن الجريري عن قيس بن عبابة قال : أخبرني ابن عبد الله بن مغفل عن أبيه وساق الحديث مثل رواية ابن علية سواء، ورواه اسماعيل بن مسعود عنه عن عثمان بن غياث عن أبي نعامة قيس بن عبابة، لم يذكر الجريري، فالحديث إنما يدور على ابن عبد الله بن مغفل، وقد تقدم الخبر عنه. حدثنا محمد بن ابراهيم بن سعيد، حدثنا أحمد بن شعيب، وأنبأنا اسماعيل بن مسعود، أنبأنا خالد، حدثنا عثمان بن غياث قال : حدثني أبو نعامة الحنفي قال، حدثنا ابن عبد الله بن مغفل قال : « كان عبد الله بن مغفل إذا سمع أحدا يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم قال صليت خلف رسول الله ــ ﷺ ــ وخلف أبي بكر، وخلف عمر، فما سمعت أحدا منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم».

قال أبو عمر : فحديث عبد الله بن مغفل في اسناده ما وصفنا، وقد ذهب اليه من لا يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم أصلا، سرا ولا جهرا، وذهب اليه من رَأى أنها تُقرأ سرا، وقالوا: معناه أنه لو صح أنهم كانوا يسرون بسم الله الرحمن الرحيم، ويجهرون بالحمد لله رب العالمين، واستدلوا على ذلك من الآثار بما ياتي ذكرها بعد في باب مفرد في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ومنها ما رواه سفيان الثوري وغيره عن خالد الحَذّاء عن أبي نعامة الحنفي قيس بن عبابة، عن أنَس بن مالك قال : «كان رسول الله ــ ﷺ ــ وأبو بكر وعمر لا يجهرون بسم الله الرحمن الرحيم». قال سفيان : كانوا يُسِرّون بها، وهكذا رواية أبي قِلابة والحسن وعائذ بن شُرَيْح عن أنس، وكذلك رواه جماعة من أصحاب قتادة عن قتادة عن أنس، وسنذكر ما حضَرَنا من الأسانيد بذلك إن شاء الله تعالى. وحديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ وهو حديث انفرد به بديل ابن ميسرة عن أبي الجوزاء واسمه أوْيَس بن عبد الله الربعي الأزدي هذا من ربيعة الأزد بصري، عن عائشة ليس له اسناد غيره، وبديل ابن ميسرة وأبو الجوزاء ثقتان رواه عن بديل بن ميّسرة سعيد بن أبي عروبة، وحسين المعلم، وهذان ثقة من رواه عنه بديل.

حدثنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ حدثنا أبو قلابة الرقاشي قراءة عليه، حدثنا عبد الأعلى ومحمد بن حيان العجلي قالا حدثنا حسين المعلم عن بديل بن ميسرة عن أبي الجوزاء عن عائشة أن النبي ــ ﷺ ــ كان يفتتح القراءة بالحمد لله رب العالمين. وحدثنا أحمد بن قاسم بن أصبغ بن عبد الرحمن وعبد الوارث بن سفيان قالا حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا الحارث بن أبي أسامة، حدثنا سعيد بن عامر عن سعيد بن أبي عَروبة عن بديل بن ميسرة عن أبي الجوزاء عن عائشة قالت «كان النبي ــ ﷺ ــ يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ويختمها بالتسليم».

قال أبو عمر : رجال اسناد هذا الحديث ثقاتٌ كلهم، لا يختلف في ذلك، الا أنهم يقولون إن أبا الجوزاء لا يعرف له سماع من عائشة، وحديثه عنها

إرسال. وأما الفقهاء فيقولون : إن الحديث لا حجة فيه لمن يرى إسقاط بسم الله الرحمن الرحيم من فاتحة الكتاب وإنما فيه الحجة على أن من رأى أن فاتحة الكتاب وغيرها سواء، وأنه جائز قراءتها وقراءة غيرها دونها في الصلاة، ويجيز أن يفتتح الصلاة بغيرها من القرآن، فهذا الحديث حجةٌ على من قال ذلك، وأما من قال إن الصلاة لا تجزىء إلا بأم القرآن وإنها التي يُفتَتَح بها القراءة في الصلوات دون ما سواها من سور القرآن، وإن ما سواها من القرآن إنما يُقرأ في الصلاة بعدها. فلا حجة عليه بهذا الحديث ولا بما كان مثله، قالوا : وانما قول عائشة ــ رضي الله عنها ــ «كان رسول الله ــ ﷺ ــ يفتتح الصلاة بالحمد لله رب العالمين» يعني دون غيرها من سور القرآن، والحمد لله رب العالمين اسم لسورة أم القرآن، وفاتحة الكتاب اسم أيضا لها، وانما قالت عائشة يفتتح بالحمد لله رب العالمين، وم تقل دون أن يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم لم يفد(6) السامع فائدة؛ لأن بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة مثبتة في المصحف، وقد اختلفوا فيها هل هي آية من أول كل سورة، أو آية مفردة في أوائل السورة، كاختلافهم هل هي آية من فاتحة الكتاب على ما تقدم ذكره والحمد لله، وانما قصدت عائشة ــ رحمها الله ــ الى الإعلام بالسورة التي يفتتح بها الصلوات. وأخيرًا بأيّ السور يفتتح قراءة الصلاة بكلام وقعت فيه الأشكال، فقصدت الى ما في فاتحة الكتاب مما ليس في غيرها؛ لأن بسم الله الرحمن الرحيم في غيرها، فكان قوله بالحمد لله رب العالمين كما لو قال قائل كان يفتتح الصلاة بـ (براءة من الله ورسوله) ولم يقل بسورة التوبة، أو قال : «ألم أحسب الناسُ»، ولم يقل بالعنكبوت، أو بـ (ق)، أو بـ (يس)، أو بـ (ق والقلم)، ومثل هذا كثير، فكذلك قول عائشة ــ رضي الله عنها ــ كان رسول الله ــ ﷺ ــ يفتتح الصلاة بالحمد لله رب العالمين، ولم تقل بأم القرآن، ولا بفاتحة الكتاب؛ لأنها قصدتْ إلى إعلام السامع بالسورة التي يفتتح بها قراءة الصلاة، فسمعتْها بذلك، وليس فيه ما يسقط بسم الله الرحمن الرحيم، ولا ما يثبتها، كما لو قالت كان يفتتح (ص) بـ (والقرآنِ ذي الذكر) أو (ق والقرآن

(6) قوله لم يفد الخ هكذا الأصل، والكلام غير منتظم، ولعل التعليل محذوف لأنه لم يفد الخ والله أعلم.

المجيد)، أو (الحاقة ما الحاقة)، أو (ن والقلم) وما كان في مثل ذلك، وهذا كله لا يرفع احتماله، فبطل أن يكون في حديث عائشة هذا حجةٌ لمن نزع به سقوط بسم الله الرحمن الرحيم.

حديث أبي هريرة :

أما أبو هريرة فنروي عنه في هذا الباب أحاديث متغايرة مختلفة ومتضادة تاتي في أبوابها من هذا الكتاب ــ ان شاء الله تعالى.

فأما ما احتج به منها، ومن رأى سقوط بسم الله الرحمن الرحيم من أول فاتحة الكتاب، فمن ذلك ما رواه بِشْرُ بن رافع أبو الأسباط الحارثي يمامي قال : حدثني ابن عم أبي هريرة أنه سمع أبا هريرة يقول : «كان رسول الله ــ ﷺ ــ وأبو بكر وعمر وعثمان يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين»، وبشر بن رافع عندهم مُنْكَر الحديث، قد اتفقوا على إنكار حديثه وطرح ما رواه وترك الاحتجاج به، ولا يختلف علماء أهل الحديث في ذلك، والذين رووه عن بشر بن رافع حاتم بن اسماعيل وعبد الرزاق وصفوان بن عيسى، ولو صح حديثه احتمل من التأويل ما ذكرناه في حديث عائشة قبل هذا، رواه عبد الواحد بن زيد بن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة «أن رسول الله ــ ﷺ ــ كان إذا نهض في الثانية افتتح بالحمد لله رب العالمين ولم يسكت»، وهذه رواية يغني ظاهرها عن الكلام فيها، وفيها دليل على أنه كان يسكت بعد التكبيرة في الأولى على ما رواه سَمُرَة.

ومنها حديث العلاء بن عبد الرحمن، وهو أصح حديث روي في سقوط بسم الله الرحمن الرحيم من أول فاتحة الكتاب وأبينه وأبعده من احتمال التأويل، رواه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة أنه سمعه يقول : سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج، هي خداج، هي خداج، غير تمام» قال : قلت يا أبا هريرة اني أحيانا أكون وراء الإمام، قال فغمر ذراعي ثم قال :

إقرأ بها في نفسك يا فارسي، فاني سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : «قال الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، قال رسول الله ــ ﷺ ــ إقرأوا، يقول العبد الحمد لله رب العالمين، يقول الله عز وجل : حمدني عبدي، يقول العبد الرحمن الرحيم، يقول الله تعالى : أثنى عليّ عبدي، يقول العبد، مالك يوم الدين، يقول الله تعالى : مجّدني عبدي، يقول العبد:إياك نعبد واياك نستعين، فيقول الله تعالى فهذه الآية بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، ويقول العبد:اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فهؤلاء لعبدي، ولعبدى ما سأل». أدخل مالك هذا الحديث في باب القراءة خلف الإمام فيما لا يجهر فيه الإمام بالقراءة لقول أبي هريرة فيه : إقرأ بها في نفسك، أي إقرأ بها سرا، ولم يدخله في باب العمل في القراءة مع حديث حُمَيْد عن أنَس قال : «قمتُ وراء أبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم كان لا يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم»، وسياتي هذا الحديث، واختلاف الرواة في ألفاظه ورفعه وتوقيفه في موضعه من هذا الكتاب بعد هذا ان شاء الله.

وأما حديث العلاء بن عبد الرحمن هذا فرواه كما رواه مالك عبد الملك بن عبد العزيز بن جُرَيْج، ومحمد بن عَجْلان، ومحمد بن اسحاق، والوليد بن كَثِير، كلهم رووه عن العَلاء بن عبد الرحمن أن أبا السائب مولى هشام بن زُهرة حدثه أنه سمع أبا هريرة عن النبي ﷺ مثله، إلا أن الليث بن سعد رواه عن ابن عجلان عن العلاء عن أبي السائب عن أبي هريرة بهذا الاسناد عن النبي ــ ﷺ ــ «أيُما رجل صلى صلاة لم يَقرأ فيها بأم القرآن فهي خِدَاج، هي خداج، هي غير تَمام، قال فقلت اني لا أستطيع أن أقرأ مع الإمام، قال إقرأ بها في نفسك، فإن الله عز وجل يقول : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، فاذا قال العبد:الحمد لله رب العالمين، قلت حمدني عبدي»، ثم ذكر الحديث على هذا بمعنى ما تقدم، فجعل قوله «قال الله قسمت الصلاة بيني وبين عبدي» من قول أبي هريرة الى آخر

الحديث، لم يرفع منه الا قوله «خداج غير تمام». ومالكٌ أحفظُ وأثبتُ وزيادةُ مِثْلِه مقبولةٌ وحجة على من قصر عنها، ورواية ابن جريج عن العلاء في هذا الحديث كرواية مالك سواء.

وروى هذا الحديث شعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة عن العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة، فقالوا عن أبيه في موضع أبي السَّائب، ولم يذكروا أبا السائب، فمن أهل العلم بالحديث من جعل هذا اضطرابا يوجب التوقف عند العمل بحديث العلاء هذا، ومنهم من قال ليس هذا باضطراب؛ لأن العلاء قد روى هذا الحديث عن أبيه، وعن أبي السائب جميعا عن أبي هريرة، كذلك رواه أبو أويس عن العلاء عن أبيه وأبي اسلائب جميعا عن أبي هريرة، وساقه نحو سياقة مالك له.

والقول عندي في ذلك أن مثل هذا الاختلاف لا يضر؛ لأن أبا السائب ثقة، وعبد الرحمن أبا العلاء ثقة أيضا، فعن أيهما كان فهو من أخبار العدول التي يجب الحكم بها، وأبو أويس عندهم لا يحتجون فيه فيما انفرد به.

وحديثه حدثنا به عبد الوارث بن سفيان، وسعيد بن نصر، قالا حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا إسماعيل بن إسحاق وأحمد بن زهير، قالا حدثنا إسماعيل ابن أبي أويس قال حدثني أبي عن العلاء بن عبد الرحمن، قال سمعت من أبي ومن أبي السائب جميعا وكانا جليسين لأبي هريرة : «قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها فاتحة الكتاب فهي خداج، هي خداج، غير تمام»، وذكر الحديث بتمامه كما روى مالك، قال إسماعيل بن إسحاق قال علي بن المديني، وكان هذا الحديث عن عباد بن صهيب عن الرجلين جميعا، يعني كما رواه أبو أُوَيْس.

قال أبو عمر : لا أعلم حديثا في سقوط بسم الله الرحمن الرحيم من أول فاتحة الكتاب أبْيَنَ من حديث العلاء هذا؛ لأن فيه أن رسول الله ﷺ قال : «إقرأوا،يقول العبد الحمد لله رب العالمين»، فبدأ بها دون بسم الله الرحمن الرحيم، فعدها آية، ثم قال : «يقول العبد الرحمن الرحيم» فعدها آية، ثم قال : «يقول

العبد مالك يوم الدين» فعَدّها آية، ثم قال : «يقول العبد إياك نعبد وإياك نستعين» فعدها آية، فتمت أربع آيات، ثم قرأ الى آخر السورة، وقال : «هؤلاء لعبدي» ولم يقل هاتان لعبدي، وهؤلاء إشارة الى جماعة، فعلم أنها ثلاثة آيات، وتقدمت أربع آيات، تتمة سبعآيات، فدل هذا الحديث على أن «أنعمت عليهم» آية، وأن «بسم الله الرحمن الرحيم» ليست آية من أول السورة، وهذا عند أهل المدينة والشام والبصرة. وأما أهل مكة، وأهل الكوفة من العلماء والقراء، فيعُدُّون «بسم الله الرحمن الرحيم» أول آية من أم القرآن، وليست «أنعمت عليهم» بآية عندهم، فهذا حديث قد رفع الإشكال في سقوط «بسم الله الرحمن الرحيم» ورجاله ثقات.

أما أبو السائب فقد روى عنه العلاء بن عبد الرحمن، وشَرِيك بن أبي نمر، وبكير الاشج، وصيفي مولى ابن أفلح، ومحمد بن عمرو بن عطاء، وعبيد الله بن عمرو، قيل : إنه روى عنه الزهري وصفوان بن سليم، والإسناد عن كل واحد من هذين عنه ليس بالقوي. وأصح ما قيل في أبي السائب هذا أنه مولى هشام بن زهرة كما قال مالك وما تبعه على ذلك وهو مولى الأنصاري، وقيل مولى بني زهرة، وقيل مولى بني عبد الله بن هشام بن زهرة، مولى هشام بن زهرة، هكذا قال الحفاظ من أصحاب العلاء، وكان أبو السائب هذا من جلساء أبي هريرة، وروى عن أبي هريرة، وعن المغيرة بن شعبة، وسعد بن أبي وقاص.

وأما عبد الرحمن بن يعقوب مولى جُهَيْنة والد العلاء، فروى عنه ابنه العَلاء، وروى عنه محمد بن ابراهيم التيمي، والله أعلم. ولا أعلم أحدا ذكَره بِجَرْحَةٍ. وأما العلاء فروى عنه جماعة من أئمة أهل الحديث واحتملوه، ووثّقه أحمد بن حنبل ـــ رحمه الله تعالى ـــ فقال هو عند سهيل بن أبي صالح ومحمد بن عمرو. وأما ابن معين فقال : العلاء بن عبد الرحمن ليس حديثه بحجة، وهو وسهيل قريب من السواء، هذه حكاية عباس عن ابن مَعين، وقال ابن أبي خيثمة : سمعت يحيى بن معين يقول : العلاء بن عبد الرحمن ليس ذلك، لم يزَل الناس يَتّقون حديثه. وقال أبو الحاتم الرازي : روى عن العلاء الثقات، وأنا أنكر من حديثه أشياء.

الرحمن ليس ذلك، لم يزل الناس يتقون حديثه. وقال أبو الحاتم الرازي : روى عن العلاء الثقات، وأنا أنكر من حديثه أشياء.

قال أبو عمر : العلاء ليس بالمتين عندهم، وقد انفرد بهذا الحديث ليس يوجد إلّا له، ولا تروى ألفاظه عن أحد سواه، والله أعلم.

وقد روى منصور بن أبي مزاحم، وهو من أهل الصدق عندهم قال حدثنا أبو أويس عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة : «أن النبي ـــ ﷺ ـــ كان لا يجهر بـ بسم الله الرحمن الرحيم».

قال أبو عمر :

يعضد هذه الرواية عن مالك وغيره من حديث العلاء هذا، قول أبي هريرة : اقرأ بها في نفسك يا فارسي، ومعنى قوله في حديث العلاء : «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل»، أي قسمت قراة فاتحة الكتاب في الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، هذا معناه عند من رأى سقوط بسم الله الرحمن الرحيم من أول السورة، ودليلهم على ذلك قوله بإثر ذلك «إقرأ يقول العبد الحمد لله رب العالمين» الحديث، قالوا : وجائز أن يعبّرَ عن القراءة بالصلاة كما يعبّر عن الصلاة بالقراءة، قال الله عز وجل : «وقرآنَ الفجر»، أي صلاة الفجر «إن قرآن الفجر كان مشهودا» أي صلاة الفجر.

وأما من رأى إثبات بسم الله الرحمن الرحيم في أول فاتحة الكتاب، فقالوا : لا يجوز أن يحال اسم الصلاة الى القراءة إلا بما لا اشكال فيه من المجاز، وبالدليل الذي لا يحتمل التأويل، قالوا ومعنى قوله عليه السلام عن الله تباركَ اسمه : «قسَمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» ان الصلاة دعاء وعبادة، فمن العبد الدعاء، ومن الله الإجابة، ومن العبد الصلاة بالركوع والسجود والقيام والقعود، ومن الله تعالى الجزاء بالمغفرة والهدى، قالوا : فهذا معنى السورة؛ لأنها تقتضي الدعاء بالهدى بعد التحميد والثناء، ومن الله الاجابة والجزاء، فهذا معنى قسمت الصلاة بين العبد وبين ربه، على ظاهر الكلام دون احالة لفظه، والله أعلم.

وعلى هذا التأويل يكون المعنى في ابتدائه القراءة بالحمد لله رب العالمين في هذا الحديث، بمعنى ما تقدم ذكره في حديث عائشة وغيره من الابتداء بالحمد لله رب العالمين. حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا حمزة بن محمد، أنبأنا أحمد بن شعيب، أنبأنا الحسين بن حريث، حدثنا الفضل بن موسى، وحدثنا سعيد بن نصر، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا محمد بن وضاح، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو أسامة كلاهما عن عبد الحميد بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب قال : «قال رسول الله ﷺ ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل» هكذا قالا جميعاً، والمعنى من قوله أنها مقسومة بين العبد وبين ربه، وللعبد ما سأل.

ومثل هذا حديث مالك أيضا عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبي سعيد مولى عامر بن كريز، أخبره «أن رسول الله – ﷺ – نادى أبي بن كعب، وهو يصلي، فلما فرغ من صلاته لحقه فوضع رسول الله – ﷺ – يده على يده، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد، فقال : إنني لأرجو أن لاتخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها، قال أبي : فجعلت أبطيء في المشي رجاء ذلك، فقلت يا رسول الله : السورة التي وعدتني، فقال : كيف تقرأ إذا فتحت الصلاة، قال : فقرأت عليه الحمد لله رب العالمين، حتى أتيت على آخرها، فقال رسول الله – ﷺ – : «هي هذه السورة، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُعطيت». فقوله في هذا الحديث : «فقرأت عليه الحمد لله رب العالمين» يحتمل أن يكون كقوله، لو قال: فقرأت عليه (يس والقرآن الحكيم) يريد السورة أو قرأت عليه (ق والقرآن المجيد)، إذ ليس في ذلك ما يسقط بسم الله الرحمن الرحيم من أولها، ولا يثبتها، والله أعلم. وقد مضى في ذلك ما يكفي فيما تقدم، والآثار التي تعضد هذا التأويل في ثبوت بسم الله الرحمن الرحيم في أول فاتحة الكتاب تأتي بعد في بابها إن شاء الله.

(حديث أنس بن مالك)

وأما حديث أنسٍ في هذا الباب فرواه مالك في موطئه عن حُمَيد الطويل عن أنس بن مالك قال : قمت وراء أبي بكر وعمر وعثمان فكلهم لا يقرأون بسم الله الرحمن الرحيم إذا افتتحوا الصلاة، هكذا رواه مالك عن حميد الطويل عن أنس موقوفا لم يسنده، لم يذكر فيه النبي - ﷺ - لم يختلف في ذلك رواة الموطأ قديما وحديثا: ابن وهب وغيره إلا ما رواه ابن أخيه أحمد بن عبد الرحمن بن وهب المعروف ببحشل، فإنه رواه عن عمه عن مالك عن حميد عن أنس، فذكر فيه النبي - ﷺ - ولم يتابعه على ذلك أحد من رواة ابن وهب، وابن أخي ابن وهب عندهم ليس بالقوي، قد تكلموا فيه، ولم يَرْوُهْ حجةً فيما انفرد به، ورواه الوليد بن مسلم عن مالك عن حميد عن أنس، فذكر فيه النبي - ﷺ - وهذا عندهم خطأ، والصحيح ما في الموطأ، وقد ذكرنا الأسانيد بما ذكرنا من اختلاف على ابن وهب وغيره عن مالك في التمهيد، وتابعه على ذلك هشيم وحماد بن سلمة. فحديث هشيم ذكره أبو بكر بن أبي شيبة عن هشيم، وذكره أيضا سعيد بن منصور عن هشيم هكذا موقوفا على أبي بكر وعمر وعثمان، لم يذكروا النبي - ﷺ -، ورواه حماد بن سلمة في كتابه عن ثابت وقتادة وحميد عن أنس : «أن النبي - ﷺ - وأبا بكر وعثمان كانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين» قال حماد : إلا أن حميدا لم يذكر النبي - ﷺ - وقد روى ابن أبي عَدِيّ هذا الحديث عن حميد الطويل عن قتادة عن أنس، ولست أعلم أحدا ذكره عن حميد عن قتادة عن أنس، إلا ابن أبي عدي فيما علمت، ويقولون : إن أكثر رواية حميد عن أنس إنما سمعها من قتادة، وثابت عن أنس ومنها ما سمع من أنس، وأما قتادة فلا أعلم أحدا رواه عنه موقوفا، بل جماعة أصحابه ذكروا فيه عنه عن أنس «أن النبي - ﷺ - وأبا بكر وعمر، واختلفوا منه في ذكر عثمان فيه، وكلهم رفعه، فذكر فيه النبي - ﷺ - إلا أنهم اختلفوا في لفظه، فمنهم من قال فيه كانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين، ومنهم من قال : «كانوا لا يقرأون بسم الله الرحمن الرحيم»، ومنهم من قال : «كانوا لا يجهرون بسم الله الرحمن الرحيم»، ومنهم من قال : «فلم أسمع أحدا منهم جهر بسم الله الرحمن الرحيم».

فمن أجل من رواه عن قتادة أيوب بن أبي تميمة السختياني «حدثنا بن إبراهيم بن سعيد، حدثنا محمد بن معاوية بن عبد الرحمن – رحمه الله –، وحدثنا عبد الله بن محمد بن أسد، حدثنا حمزة بن محمد قالا : حدثنا أحمد بن شعيب ابن علي، أنبأنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن أيوب عن قتادة عن أنس قال «صليت مع النبي – ﷺ – ومع أبي بكر ومع عمر، فافتتحوا بالحمد لله رب العالمين».

حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد المومن، حدثنا محمد بن أبي بكر بن عبد الرزاق، حدثنا أبو داود، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام يعني الدَّستوائي عن قتادة عن أنس «أن النبي – ﷺ – وأبا بكر وعمر كانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين».

وحدثنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا بكر بن حماد، حدثنا مسدد، حدثنا يحيى بن سعيد عن هشام عن قتادة عن أنس «أن النبي – ﷺ – وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين».

حدثنا عبد الوارث، حدثنا قاسم، حدثنا حماد بن غالب، حدثنا علي بن الجعد، حدثنا شعبة وشيبان بن عبد الرحمن عن قتادة عن أنس قال : «كان النبي – ﷺ – وأبو بكر وعمر يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين».

حدثنا أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن، وعبد الوارث بن سفيان قالا : حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا الحارث بن أبي أسامة، حدثنا سعيد بن عامر عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة عن أنس «أن رسول الله – ﷺ – وأبا بكر وعمر كانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين».

حدثنا سعيد بن نصر، نا قاسم بن أصبغ، حدثنا محمد بن وضاح، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا بن بِشر، حدثنا سعيد، حدثنا قتادة عن أنس «أن النبي – ﷺ – وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب

العالمين»، وبه عن أبي بكر، حدثنا وكيع عن هشام، عن قتادة، عن أنس مثله، أخبرنا عبد الله بن محمد، حدثنا حمزة بن محمد، حدثنا أحمد بن شعيب، أنبأنا قتيبة بن سعيد، حدثنا أبو عوانة، عن قتادة، عن أنس قال : «كان النبي - ﷺ - وأبو بكر وعمر وعثمان يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين».

فهؤلاء حفاظ أصحاب قتادة ليس في روايتهم لهذا الحديث ما يوجب سقوط بسم الله الرحمن الرحيم، من أول فاتحة الكتاب على ما قدمنا ذكره إلا أن فيه حجة لمن ذهب إلى أنهم كانوا يُخْفونها ولا يجهرون بها.

وحدثنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا محمد بن عبد السلام، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر غندر، حدثنا شعبة قال : سمعت قتادة عن أنس: قال : «صليت مع النبي - ﷺ - ومع أبي بكر وعمر وعثمان، فلم أسمع أحدا منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم».

وحدثنا أحمد بن قاسم بن عيسى، حدثنا عبيد الله بن محمد، حدثنا البغَوي، حدثنا بن الجعْد، حدثنا شعبة وشَيبان عن قتادة قال : سمعت أنس بن مالك قال : «صليت خلف رسول الله ﷺ وخلف أبي بكر، وخلْف عمر وعثمان، فلم أسمع أحدا منهم يجهر بـ بسم الله الرحمن الرحيم».

حدثنا سعيد بن نصر، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا محمد بن وضاح، أنبأنا أبو بكر بن أبي شيبة وموسى بن معاوية قالا : حدثنا وكيع عن شعبة عن قتادة عن أنس قال : «صليت خلف رسول الله - ﷺ - وأبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا لا يجهرون بـ بسم الله الرحمن الرحيم».

أخبرنا عبد الله بن محمد، وعبد الرحمن بن عبد الله بن خالد قالا : حدثنا ابن حمدان ببغداد، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، حدثني وكيع، فذكره بإسناده، ورواه عبيد الله بن موسى أن شعبة قال : قلت لقتادة :أنت سمعت أنس بن مالك يقول : «صليت خلف رسول الله - ﷺ - وأبي بكر وعمر، فلم أسمعهم يجهرون بـ بسم الله الرحمن الرحيم، قال : نعم»، وبهذا اللفظ

أيضا رواه الأسود بن عامر وعبد الرحمن بن زياد الرضاحي عن شعبة عن قتادة عن أنس، وكذلك رواه حجاج بن أرطاة عن قتادة عن أنس.

حدثنا عبد الله، حدثنا حمزة، وحدثنا أحمد بن شعيب، أنبأنا عبيد الله بن سعيد، قال حدثني عقبة، قال حدثني شعبة وابن أبي عروبة عن قتادة عن أنس قال: «صليت خلف رسول الله - ﷺ - وخلف أبي بكر وعمر وعثمان، فلم أسمع أحدا منهم يجهر بـ بسم الله الرحمن الرحيم.

حدثنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا محمد بن الهيثم أبو الأحوص، حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن قتادة عن أنس : «قال كان رسول الله - ﷺ - وأبو بكر وعمر وعثمان يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين»، ورواه محمد بن شعيب بن شابور عن الأوزاعي قال : كتب إليّ قتادة قال : أنس بن مالك : «أن رسول الله - ﷺ - وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين لا يقرأون بسم الله الرحمن الرحيم في أول السورة ولا في آخرها»، ورواه إسحاق بن أبي طلحة عن أنس.

حدثنا عبد الوارث، حدثنا قاسم، حدثنا أبو الأحوص محمد به الهيثم، حدثنا محمد بن كثير، حدثنا الأوزاعي عن إسحاق بن عبد الله أبي طلحة عن أنس بن مالك قال : «صليت خلف رسول الله - ﷺ - وأبي بكر وعمر فكلهم كانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين»، رواه الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي قال، حدثني إسحاق بن عبد الله بن طلحة، قال سمعت أنس بن مالك يقول : «صليت خلف رسول الله - ﷺ - وخلف أبي بكر وعمر، فكلهم كانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين، لا يقرأون بسم الله الرحمن الرحيم في أول السورة ولا في آخرها»، رواه ثابت البناني عن أنس، وقد ذكرناه من رواية حماد بن سلمة عن ثابت، وقتادة وحميد عن أنس، ورواه عمار بن زريق عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس «أن النبي - ﷺ - وأبا بكر وعمر كانوا لا يجهرون بسم الله الرحمن الرحيم، فأخطأ فيه ولا يصح لشعبة عن ثابت؛ لأنه لم

يروه إلا الأحوص بن جَواب عن عمار بن زريق عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس، لم يروه أصحاب شعبة الذين هم في حجة، ولا يعرف للأعمش عن شعبة رواية محفوظة، والحديث لشعبة صحيح عن قتادة، لا عن ثابت، ورواه أبو قلابة الجرمي عن أنس من حديث الثوري عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أنس قال : «كان النبي - ﷺ - وأبو بكر وعمر لا يجهرون بسم الله الرحمن الرحيم»، هكذا رواه يحيى بن أدم وعبيد الله الأشجعي عن الثوري، ورواه الفريابي عن الثوري عن خالد عن أبي نعامة عن أنس قال : «كان النبي - ﷺ - وأبو بكر وعمر لا يقرأون بسم الله الرحمن الرحيم» قال سفيان : يعني لا يجهرون بها.

قال أبو عمر : يمكن أن يكون هذا الحديث عن خالد الحَذاء، ورواه مالك بن دينار عن أنس بن مالك قال : «صليت خلف رسول الله - ﷺ - وخلف أبي بكر، وخلف عمر، وخلف عثمان، فكانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين، وكانوا يقرأون مالك يوم الدين»، ورواه يزيد الرقاشي عن أنس أنه صلى مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر وعمر وعثمان، فلم يسمع أحدا منهم يجهر بسم الله الرحمن الرحيم، ورواه منصور بن زادان عن أنس بهذا المعنى أيضا. أخبرنا محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن معاوية - رحمه الله - وحدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا حمزة قالا : حدثنا أحمد بن شعيب، أنبأنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق قال : سمعت أبي يقول : حدثنا أبو حمزة عن منصور بن زادان عن أنس بن مالك قال : «صلى بنا رسول الله - ﷺ - فلم يسمعنا قراءة بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى بنا أبو بكر وعمر فلم نسمعها منها»، وروى هذا الحديث عن الحسن عن أنس، فبعض رواته يقول فيه عن أنس «صليت مع رسول الله - ﷺ - ومع أبي بكر وعمر، فلم أسمعهم يجهرون بسم الله الرحمن الرحيم»، وبعضهم يقول فيه عن أنس : «كان النبي - ﷺ - يسر بسم الله الرحمن الرحيم، وأبو بكر وعمر»، ورواه عائذ بن شريح عن أنس بن مالك قال : «صليت خلف رسول الله - ﷺ - وأبي بكر وعمر وعثمان، فلم يجهروا بسم الله الرحمن

الرحيم»، من حديث أبي الأحوص سلام بن سليم عن يوسف بن أسباط عن عائذ بن شريح.

فهذا ما بلغنا من حديث أنس بن مالك من اختلاف ألفاظه، وكلها قد نزع بما شاء منها من احتج لمذهبه من الفقهاء الذين ذكرنا مذاهبهم في صدر هذا الكتاب، والتأويل سائغ فيه، ولا حجة عندي في شيء منها؛ لأنه قال مرة : «كانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين»، ومرة قال : «كانوا لا يجهرون بسم الله الرحمن الرحيم»، ومرة قال : «كانوا لا يقرأونها»، ومرة قال : «لم أسمعهم يقرأون بسم لله الرحمن الرحيم». وقد قال مرة أو سئل عن ذلك : «كبرت ونسيت». وقد روى شعبة، وابن علية عن أبي سلمة سعيد بن يزيد قال : «سألت أنس بن مالك أكان رسول الله – ﷺ – يفتتح القراءة في الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم، أو بالحمد لله رب العالمين، فقال : لقد سألتني عن شي ما سألني عنه أحد.

قال أبو عمر : الذي عندي أنه من حفظه عنه حجة على من سأله في حين نسيانه وبالله التوفيق.

فمن رأى قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في أول فاتحة الكتاب سرا، احتج بقول أنس عن النبي – ﷺ – وأبي بكر وعمر وعثمان، أنهم كانوا لا يجهرون بـ بسم الله الرحمن الرحيم، وأنهم كانوا يسرون بـ بسم الله الرحمن الرحيم، وأنه لم يسمعهم يقرأون بـ بسم الله الرحمن الرحيم، يعني جهرا عندهم، وروى منصور بن أبي مُزاحم قال حدثنا أبو أويس عن العَلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي – ﷺ – كان لا يجهر بـ بسم الله الرحمن الرحيم، وكذلك قول أبي هريرة في حديث مالك وغيره عن العلاء : «إقرأ بها في نفسك»، يريد لا يجهر بها.

وهذا مذهب سفيان وسائر الكوفيين وأهل الحديث : أحمد، وإسحاق، وأبي عبيد، ومن تابعهم، وقد رُوِيَ هذا الحديث عن جابر عن النبي – ﷺ – ولكن إسناده ضعيف، ولا حجة فيه؛ لأنه انفرد به محمد بن عبد الملك الأنصاري

المدني الضرير، وهو منكر الحديث عندهم متروك، نزل بغداد يحدث بها بمناكير الإسناد، ترك لذلك حديثه منها ما رواه عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : صليت خلف رسول الله - ﷺ - وأبي بكر وعمر، فلم أسمع أحدا منهم يجهر بـ بسم الله الرحمن الرحيم، وهذا لا يوجد عن جابر إلا بهذا الإسناد.

ومما احتج به من رأى قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في أول فاتحة الكتاب، ما حدثنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا جعفر بن محمد بن شاكر، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة بن حميد عن الحسن عن سَمُرة قال : كانت لرسول الله - ﷺ - سكتتانِ : سكتة إذا قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، وسكتة إذا فرغ من القراءة، فأنكر ذلك عليه عِمران بن حُصَين، فكتبوا إلى أبي، فكتب أبي أن صَدَقَ سمرة.

ومما روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان النبي - ﷺ - يجهر بقراءة بسم الله الرحمن الرحيم، وكان المشركون يقولون : نراه يدعو إله اليمامة، يعنون مسيلمة، وكانوا يسمونه الرحمن، وكانوا يهزأون، فنزلت : ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخَافِتْ بها﴾، فما جهر رسول الله - ﷺ - بعدها.

قال أبو عمر : هذه الرواية ضعيفة في تأويل هذه الآية، لم يتابعّ عليها الذي جاء بها، وفي هذه الآية أقاويل، قد ذكرتها في كتاب «الاستذكار» والحمد لله.

وأما ما روي عن الصحابة والتابعين في قراءة بسم الله الرحمن الرحيم سرا في أول فاتحة الكتاب في الصلاة، فمن ذلك ما ذكره وكيع فيما حدثناه عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا ابن وضاح، حدثنا موسى بن معاوية، حدثنا وكيع، وما ذكره عبد الرزاق فيما حدثناه خلف بن سعيد، حدثنا عبد الله بن محمد بن علي، حدثنا أحمد بن خالد حدثنا اسحاق بن ابراهيم، حدثنا عبد الرزاق، وما ذكره أبو بكر بن أبي شيبة فيما حدثنا أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي عن أبيه عن عبد الله بن يوسف عن بَقِيّ بن خلَّف عن أبي بكر، ومن غير

كتب هؤلاء أيضا، نذكر منها ما حضرنا ذِكرَه، منها ما روي عن عمر بن الخطاب من وجوه ليست بالقائمة أنه قال : لا يخفي الإمام أربعا : التعوذ، وبسم الله الرحمن الرحيم، وآمين، وربنا ولك الحمد، وروى أيضا أبو حمزة عن ابراهيم عن علقمة والأسود عن عبد الله قال : ثلاث يخفيها الإمام : الاستعاذة، وبسم الله الرحمن الرحيم وآمين، وروى حصير وحماد ومغيرة عن ابراهيم قال : يسر الإمام أربعا : الاستعاذة وبسم الله الرحمن الرحيم، وآمين، وربنا ولك الحمد، وكذلك رواه أبو عوانة واسرائيل عن منصور عن ابراهيم، وروى الثوري عن منصور عن ابراهيم قال : خمس يجهر بهن الامام : سبحانك اللهم وبحمدك، والتعوذ، وبسم الله الرحمن الرحيم، وآمين، وربنا ولك الحمد، ذكره وكيع، وعبد الرزاق عن الثوري، وروى وكيع عن أبيه عن منصور عن ابراهيم قال : أما أنا فأخفي الاستعاذة، وبسم الله الرحمن الرحيم، وذكر أبو بكر حدثنا اسحاق بن سليمان الرازي عن أبي سنان عن حمّاد، عن ابراهيم، عن الأسود قال : صليت خلف عمر سبعين صلاة لم يجهر فيها ببسم الله الرحمن الرحيم.

قال أبو عمر : هذا كله مذهب الكوفيين، وأكثر العراقيين، وكانوا يجعلون ما خالفه بدعة، وذكر ابن أبي شيبة، حدثنا هشيم، أنبأنا مغيرة عن ابراهيم قال : الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم بدعة، قال : وحدثنا وكيع عن ابنه عن مغيرة عن ابراهيم مثله، وأما أهل الحجاز فعلى خلاف ذلك، منهم من يرى السنة أن لا يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم سرا ولا جهرا، ومنهم من رأى السنة أن يجهر بها وبآمين، ويجهر بالاستعاذة والترجيع.

وممن رأى من السلف أن يقرأ ببسم الله الرحمن الرحيم سرا، ولا يجهر بها في أول فاتحة الكتاب في الصلاة، عمر وعلي وعَمار، وقد اختلف عن بعضهم فروي عنهم الجهر بها، ولم يختلف عن ابن مسعود فيما علمت أنه كان يسرها، وبه قال أبو جفر محمد بن علي بن حسين والحسن وابن سيرين، وروي ذلك عن ابن عباس، وروي عنه الجهر بها. وذكر عبد الرزاق عن اسرائيل عن ثوير بن أبي فاختة عن أبيه أن عليا كرم الله وجهه كان لا يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وكان يجهر

بالحمد لله رب العالمين. وروى المحاربي وغيره عن أبي سعيد مولى حديفة عن أبي وائل شقيق بن سلمة أن عليا وابن مسعود كانا لا يجهران ببسم الله الرحمن الرحيم. وروى الثوري وشريك عن عبد الملك بن أبي بشر عن عكرمة عن ابن العباس، قال : الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قراءة الأعراب. وروى حماد بن زيد عن كثير بن شنظير أن الحسن سئل عن الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فقال : انما يفعل ذلك الأعراب، وذكر أبو بكر حدثنا هشيم، أنبأنا ابن عون عن محمد بن سيرين أنه كان يخفي بسم الله الرحمن الرحيم، قال : وأخبرنا هشيم، أنبأنا حصين عن ابراهيم قال : كانوا لا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم. وروى وكيع عن اسرائيل عن جابر عن أبي جعفر محمد بن علي قال : لا يُجهَر ببسم الله الرحمن الرحيم. أخبرنا قاسم بن محمد قراءة مني عليه، أن قاسم بن أصبغ حدثهم، حدثنا ابن وضاح، حدثنا موسى بن معاوية، حدثنا عبيد الله بن موسى، قال : أملى علينا سفيان الثوري، قال : فاذا قمت الى الصلاة المكتوبة، فكبر وارفع يديك، ثم قل سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جَدُّك ولا اله غيرك، ثم اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في نفسك ثم اجهر بالحمد لله رب العالمين، يعني في صلاة الجهر، قال أبو عمر : وهذا قول سائر الكوفيين على ما قدمنا عنهم في صدر الكتاب والله الموفق للصواب.

ذكر ما احتج به من رأى الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم : من الآثار المروية عن الرسول ــ ﷺ ــ وعن السلف والصحابة والتابعين، ومن قال انها الآية الأولى من خاتمة الكتاب، وأنها لا تقرأ سرا إلا في صلاة السر، وقد ذكرنا القائل بذلك في صدر هذا الكتاب.

أخبرنا أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي، حدثنا أبي حدثنا الحسن بن عبد الله الزبيري، حدثنا ح.، قال ثنا أحمد بن سعيد، حدثنا عبد الله بن محمد بن طفيل، حدثنا عبد الله بن محمد بن الجارود النسابوري بمكة، أنبأنا محمد بن يحيى، أنبأنا ابن أبي مريم قال، أخبرني الليث بن سعد قال، حدثني خالد بن زيد عن سعيد بن أبي هلال عن نعيم المجمر قال : صليت وراء أبي هريرة فقرأ بسم الله

الرحمن الرحيم، ثم قرأ بأم القرآن حتى بلغ ولا الضالين فقال آمين، وقال الناس آمين، وكان يقول كلما ركع وسجد : الله أكبر، وإذا قام من الجلوس قال الله أكبر، ويقول اذا سلم، والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله ـــ ﷺ ـــ وهذا حديث محفوظ من حديث الليث عن خالد بن يزيد الاسكندراني عن سعيد بن أبي هلال، وهما جميعا من ثِقات المصريين. أما الليث فإمام أهل بلده، وقد رواه غير الليث على ما تراه في هذا الباب. وقال عمرو بن هشام البيروني : صليت خلف الليث بن سعد فكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم وبآمين. وذكر أبو يحيى الساجي عن جعفر بن محمد الفريابي عن ميمون بن أبي الأصبغ عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد، قال أخبرني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن نعيم المجمر قال : صليت وراء أبي هريرة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في أم الكتاب، وقال : اني لأشبهكم صلاة برسول الله ـــ ﷺ ـــ . أخبرني عبد الرحمن بن يحيى، أنبأنا أحمد بن سعيد ح، وحدثنا خلف بن أحمد، حدثنا أحمد بن مطرف قالا : أنبأنا عبد الله بن يحيى قال، حدثني أبي ـــ رحمه الله ـــ ، حدثنا الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن نعيم المجمر قال : صلى بنا أبو هريرة فوق سطح، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قرأ بأم القرآن حتى بلغ ولا الضالين فقال آمين، ثم كبر كلما خفض ورفع، ثم قال والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله ـــ ﷺ ـــ .

وروى ابن وهب قال، أخبرني حيوة بن شُرَيح قال، أخبرني خالد بن يزيد عن أبي هلال عن نعيم المجمر قال : صليت وراء أبي هريرة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قرأ بأم القرآن حتى بلغ ولا الضالين قال آمين، فقال الناس آمين، فلما ركع قال الله أكبر وساق تمام الحديث، قال فلما سلم قال : والذي نفسي بيده أني لأشبهكم صلاة برسول الله ـــ ﷺ ـــ .

وروى يحيى بن أيوب عن سعيد بن أبي هلال هن نعيم المجمر هن أبي هريرة مثلة بمعناه مختصر : قال أبو عمر حديث نعيم المجمر هذا يعارض حديث العلاء (اقرأ بها في نفسك) وابن أبي هلال الذي عليه يدور هذا الحديث ليس بدون

العلاء، ومما يشهد لصحة حديث ابن أبي هلال عن نعيم المجمر عن أبي هريرة ما رواه سعيد المقبري وصالح مولى التوءمة عن أبي هريرة أنه كان يفتتح ببسم الله الرحمن الرحيم، هذا لفظ رواية صالح عن أبي هريرة.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة قال، حدثنا هشيم، أنبأنا أبو معشر عن سعيد ابن أبي سعيد عن أبي هريرة أنه كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم. وقد روى حديث أبي هريرة مرفوعاً كما رواه سعيد بن أبي هلال عن نعيم المجمر عن أبي هريرة : العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة. أخبرنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا أبو يحيى بن أبي ميسرة فقيه مكة، حدثنا النضر بن سلمة، حدثنا اسماعيل بن أبي أويس عن أبيه عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة «أن النبي ــ ﷺ ــ كان اذا افتتح الصلاة جهر ببسم الله الرحمن الرحيم». قال أبو يحيى، قال لي موسى بن هارون الحمّال، هذا الحديث قد رواه عن أبي أُوَيْس عبد الله كما رواه عنه ابنه.

ومما يدل على أن بسم الله الرحمن الرحيم آية من أول فاتحة الكتاب، وأن رسول الله ــ ﷺ ــ . كان يقرأها كذلك ويجهر بها، ما وصَفَتْ أم سلمة في قراءة رسول الله ــ ﷺ ــ . حدثنا ابراهيم بن شاكر، حدثنا عبد الله بن عثمان، حدثنا طاهر بن عبد العزيز، حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو عبيدة القاسم بن سلام، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز، حدثنا جريج عن عبد الله بن مليكة عن أم سلمة أم المؤمنين : «قالت كان رسول الله ــ ﷺ ــ يُقَطِّعُ قراءته آيَةً آية : «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين». حدثنا سعيد بن نصر، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا محمد بن وضاح، حدثنا ابو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حفص بن غياث عن ابن جريج عن أبي مليكة عن أم سلمة قالت : «كان النبي ــ ﷺ ــ يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين».

حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي عن أبيه عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة : «قالت كان رسول الله ــ ﷺ ــ إذا قرأ قطع قراءته آية

آية : بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين».

وذكر الساجي، حدثنا محمد بن موسى الحرشي، حدثنا عمر بن محمد المقدومي، حدثنا نافع بن عمر الجمحي، قال سمعت ابن أبي مليكة يحدث عن أم المومنين أنها سألتْ عن قراءة النبي ــ ﷺ ــ فقالت : أوَ تَقْدِرون على ذلك «كان رسول الله ــ ﷺ ــ يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، يرتل آية آية». ذكر عبد الرزاق، أنبأنا ابن جريج قال، أخبرني عمرو بن دينار أن سعيد بن جبير أخبره «أن المومنين في عهد النبي ــ ﷺ ــ كانوا لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم، فإذا نزلت بسم الله الرحمن الرحيم علموا أن السورة قد انقضت ونزلت الأخرى. وروى هذا الحديث جماعة عن ابن جريج عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. أخبرنا عبد الله بن محمد، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا أبو داود، حدثنا قتيبة بن سعيد وأحمد بن محمد بن شبويه وأحمد بن عمرو بن السرح قالوا : حدثنا سفيان ابن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير قال قتيبة(7) عن ابن عباس «قال كان النبي ــ ﷺ ــ لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم»، وهذا لفظ ابن السرح. أخبرنا عبد الله، حدثنا محمد، حدثنا أبو داود، حدثنا هناد بن السِّرِي، حدثنا محمد بن فضيل عن المختار بن فلفل قال : سمعت أنس بن مالك يقول : «قال رسول الله ــ ﷺ ــ أُنْزِلَتْ عليَّ آنِفاً سورةٌ فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، إنا أعطيناك الكوثر حتى ختمها، ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم، قال : فإنه نهر وَعَدَنِيهِ ربِّي في الجنة».

أخبرني عبد الله بن محمد، حدثنا حمزة، حدثنا أحمد بن شعيب، أنبأنا علي ابن حجر، وحدثنا سعيد بن نصر، وعبد الوارث بن سفيان قالا : حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا محمد بن وضاح، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا علي بن مسهر عن المختار بن فلفل عن أنس قال : «بينما النبي ــ ﷺ ــ ذات يوم بين

(7) هكذا الاصل فالينتبه

أظْهُرِنَا إذ أغضَى إغْضَاءَةً، ثم رفع رأسه متبسما، قلنا ما يضحكك يا رسول الله؟ قال : نزلت عليَّ آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، إنَّا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر، ثم قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : نهر وعَدَنِيهِ ربي في الجنة، آنيتُه أكثر من عدد الكواكب ترِد عليَّ أمتي فيختلج العبد منهم، فأقول : يا رب إنه من أمتي، فيقال : إنك لا تدري ما أحدث بعدك». واللفظ لحديث النسائي.

أخبرنا قاسم بن محمد، حدثنا خالد بن سعد، حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثني محمد بن أحمد بن عبد الله عن أبي عون النسائي، قدم علينا بغداد حاجا سنة سبع وثمانين ومائتين، حدثنا علي بن حجر، حدثنا عبيد الله بن عمرو الرقي عن عبد الكريم الجزري عن أبي الزبير عن عبد الله عن عمر عن النبي ــ ﷺ ــ أنه كان اذا قام في الصلاة فأراد أن يقرأ قال بسم الله الرحمن الرحيم، قال أبو عمر : قد رفعه غيره أيضا عن ابن عمر ولا يثبت فيه، إلا أنه موقوف على ابن عمر من فعله، والله أعلم. كذلك رواه سالم ونافع ويزيد الفقير عن ابن عمر، وروى ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر أنه كان يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في أول فاتحة الكتاب، ويقرأها كذلك في السورة التي يقرأها بعدها، وكذلك رواه أبو بكر، حدثنا أبو أسامة، حدثنا عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، أنه كان اذا افتتح الصلاة قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، واذا فرغ من الحمد قرأ بسم الله الرحمن الرحيم وروى ابن وهب، حدثنا عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد عن نافع عن ابن عمر أنه كان يفتتح أم الكتاب ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم يفتتح السورة بعد بسم الله الرحمن الرحيم. ذكره السَّاجِي، حدثنا جعفر بن محمد، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه قال : صليت خلف عمر بن الخطاب فسمعته يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، قال : وحدثنا جعفر بن محمد، حدثنا أبو نعيم الحلّبي عن أبي الزبير عن ابن عمر أنه كان يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم قبل فاتحة الكتاب، واذا فرغ من السورة، ويجهر فيها، قال : وحدثنا ابن المثنى يحيى بن سعيد، حدثنا حميد، حدثنا بكر، أن ابن الزبير كان يفتتح القراءة

ببسم الله الرحمن الرحيم، قال حُمَيد : كان بكر يستفتح القراءة بالحمد لله رب العالمين، وروى وكيع عن شعبة عن الأزرق عن قيس قال : سمعت ابن الزبير قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، فلما ختمها قرأ بسم الله الرحمن الرحيم. وروى اسحاق بن راهوية عن المعتمر بن سليمان قال : سمعت اسماعيل بن جحاد يذكر عن أبي خالد عن ابن عباس أن رسول الله ــ ﷺ ــ كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وذكره الساجي عن يحيى بن حبيب بن عربي عن معتمر ابن سليمان باسناده مثله إلّا أنه قال : إنّ نبي الله ــ ﷺ ــ كان يفتتح ببسم الله الرحمن الرحيم.

قال أبو عمر : الصحيح في هذا الحديث أيضا والله أعلم أنه رُوِي عن ابن عباس، فعله لا مرفوعا إلى النبي ــ ﷺ ــ وروى وكيع عن سفيان عن عاصم ابن أبي النجود عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وذكره الساجي عن بندار عن ابن مهدي عن سفيان الثوري عن عاصم، قال : سمعت سعيد بن جبير يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في كل ركعة. وروى عبد الرزاق عن ابن جريج قال : أخبرني أبي أن سعيد بن جبير، أخبره عن ابن عباس قال في قوله الله تعالى : «**ولقد آتيناك سبعا من المثاني**» قال : هي أم القرآن، قال عبد الرزاق قرأها عليّ بنُ جريج بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، اياك نعبد واياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آية آية، وقال : قرأها عليّ أبِي كما قرأتُها عليك، وقال قرأها علي ابن جبير كما قرأتها عليك، وقال ابن عباس قد أخرجها الله لكم وما أخرجها لأحد قبلكم، يعني فاتحة الكتاب السبع المثاني، قال عبد الرزاق وابن عمرو عن معمر بن دينار عن ابن عباس، أنه يفتتح ببسم الله الرحمن الرحيم.

أخبرنا ابراهيم بن شاكر، حدثنا عبد الله بن عثمان طاهر بن عبد العزيز، أنبأنا علي بن عبد العزيز، أنبأنا أبو عبيد القاسم بن سلام، أخبرنا حجاج عن ابن جريج عن أبيه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله عز وجل

(ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآنَ العظيم) قال هي أم القرآن استثناها الله لأمة محمد ــ ﷺ ــ وأخرها حتى أخرجها لهم، ولم يعطها أحداً قبل أمة محمد، قال سعيد : ثم قرأها ابن عباس، وقرأ فيها بسم الله الرحمن الرحيم. قال ابن جُرَيْج قلت لأبي: أخبرك سعيد بن جبير عن ابن عباس قال له : بسم الله الرحمن الرحيم آية من فاتحة الكتاب؟ قال: نعم. وروى حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم يقول هو شيء اختلسه الشيطان من عامة الناس.

وقد روي عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، أنهم كانوا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم، والطرق عنهم ليست بالقوة، وقد قدمنا الاختلاف عنهم في ذلك. رويَ عن عمر ــ رحمه الله ــ فيها ثلاث روايات :أحدها أنه كان لا يقرأها، والثانية أنه كان يقرأها سراً، والثالثة أنه كان جهر بها. وكذلك اختلف عن أبي هريرة في الجهر بها والإسرار، ففي حديث العَلاء: «إقرأ بها في نفسك يا فارسي»، وفي حديث نُعيم المجَمّر أنه كان يجهر بها ويقول أنَا أشبَهُكم بصلاة رسول الله ــ ﷺ ــ وكذلك اختلف عن ابن عباس، والأكثر عنه والأشهر الجهر بها، وأنها أول آية من فاتحة الكتاب، وعليه جماعة أصحاب ابن عباس الفقهاء وأهل العلم بتأويل القرآن، ولا أعلم أنه اختلف في الجهر بها في فاتحة الكتاب عن ابن عمر وشداد بن أويس، وعبد الله بن الزبير، وهو قول سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد وطاوس وعكرمة ومكحول وعمر بن عبد العزيز وابن شهاب الزهري ومحمد بن كعب القرظي، وهو أحد قولَيْ ابن وهب صاحب مالك، وروى مُعاد بن معاذ عن حميد الطويل عن بكر بن عبد الله المُزَني قال : كان ابن الزبير يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم. أخبرنا ابراهيم بن شاكر، حدثنا عبد الله بن عثمان، حدثنا طاهر بن عبد العزيز. حدثنا أبو عبيد القاسم بن سَلّام، أخبرنا حسان بن عبد الله عن المفضل بن فضالة عن أبي صخر حميد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي، قال : فاتحة الكتاب سبع آيات بسم الله الرحمن الرحيم، قال المفضل، وكان ابن شهاب يقول : من ترك بسم الله الرحمن الرحيم،

فقد ترك آية من فاتحة الكتاب، أو قال من السورة. وبه عن أبي عبيد أنبأنا ابن أبي مريم عن عبد الجبار ابن عمر أنه سمع كتاب عمر بن عبد العزيز يقول: أن استفتحوا ببسم الله الرحمن الرحيم. وروى المعتمد ابن سليمان، أنبأنا أبو المقدام قال : صليت خلف عمر بن عبد العزيز فسمعته يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، وعن المعتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي قلابة أنه كان يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، وكان عمر بن عبد العزيز يحمل الناس على عمل أهل المدينة.

ومما يدل على أنه كان من عمل أهل المدينة، الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ما ذكره الشافعي قال : حدثنا عبد المجيد بن عبد العزيز، حدثنا ابن جريج، أخبرني عبد الله بن عثمان بن خَيْثَم، أن أبا بكر بن حفص بن عمر بن سعد أخبره أن أنس بن مالك أخبره قال : صلى معاوية بالمدينة صلاة يجهر فيها بالقراءة فلم يقل بسم الله الرحمن الرحيم، ولم يكبر في الخفض والرفع، فلما فرغ ناداه المهاجرون والأنصار: يامعاوية، نقصتَ الصلاة، أين بسم الله الرحمن الرحيم، وأين التكبيرة اذا خفضت ورفعت ؟ فكان اذا صلى بهم بعد ذلك قرأ بسم الله الرحمن الرحيم وكبر. وذكر هذا الخبر عبد الرزاق وغيره عن ابن جريج عن نافع عن ابن عمر قال الشافعي : وأخبرنا عبد المجيد عن ابن جريج عن نافع عن ابن عمر أنه كان لا يدع بسم الله الرحمن الرحيم لأم القرآن والسورة التي بعدها. وذكر الساجي حدثنا عبد الواحد بن غياث، حدثنا حماد بن زيد، أنبأنا أيوب عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه كان يستفتح ببسم الله الرحمن الرحيم يجهر بها، وكان يقول : انما ذلك شيء سرقه الشيطان من الناس. وذكر عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء قال : لا أدع قراءة بسم الله الرحمن الرحيم أبدا لأم القرآن والسورة التي بعدها قال : وأنبأ معمر عن الزهري مثله قال وأنبأ معمر عن الزهري في قول الله تبارك وتعالى : (وألْزَمَهُم كلمةَ التقوى) قال بسم الله الرحمن الرحيم حين لم يقرأ المشركون بسم الله الرحمن الرحيم.

قال أبو عمر : حين لم يقرأ بها سُهَيْلُ بن عمرو العامري وأصحابه الذين عقدوا الصلح مع النبي ــ ﷺ ــ عام الحديبية في انصرافه عنهم الى العام

القابل، وأبوا أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وفي ذلك نزلت سورة الفتح في قوله تعالى : (وألزمهم) يعني المومنين (كلمة التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلها) وقد قيل في قوله تعالى : (وألزمهم كلمة التقوى) لا اله الا الله، وقول ابن شهاب في ذلك يعضده الآثار في صلح الحديبية ونزول سورة الفتح، والله أعلم.

وكان مكحول يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، فكُلِّمَ في ذلك فأبى إلا أن يجهر بها، وروى الوليد بن مسلم عن الهيثم بن جميل عن النعمان بن المنذر عن مكحول قال : لا يقرأ بفاتحة الكتاب حتى يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، وقال عطاء الخراساني : الجهر بها حسن جميل، قال عكرمة : لا يصلى خلف من لا يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، وكان طاوس يقرأ ببسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب، ولا يقرأها في السورة التي بعدها، وخالفه عطاء وأكثر أصحاب ابن عباس في ذلك، فكانوا يقرأونها في فاتحة الكتاب وفي السورة التي يقروءون بعدها، وكان مالك بن أنس يرى قراءتها في النوافل في فاتحة الكتاب، وفي سائر سور القرآن، وهو قول محمد بن الحسن، وكان الشافعي يرى قراءتها في الصلوات المكتوبات وفي النوافل فرضا؛ لأنها عنده آية من فاتحة الكتاب، ولا صلاة عنده لمن لم يقرأها بتمامها في كل ركعة، ومن أسقط عنده منها حرفا واحدا لم تجزئه صلاته، ولم تصح له الركعة منها اذا لم يقرأ أم القرآن كلها فيها.

ومذهب أحمد بن حنبل الإسرار ببسم الله الرحمن الرحيم كمذهب الكوفيين، وقال : لا يجهر بها أحد إلا في قيام رمضان في غير فاتحة الكتاب بين السورتين، فانه من فعل ذلك فلا شيء عليه. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول : يقرأ الرجل بسم الله الرحمن الرحيم في أول سورة في قيام رمضان والذي يختم القرآن يقرأ كما في المصحف يعجبني ذلك.

حدثنا احمد بن قاسم، حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي دليم، حدثنا محمد بن وضاح، حدثنا يحيى بن عبد الله بن نافع، قال : لا أرى لأحد أن يترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فريضة ولا نافلة. وروى أبو ثابت عن ابن نافع عن مالك

قال : لا بأس أن تقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في الفريضة والنافلة، ولا يصح هذا عندنا عن مالك، والله أعلم، وانما هو صحيح عن ابن نافع. أخبرنا أبو محمد قاسم بن محمد، حدثنا خالد بن سعيد وأنبأنا عبد الرحمن بن يحيى، حدثنا أحمد ابن سعيد قال : حدثنا سعيد بن عثمان الأعناقي، أنبأنا عبد الله بن محمد بن خالد، أنبأنا أصبغ بن الفرح قال : كان ابن وهب يذهب الى الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم رجع الى الإسرار بها(8).

(آخر الكتاب والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه. حسبي الله ونعم الوكيل).

تعليق :

1 ــ ان ابن عبد البر لم يُبْدِ رأيه في قراءة البسملة، وعدم قراءتها بصراحة ووضوح، ولكنه يستخلص من سياق كلامه أنه يقول بوجوب قراءتها جهرا في الجهر، وسرا في السر كالشافعي.

2 ــ إنه سمى هذه الفتوى كتابا، بينما هو في الحقيقة فتوى من الفتاوي الكثيرة، التي تركها منثورة في بطون كتبه المختلفة؛ لأنه ــ كما في مقدمتها ــ أجاب من استفتاه.

---

(8) عنيت بنشرها وتصحيحها والتعليق عليها ادارة الطباعة المنيرية لصاحبها ومديرها ومحمد منير عبده أغا الدمشقي بمصر.

الفصل السابع

مقاطع من شعره

إنّ ابن عبد البر ــ رغم اشتغاله بالحديث والفقه والتاريخ والتأليف والتدريس ــ فإنه كان يقول الشعر وينظمه، ولكن لم يصلنا منه إلّا مقاطع صغيرة، وأبيات متفرقة، منثورة هنا وهناك في بطون الكتب المختلفة، تدل على براعته، وفنه الرائع.

وكان يقول الشعر على السرعة والبديهة، إذ عده المَقرّى في هذا الميدان، من الشعراء الأندلسيين المتوقدي الذهن، والسريعي البديهة[1]

ويغلب على شعره طابع الحكمة والنصح والزهد، خاصة في العلم والحض عليه.

أما أسلوبه فيمتاز بالرصانة والمتانة، ولا شك أنه كان يتبع عمود الشعر الذي يتكون ــ كما هو معلوم ــ من المراحل الأربعة.

هذا وسأكتفي هنا بإثبات بعض المقاطع التي عثرت عليها من خلال كتبه، أو كتب غيره، إتماماً لآثاره، أما جمعه وتدوينه وتحليله، فقد تركته الى النقاد، ودارسي الأدب الأندلسي.

** 1 **

كره ابن عبد البر التأسف على الديار، لعلمه أنه لا يجدي ولا يدفع عادية الدهر الخؤون، ونهى عن البكاء على الزمن لما في ذلك من تجديد المصاب المجَرِّع لصاحبه الضاب والأوصاب، فدعا إلى ترك ذلك الى الصدَى والبُوم.

(1) نفح الطيب ــ ج 4/28،29 ــ تحقيق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر بيروت.

عفت المنازل غير أرسم دمنة حبيبتها من دمنة ورسوم
كم ذا الوقوف ولم تقف في مشيك كم ذا الطواف ولم تقطن بحريم
فكل الديار الى الجنائب والصبا ودع القفار الى الصدى والبوم[2]

** 2 **

وصف أثر الحب والطاعة للحبيب في نفس المحب وجسمه :

إن الذي أصبحت طوع يمينه إن لم يكن قمرا فليس بدونه
ذلي له في الحب من سلطانه وسقام جِسمي من سقام جفونه

** 3 **

دخوله اشبيلية، وتصور معاملة أهلها له، حيث لم يلق فيها مبرة، ولم يلق من أهلها تهلل أسرة، قام بها، حتى أخلقه مقامه، وأطبقه اغتمامه، فارتحل وقال :

وقائلةٍ مالي أراك مرحِّلا فقلت لها صَه واسمعي القول مجملا
تنكر مَن كُنا نُسَرُّ بقربه وعاد زُعَاقاً بعد ما كان سَلْسَلا
وحُقَّ لجار لم يوافقه جاره ولا لآءمته الدار أن يترحلا
بليت بحمص[3] والمقامُ ببلدة طويلا لعمري مُخْلق يورث البِلا
اذا هان حر عند قوم أتاهم ولم ينأ عنهم كان أعمَى وأجهلا
ولم تُضْرب الأمثالُ إلا لِعالم ولا عُوتب الانسان الا ليَعقلا[3]

** 4 **

رده على من أنكر أكلة طعام الأمراء.

قل لمن ينكر أكلي لطعام الأمراء
أنت في جهلك هذا في محل السفهاء[4]

---

(2) نفح الطيب ــ ج 505/1، تحقيق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر ــ بيروت.
(3) «بهجة المجالس وانس المجالس» لابن عبد البر ــ÷ 244/1 ــ الطبعة 1 القاهرة، نفح الطيب ــ 30/4، تحقيق محمد محيي الدين ع. الحميد.
(4) نفح الطيب ــ ج 135/3، تحقيق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر ــ بيروت.

** 5 **

رده على من إذا سئل عن الشيء قال هو عندي في الطاق أو في الصندوق، وانما العلم هو ما يكون في الصدر، ويحفظ في الأذهان بالجد والكد، لا بِراحة الجسم والنفس.

يا من يرى جمع المال والكتب ... خدعت والله ليس الجِد كاللعب
العلم ويحك ما في الصدر تجمعه ... حفظا وفهما وإتقانا فِداك أبي
لا ما توهمه العِندي من سفه ... اذ قال ما تبتغي عندي وفي الكتب
قال الحكيم مقالا ليس يدفعه ... ذو العقل من كان من عجم ومن عرب
ما إن ينال الفتى علما ولا أدبا ... براحة النفس واللذات والطرب
نعم ولا باكتساب المال تجمعه ... شَتَّان بين اكتساب العلم والذهب
أليس في الانبياء الرسل أُسْوتُنا ... عليهم صلوات الرب ذي الحجب
حازوا العلوم وعنهم جملة ورثت ... وعاش أكثرهم جهدا بلا نشب
إن الحياء لخيرٌ كله أبدا ... ما لم يَحُلْ بين نفس المرءِ والطلبِ
وكل ما حال دون الخير لم يكن في ... ما بين ذاك الخير من نسب(5)

** 6 **

أجل العلوم عند ابن عبد البر هي العلوم الدينية، ولذا فهو لا يذهب مذهب من يعتبر العلوم التي تقيم الألسن، هي أصل العلوم وأرفعها، وفي ذلك قال :

وإذا طلبت من العلوم أجلّها ... فأجلُّهـا منها مقيم الألسن
العلم يرفع كل بيت هيِّن ... والفقْهُ يَجمُل باللبيب الدين
والحر يُكرَم بالوقار وبالنُّهَى ... والمرءُ تحقِـره إذا لم يَرْزن
فإذا طلبت من العلوم أجلها ... فأجلها عنـد التَّقِـي المومـن

(5) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 110/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.

علم الديانة وهو أرفعها لدى كل امرىء متيقظ متدين
هذا الصحيح ولا مقالة جاهل فأجلها منها مقيم الألسن
لو كان مهتديا لقال مبادرا فأجلها منها مقيم الأدْيُن[6]

** 7 **

ذكر ابن عبد البر أنه لم يجد أحدا يبكي عليه الا العلم بالدين، فقال :

تذكرت من يبكي علي مداوما فلم أَلْقَ إلا العلم بالدين والخبر
علوم كتاب الله والسنن التي أتت عن رسول الله مع صحة الأثر
وعلم من ناقديه وفهم ما له اختلفوا في العلم بالرأي والنظر[7]

** 8 **

وأنشد أيضا في نفس الموضوع :

مقالة ذي نصح وذات فوائد إذا من ذوي الألباب كان استماعها
عليكم بآثار النبي فإنه من أفضل أعمال الرشاد اتباعها[8]

**9 **

وقال يوصي ابنه بالتقوى والزهد في الدنيا ومغرياتها، وشكر الله تعالى :

تجافَ عن الدنيا وهون لقدرها ووَفِّ سبيل الدين بالعروة الوثقى
وسارع بتقوى الله سرا وجهرة فلا ذمة أقوى ــ هُديتَ ـمن التقوى
ولا تنسَ شكر الله في كل نعمة يَمُن بها فالشكر مستجلِبُ النّعمَى
فدع عنك ما لا حظ فيه لعاقل فان طريق الحق أبلجُ لا يخفى
وشح بأيام بقين قلائل وعمر قصير لا يدوم ولا يبقى

(6) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 67/1 ــ دار الفكر بيروت.
(7) نفح الطيب ــ ج 327/4، تحيقي د. احسان عباس، توزيع دار الفكر ــ بيروت.
(8) نفس المصدر السابق.

ألم تر أن العمر يمضي موليا فجدته تبلى ومدته تفنى
نخون ونلهو غفلة وجهالة وننشر أعمالا وأعمارنا تطوى
توصلنا فيه الحوادث بالردى وتنتابنا فيه النوائب بالبلوى
عجبت لنفس تبصر الحق بينا لديها وتأبى أن تفارق ما تهوى
وتسعى لما فيه عليها مضرة وقد علمت أن سوف تُجزَى بما تسعى
ذنوبي أخشاها ولست بآيس وربي أهل أن يُخاف وأن يرجى
وان كان ربي غافرا ذنب من يشاء فاني لا أدرى أأكرمُ أمْ أخزى[9]

داء حب الرياسة والأمراض التي تصيب صاحبها، من حقد وحسد وبغض :

حب الرياسة داء يخلف الدنيا ويجعل الحب حربا للمحبينا
يغري الحلاقم والأرحام يقطعها فلا مروءة تبقى ولا دينا
من ساد بالجهل أو قبل الرسوخ فلا تراه الا عدوا للمحقينا
يبغي ويحسد قوما وهو دونهم ضاهى بذلك أعداء النبيينا[10]

*** 11 ***

وقال يذم التقليد والمقلدين من القضاة والمفتين وغيرهما، ويحث على الرجوع الى الكتاب والسنة، وفتاوي الصحابة والاجماع والقياس :

يا سائلي عن موضع التقليد خذ عني الجواب بفهم لب حاضر
واصغ الى قولي ودن بنصيحتي واحفظ علي بوادري ونوادري
لا فرق بين مقلد وبهيمة تنقاد بين جنادل ودعاثر
تبّاً لقاض أو لمفتٍ لا يرى عللا ومعنى للمقال السائر
فإذا اقتديت فبالكتاب وسنة المـ ـبعوث بالدين الحنيف الطاهر
ثم الصحابة عند عدمك سنة فأولاك أهل نهى وأهل بصائر

(9) نفح الطيب — ج 28/4، تحقيق 29، تحقق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر — بيروت.
(10) جامع بيان العلم وفضله — ج 174/1 — دار الفكر — بيروت.

وكذلك اجماع الذين يلونهم ... من تابعهم كابرا عن كابر
اجماع أمتنا وقول نبينا ... مثل النصوص لدى الكتاب الزاهر
وكذا المدينة حجة إن أجمعوا ... متتابعين أوائل بأواخر
واذا الخلاف أتى فدونك فاجتهد ... ومع الدليل فمِلْ بفهم وافر
وعلى الأصول فقِسْ فروعك لا تقِسْ ... فرعا بفرع كالجهول الحائر
والشر ما فيه ــ فدونك ــ أسوة ... فانظر ولا تحفل بذلة ماهر[11]

وقال يصف كتابه «التمهيد» وما عاناه في سبيل ذلك :

سمير فؤادي من ثلاثين حجة ... وصاقل ذهني والمفرج عن همي
بينت لهم فيه من كلام نبيهم ... ما في معانيه من الفقه والعلم
وفيه من الآداب ما يهتدى به ... الى البر والتقوى ونهي عن الظلم[12]

** 13 **

وقال وقد دخل على الشيخ أبي الوليد بن عباد عائدا له من بطن كان يشكوه متألما مما أصابه، ومقدما له النصح والدواء :

يا سليل الكرام من آل لخم ... وأخا الرأي والدَّهَا والوفاء
ان لي من سقام جسمك سقما ... ثابتا في الفؤاد والأحشاء
وبقلبي مما بجسمك ضعف ... للذي تشتكي من الأدواء
وبودي لو كنت عندك فداءا ... بدلا عند هجمة الضراء
فاقبل النصح سيدي واسمع القو ... ل فاني أحكي عن الحكماء
لا يداوى الإسهال بالاحتساء ... لا ولا بالأمران والباقلاء
انما الطب طردك الضد بالضـ ... ـد ودفع الأهواء بالاحتماء

(11) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 140/2، 141 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(12) المدارك ــ للقاضي عياض ــ ج 809/4 ــ ط. بيروت، وفيات الأعيان ج 55/6.

حسم ذا الداء ما كان قوتا يالف الطبع في قوام الغذاء
وعليك الدعاء فالله يشفي ليس شاف سواه من كل داء
نعم عون العليل توبة صدق وكذا البر جالب للشفاء
وسلام عليك مني أبدا ما جرى الدمع قاطعا للسماء[13]

(13) بهجة المجالس وانس المجالس ــ ج 391/1 ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة.

الباب الثالث

ثقافته وآراؤه ومناهجه

توضيح وتقسيم :

بعد دراسة حياة ابن عبد البر وآثاره، ارتأيت أن أضيف اليهما ثقافته وآراءه ومناهجه، تتميميا للبحث، وكنتيجة طبيعية ومنطقية، وتتويجا لدراسة حياته وآثاره.

لذا عقدت بابا ثالثا بعنوان : (ثقافته، وآراؤه، ومناهجه)، تناولت فيه مميزات ثقافته، وأنواع معارفه، وآرائه، ونظرياته في العقائد والسياسة، وفي الرأي والاجتهاد، ثم وصفا مقتضبا لفقهه ومناهجه. أما فقه السنة المقارن، واجتهاداته، فقد تركته للأطروحة لنيل الدكتورة.

وعليه، سأقسم هذا الباب الى الفصول التالية :

- الفصل الأول : (ثقافته وأنواع معارفه).
- الفصل الثاني : (آراؤه ونظرياته).
- الفصل الثالث : (مناهجه).

الفصـل الأول

ثقافته وأنواعهـا

أريد أن أبين في هذا الفصل جوانب علمه، ومدى ثقافته، وكيف تكونت تلك الثروة العلمية الهائلة، ثم أنواع معارفه ومميزاتها.

أولا : ثقافته وعواملها :

إن ابن عبد البر وهب حياته الطويلة للعلم، وأخلص له، ولم يفرق في إخلاصه هذا بين نوع وآخر، بل كل ما يملك من القدرة والطاقة، حتى حصل على ثروة هائلة من العلم والمعرفة.

ومن العسير أن يصور الدارس مدى ثقافة ابن عبد البر، لتشعب هذه الثقافة، وشمولها لجميع أنواع المعرفة في عصره، فهو متعمق في الحديث وعلومه ورجاله ورواياته، واسع الاطلاع في الفقه وأصوله وخلافه، وعارف بآراء أهل المذاهب الأخرى، ويجمع الى ذلك اطلاعا واسعا باللغة وقواعدها، والأدب وفنونه، والتاريخ والسِّير والأخبار والتراجم، وقد قرأ كثيرا من مؤلفات أهل بلده، ومن كتب أهل المشرق. هذا اللأى قدرة فائقة في تفسير آيات الأحكام وتأويلها، وعقلية جبارة في التجريح والتعديل.

فإن ابن عبد البر عبارة عن دائرة المعارف الاسلامية، وموسوعة علمية كبرى، سجلت جميع أنواع المعارف، فهو كشكول الثقافة، اذ كان يلتهم كل ما وجد في طريقه من العلوم والفنون، حتى الفلكية والطبية، مثله في ذلك مثل الجاحظ في التنوع والشمول، لكن الجاحظ كان ميالا للفنون العلمية والأدبية، وابن عبد البر كان ميالا للعلوم الاسلامية، كالحديث والفقه.

وتمتاز ثقافة ابن عبد البر بالأصالة والعمق، والواقعية، والتحليل المنطقي والنقلي، وبكثرة تنوعها، ووفرة مصادرها، فهي عميقة واسعة الأطراف، متعددة الجوانب[1]، وقائمة على الكتاب والسنة والأثر، وأقوال الأئمة، لا يعدو الى غيرها، وأن العلوم الأخرى كانت عنده بمثابة الآلات للوصول الى معاني الكتاب والسنة[2]، أما الحساب والنجوم فقد درسه للاطلاع، لا للعمل بها[3].

ويبدو هذا الشمول والتنوع والأصالة في جميع مؤلفاته العديدة التي ضمت بين دفتيها كتبا ومصادر كثيرة يدهش المرء لها، حتى حصل على شهرة واسعة في الأندلس وخارجها، وعلا ذكره في الأقطار والآفاق[4].

وقد صور الفتح بن خاقان ثقافة ابن عبد البر ومعارفه أحسن تصوير وأدقه، فقال في مطمح الأنفس :

«أبو عمر يوسف بن عبد البر الفقيه، الإمام العالم، الحافظ، إمام الأندلس وعالمها، الذي التاحت به معالمها، صحح المتن والسند، وميز المرسل من المسند، وفرق بين الموصول والقاطع (المنقطع)، وكسا الملة منه نور ساطع، حصر الرواة وأحصى الضعفاء منهم والثقات،، وجد في تصحيح السقيم، وحدد ما كان منه بالكهف والرقيم، مع مُعْلَنَاتِ العِلل، وإرهاق ذلك العلل، والتنبيه والتوقيف، والإتقان، والتثقيف وشرح المقفل، واستدراك المغفل، وله فنون هي للشريعة رتاج، وفي مفرق الملة تاج، أشهرت للحديث ظُبَى، وفرعت للمعرفة ربَى، وهبت لتفهمه شمالا وصبا، وشقت منه وصبا، وكان ثقة، والأنفس على تفضيله متفقة.

وأما أدبه فلا تُعبرَ لجَّته، ولا تُدحضُ حجته، وله شعر لم نجد منه الا ما نفث به أنفه، وأقصى فيه عن معرفة[5].

---

(1) ابن حزم، لأبي زهرة — ص 80.

(2) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر — ج 1/35،36 — الطبعة 1، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

(3) جامع بيان العلم وفضله — ج 2/47 — دار الفكر — بيروت.

(4) المدارك — ج 4/808،809 — طبعة بيروت.

(5) المقري : نفح الطيب — ج 4/29، 30 — تحقيق د. احسان عباس، نشر دار الفكر بيروت.

وقد بلغ ابن عبد البر الذروة في فقه السنة، حتى أطلق عليه؛ إمام محدِّثي الأندلس[6]، وبلغ القمة في الفقه وخلافه.

ومن أهم العوامل التي ساعدته على الوصول الى هذه القمة، وتلك الدرجة الرفيعة في الثقافة والمعرفة : الوراثة والبيئة، والمواهب العقليةّ والطبيعية، ثم غشيان مجالس العلم والمكتبات والدراسة الحرة.

أ ــ الوراثة والبيئة :

ان للبيئة المكانية والزمانية دورا عظيما في تكوين العباقرة والمفكرين، وكذلك الوراثة، فهي عامل مهم في تكييف الانسان وتوجيهه. وبيئة ابن عبد البر كانت بيئة علمية وأدبية رفيعة، سواء منها البيئة الخاصة ــ أسرته ــ أو البيئة العامة ــ موطنه ــ والظروف الثقافية والاجتماعية.

نحن نعلم أن ابن عبد البر انحدر من سلالة عربية أصيلة، ونما وترعرع بين أسرة كريمة، وفي بيت علم وصلاح، وثقافة وعرفان. فجدُّه كان فقيها عابدا متهجدا[7]، يحب العلم والمعرفة والعبادة، وأبوه[أ] كان أيضا من الفقهاء المشهورين في قرطبة[8]، أخذ عن كثير من شيوخها وفقهائها[9]، وسمع الناس منه وأخذوا عنه، كما كان أديبا وكاتبا، وقد سجل التاريخ له رسائل جيدة تمتاز بالبراعة والبلاغة، وترك عدة أشعار، كما ترك وراءه موسوعات بخط يده أشار اليها ابنه يوسف بنُ عبد البر في كتابه[10]، بل ذكر كثيراً منها في مؤلفاته، ورغم أن ابن عبد البر لم يسمع من أبيه شيئا من الفقه والحديث، فإنه بلا شك رباه وعلمه المبادىء الأولية، ووجهه الوجهة التي سار عليها في المسائل، والتي رسمها له أبوه، فمن غير المعقول أن يعيش الابن مع الأب الفقيه الأديب، اثنتي عشرة سنة، ولا ياخذ منه شيئا، فمن

(أ) أعدت الكلام هنا على أبيه وجده لتصوير البيئة العائلية أحسن تصوير.

(6) نفح الطيب ــ ج 767/2 ــ تحقيق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر بيروت.
(7) ابن الآبار : التكملة 171/1. نشر عزت العطار سنة 1375 ــ 1956.
(8) القاضي عياض : ترتيب المدارك ــ ج 550/4 ــ ط. بيروت.
(9) نفس المصدر السابق.
(10) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 69/1، والصلة ــ ج 239/1 ــ ط. مجريط.

المرجح أن أباه هو معلمه الأول، وهو مؤدبه الأساسي، ووجود جد فقيه وصالح، وأب فقيه مشهور، وأديب بارع البلاغة، بجانب ابن صغير يتوقد ذهنه، لا نشك أنه عمل عمله في توجيه ذلك الابن. ومن المتفق عليه أن للوراثة أثرا بعيدا وعميقا في تكوين الميول الفطرية والإعداد الذهني، لجل العباقرة، لذا فإن ابن عبد البر ورث كثيرا من أبيه، ومن ذلك الإرث، المميزاتُ العقلية، والجذور الثقافية، فالأسرة ــ ومنها الأب ــ هي البيئة الأولى في توجيه الطفل، وتكوين ذهنه، وهي اللبنة الأساسية في بناء صرح المستقبل الثقافي.

إذن فهذه العبقرية ــ عبقرية ابن عبد البر ــ هي من بصمات أبيه وأسرته، والمحيط الذي نشأ فيه.

وبجانب هذا العامل الأسروي، وهذه البيئة الثقافية الخاصة، كانت هناك بيئة ثقافية أخرى عامة، وهي مدينة قرطبة في الأندلس كلها، فقد كانت قرطبة(أ) بيئة ثقافية من الطراز الأول، حيث كانت تحتل مكانة ممتازة في العالم الاسلامي والأوربي معا، فجامعتها كانت تعج بالمجالس العلمية، والعلماء يقصدونها من كل جهات العالم حيث كان أبو بكر القرشي يدرس فيها[11]الحديث، والأديب الكبير أبو على القالي يحاضر في الأدب، وابن القوطية يعلم النحو[12]، وجاء بقي بن مخلد من المشرق، ملأ الأندلس بالحديث وبروايته، ثم تلاه ابن وضاح، فصارت الأندلس دار حديث واسناد[13]، ونشأ بها حفاظ مقدمون منهم خالد بن سعيد القرطبي الذي كان المستنصر يقول فيه : «اذا فاخرنا أهل المشرق ببحي بنِ مَعِين، فاخرْناهم بخالد بن سعد[14].

وكان الأندلسيون يتطلعون الى المشرق في القرنين : الثالث والرابع يستوردون النابغين من علمائه، ويجزلون لهم العطاء، ويتنافسون في الحصول على آثار المشارقة

(أ) سبق الكلام عليها بشيء من التفصيل أكثر من هذا في المدخل.

(11) الحلة السيراء ص 101،103، ونفح الطيب ــ ج 356/1.

(12) نفس المصدر السابق.

(13) تاريخ علماء الأندلس ــ ج 108/1 ــ 105.

(14) تاريخ علماء الأندلس ــ ج 130/1 ــ 131 ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة.

تنافسا كبيرا، ويبذلون في ذلك الأموال، حتى بذل الخليفة الحكم ألف دينار للأصفهاني ليظفر بكتابه «الأغاني» قبل أن يعرف بالمشرق، وكان ينافسهم في استنساخ الكتب وإنشاء المكتبات[15]، وقد اشتهرت قرطبة بمسجدها الجامع، كما عرفت بكثرة علمائها ومكتباتها ورغبة أهلها في العلوم واقتناء الكتب[16]، وكان أهل قرطبة يهتمون بالقراءات، والروايات وحفظ الحديث والفقه، وغيرها من الفنون.

وإذا كانت الأندلس في القرن الخامس انقسمت الى إمارات متنافسة، فإن هذا التقسيم السياسي أنتج حركة علمية وأدبية هائلة، كان سببها تنافس الأمراء في فنون الآداب والعلوم، حتى أصبحت الأندلس جامعة كبيرة مساحتها كل التراب الأندلسي، من مشرقه الى غربه.

في هذا الجو العلمي الهائل، وفي تلك الأسرة العالمة، تربى وترعرع ابن عبد البر، وتنفس من عبيره، واستنشق من نسيمه، فكان له خير معين، وأفضل عامل له في تثقيف نفسه.

ب ــ مواهبه :

لقد وهب الله ابنَ عبْدِ البر مواهب وقدرات عقلية هائلة، أهمها الحفظ والصبر، وحبه للعلم والاخلاص له، ولنتكلم عليها بالترتيب، مبرزين كل مميزاتها وخصائصها :

1 ــ الحفظ : لقد تميز ابن عبد البر بحافظة قوية، وذاكرة واعية تختزن كل ما تسمعه وكل ما تراه. وهذه الموهبة أعطاها الله لجميع المحدثين والأئمة، كالإمام مالك، وابن حنبل، وغيرهما، ومنهم ابن عبد البر الذي وصفه بها كثير من المؤرخين والمترجمين له، فقد قال فيه الحميدي : «فقيه حافظ[17]»، ومثله لأحمد الضبي[18] ، وقال ابن الأبّار فيه أيضا : «أبو عمر الحافظ[19]»، وقال القاضي

(15) المغرب ــ 45/1.

(16) تاريخ الأدب الأندلسي ــ عصر سيادة قرطبة ص 20 ــ دار الثقافة بيروت ــ لبنان.

(17) الجذوة ــ/344 ــ طبعة مصر.

(18) البغية /474 ــ ط. 3، والصلة مجلد 617/2 ــ ط. مجريط 1884.

(19) التكملة ــ ج 371/1. نشر عزت العطار سنة 1375 ــ 1956.

عياض : «أبو عمر الحافظ» وأحفظ من كان في الأندلس[20]، وقد ضرب المثل به حتى صار الناس يقولون : إن ابن عبد البر حافظ المغرب، والخطيب البغدادي، حافظ المشرق[21]. ومن شهادة هؤلاء بحفظ ابن عبد البر، نستنتج أن الحافظة في عصر ابن عبد البر كانت الوسيلة الوحيدة للعلم والمعرفة، اذ بها يستطيع العالم أن يناقش ويكتب ويؤلف في وقت كانت فيه الكتب قليلة، والطباعة عديمة، والمواصلات مفقودة، فالكتاب اذا أُلّف في المشرق فلا يصل الى المغرب إلا بعد مدة طويلة. ولعل الحفظ، وشدة الوعي على هذا الشكل، كان ينميه اعتماد الناس على ذاكرتهم في ذلك الزمن؛ لأن العلم كان لا يؤخذ من بطون الكتب، بل كان يوخذ من أفواه الرجال، حيث كانت أحاديث رسول الله ــ ﷺ ــ غير مدونة، أو دونت ولم تصل الى مستوى النشر، ولهذا كان يضطر الطلبة الى الحفظ وتقييد العلوم في كراستهم، ربما يحفظونها في بيوتهم.

على كل حال فإن ابن عبد البر كان من الحفاظ الكبار، وإن أغلب علمه كان في صدره، فقد حض هو نفسه على ذلك حيث قال :

يا من يرى جمع المال والكتب ... خدعت والله ليس الجد كاللعب
العلم ويحك ما في الصدر تجمعه ... حفظا وفهما واتقانا فداك أبي
لا ما توَهمه العِندي من سفهٍ ... إذ قال: ما تبتغي عندي هو في كتب
قال الحكيم مقالا ليس يدفعه ... ذو العقل من كان من عجم ومن عرب
ما إن ينال الفتى علما ولا أدبا ... براحة النفس واللذات والطرب[22]

وقال أيضا نقلا عن شيخه أحمد بن محمد :

علمك ما قد جمعت حِفظكه ... ليس الذي قلت : عندنا كتبه

ومبدؤه في العلم كان : «سل مسألة الحمقَى، واحفَظ حِفظ الأكياس».

(20) المدارك ــ ج 808/4. ط. بيروت.
(21) وفيات الأعيان ــ ج 71/7. تحقيق د. احسان عباس ــ دار صادر بيروت.
(22) جامع بيان العلم وفضله ـج 110/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.

ويكفي هذا في أن ابن عبد البر كان يعتبر أن العلم هو العلم الذي يحفظ في الصدور ويجمع في الذاكرة، لا العلم الذي يجمع في الكتب ويوضع في أعالي الرفوف. وغالب ما في مؤلفاته كان من حفظه، فقد قال : «وقد جمعت في كتابي هذا[23]... ما انتهى اليه حفظي ورعايتي».

2 ــ الصبر :

وهو من أقوى الوسائل لبلوغ الدرجات العليا[24]، والمرتب السامية، فالصبر عامل أساسي في دفع صاحبه إلى ولوج المراتب العليا، فالجِد والمثابرة أساس لكل نبوغ، وابن عبد البر كان يتوفر على هذه الصفة. وقد قال أبو علي الجياني تلميذه : «وصبرَ أبو عمر على الطلب، ودأب فيه، ودرس وبرع براعة فاق فيها من تقدمه من رجال الأندلس[25].

والحقيقة أن الصبر هو العنصر الفعال في نبوغ ابن عبد البر، وشهرته، وعلو مقامه لدى جميع الناس في الأندلس وخارجها، وقد رافقته هذه الصفة منذ طفولته الى وفاته، وخلال مسيرة حياته، واجهته صعاب جمة، وعقبات كأداء، واستطاع أن يتغلب عليها بالصبر والجَلَد، وما مؤلفاته الكثيرة والضخمة التي تعد أوراقها بالآلاف، إلا دليل على صبره وقوة احتماله، والى هذا أشار بقوله في وصف التمهيد :

سمير فؤادي من ثلاثين حجة ... وصاقل ذهني والمفرج عن همي
بسطت لكم فيه كلام نبيكم ... لما في معانيه من الفقه والعلم
وفيه من الآداب ما يهتدى به ... الى البر والتقوى وينبىء عن علم.

---

(23) بهجة المجالس وأنس المجالس ــ ج 1/1 ــ ط. 1.
(24) نفس المصدر السابق.
(25) المدارك ــ 808/4 ــ ط. بيروت.

وقد تحمل ابن عبد البر معاناة جسمية ومعنوية، لولا الصبر لأودت بحياته، فضلا عن أن يدرس ويؤلف الكتب الطوال، فقد جلي عن وطنه قرطبة[26]، وأهين في كرامته، وتنكر له الأصدقاء والأصحاب، وقد ضمن ذلك في أبيات قالها لدى رحيله من اشبيلية[27]، وفي هذا كفاية على صبره وتجلده في سبيل العلم، وجمعه وتحصيله. فالصبر والجلد وقوة الاحتمال، صفات تستلزم قوة الإرادة، وصدق العزيمة، وبُعْدَ الهمة، ولا شك أن ابن عبد البر كان يتوفر عليها جميعا؛ اذ لولاها لما تجول في الأندلس شرقا وغربا، يتصل بالعلماء ويتلقى عنهم العلم، ولولاها لما سهر الليالي، وأقام النهار في قراءة الكتب وفهمها، وقد أورد ابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» بيتا لابن المبارك يحث على الصبر، ويحض غليه، وهو :

آخر العلم لذيذ طعمه وبدء الذوق عنه كالصبر[28]

وقد عقد بابا في هذا الكتاب نفسه، سماه (الحض على استدامة الطلب، والصبر على اللأواء والنصب)[29]، وهنا أورد أيضا مقالة لابراهيم بن الجراح قال فيها : «لقد طلبنا هذا العلم وطلبه معنا من لا نحصيه كثرة فما انتفع به منا إلا من دبغ قلبه اللبن، وذلك أن أبا العباس لما أفضى اليه الأمر بعث الى المدينة، فأقدم اليه عامة من كان فيها من أهل العلم، فكان أهلنا يعدون لنا خبزا يلطخونه لنا باللبن، فنغدو في طلب العلم، ثم نرجع الى ذلك فناكله، فأما من كان ينتظر أن تصنع له هريسة أو عصيدة فكان ذلك يشغله حتى يفوته كل ما كنا نحن ندركه[30]».

ومعنى هذا، أن العلم يدرك بالصبر، والذي لا يصبر لا يمكن أن يحصل على العلم.

---

(26) الصلة، مجلد 618/1 ــ ط. مجريط.

(27) ابن عبد البر : بهجة المجالس ــ ج 243/1 ــ 244 ــ الطبعة الأولى، نفح الطيب ــ ج 30/4. تحقيق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر ــ بيروت.

(28) الجزء 116/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(29) ج 114/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(30) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 117/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.

ج ــ الاخلاص في طلب العلم والحرص عليه :

كان ابن عبد البر يحب العلم، ويبذل في سبيله كل ما يملك من طاقة وجهد، امتثالا لقول رسول الله ــ ﷺ ــ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم[31]»، و «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان من ذكر الله، أو آوى الى ذكر الله، والعالم والمتعلم شريكان في الأجر، وسائر الناس ممج لا خير فيهم[32].

فقد كان هم ابن عبد البر الوحيد، العلم والاشتغال به؛ لأنه كان يرى أن العلم أفضل من الاشتغال بالدنيا، وروى في هذا المعنى أحاديث شتى، وكثيرا من أقوال العلماء والحكماء[33]في كتابه «جامع بيان العلم وفضله[34]. فالعلم عنده هو الذي يصل بصاحبه الى المجد والسؤدد، وكيف لا يحب العلم، والعلماء لهم درجة على الشعراء وقد أورد في «جامع بيان العلم وفضله» الأبيات التالية في فضل العلم :

رأيت العلم صاحبه شريف ... وان ولدتــه آباء لئــام
وليس يزال يرفعه الى أن ... يعظـم قدره القـوم الكـرام
ويتبعـــون في كل امـــر ... كراع الضأن تتبعـه السوائم[35]

ومن انشاد ابن عبد البر في قيمة العلم قوله :

واذا طلبت من العلـوم أجلهـــا ... فأجلهـــــــا منها مقيم الألسن
العلـم يرفـع أقوامـــاً بلا حسب ... فكيف من كان ذا علم له حسب[36]

---

(31) نفس المرجع السابق ــ ج 32/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(32) جامع بيان العلم وفضله 32/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(33) جامع بيان العلم وفضله 114/1 ــ 115 ــ 116 ــ 117.
(34) جامع بيان العلم وفضله 37/1.
(35) جامع بيان العلم وفضله 64/1.
(36) هذا بيت ليس لابن عبد البر، انما أورده في كتابه جامع العلم ج 67/1.

العلـــم يرفـــــع كل بيت هين والفقـه يحمـل باللبيب الديـن[37]

وقال يوصي ابنه :

اذا فاخـــرت فافخـــر بالعلـــم ودع ما كان من عظـــــم رميم
فكـم أمسيت مطرحـــا لجهـــل وعلمـــي حل بي بين النجـــوم
وكـــأي من وزيـــر سار نحوي فلازمنـــي ملازمـــــة الغـــريم
وكم أقبـــلت متئـــذا مهابـــا فقـــــــام الي من ملك عظيم
وركُب سار في شرق وغـــــرب بذكـــري مثـــل عرق في نسيم

واذا كان العلم هو السلم الحقيقي والوحيد الى الرتب العليا، والمراكز الاجتماعية الشريفة، فإن ابن عبد البر قد توجه اليه بكليته، وبذل في سبيله الغالي والنفيس، وأحبه حبا شديدا، فاق حب المتصوفة لمعبودهم.

وقد أخلص ابن عبد البر في طلب العلم، فلم يطلبه لجاه، أو مال، وانما طلبه وتعلمه لله، فكان حبه للعلم، واخلاصه له، مفتاحا لفهمه وحفظه، وقوة خارقة لمساعدته وإعانته على جمعه واتقانه، فلم يطلبه رياء، ولا ابتغاء الدنيا وملذاتها، ولا استكبارا، بل طلبه إحياء للسنة، فأعانه الله، وبارك له فيه، فالعمل لوجه الله الخالي من الشوائب، يكون معه فيض رباني[38]، وكان ابن عبد البر يومن ايمانا جازما أن دراسة كتاب الله وسنة رسوله ــ ﷺ ــ هو من العمل المفيد في الدنيا والآخرة. ومن نظمه أيضا :

العلـم زيـن وكنـــز لا نفـــاذ له نعم القرين اذا ما عاقـلا صَحِبَا
قد يجمـــع المرء مالا ثم يسلبـــه عما قليل فيلقـى الـذل والحربـا[39]

(37) جامع بيان العلم وفضله 67/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(38) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 1/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(39) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 69/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.

4 ــ الذكاء :

وبالاضافة الى هذه المواهب امتاز ابن عبد البر بالذكاء، وتوقد الذهن، وسرعة البديهة، والحب الشديد للمعرفة، وبلاغته ودقته في الأجوبة(40) كما كان يمتاز بالأصالة والعمق، وغزارة الأفكار. فابن عبد البر لدى مناقشته الفقهاء والمحدثين، ودراسته للمسائل الفقهية، يبدو وكأنه تيار جارٍ من المعاني والأفكار المتفرقة والمتنوعة(41)، فهو ياتي بمسألة فقهية ويحللها تحليلا عميقا، فيستخرج منها اللآلىء والجواهر الثمينة التي لا يستطيع غيره أن يأتي بها، فينفذ بعقله الجبار الى ما وراء السطور والكلمات والحروب، ليصل الى معاني وأفكار.

د ــ غشيانه مجالس العلم :

اتجه ابن عبد البر بعد حفظه القرآن، وتمكنه من العلوم التي تساعده على فهم الكتاب والسنة، الى دراسة الفقه والحديث، دراسة واعية منهجية، فوجد من بيئته محرضا، ومن أسرته ومواهبه، مساعدا ومعينا، فراح يغشى مجالس العلم، وندوات العلماء، يسمع ويكتب، ويدرس، ويحفظ، غير أن طلب العلم من مجالس العلماء لا يكون الملكة العلمية، والقدرة على الفهم والتحصيل، بل لا بد أن يلازم عالما من العلماء، ويختص به، حتى اذا ما تمت له القدرة على الادراك والفهم، واتجه الى الدراسة حرا، يقتطف من هنا وهناك، وينتقل من مجلس الى آخر، ولا شك أن خروجه من قرطبة ساعده على الاتصال بكثير من العلماء، وولوج مجالسهم، سواء في شرق الأندلس وغربها، وخاصة أنه كان مخالط الأمراء والوزراء، ومعلوم أن هؤلاء كانوا يجلبون الى قصورهم، أفضل العلماء، وأحسن الأدباء، فينتهز ابن عبد البر هذه الفرصة فياخذ عنهم.

وهكذا يكون قد استفاد كثيرا من مجالس العلم، والندوات المختلفة.

---

(40) المقري : نفح الطيب ــ ج 28/4، 29 ــ تحقيق د. احسان عباس ــ دار الفكر بيروت.

(41) راجع ذلك في جميع مؤلفاته بدون استثناء.

هـ ــ دراسته الاستقلالية والحرة :

وبعد أن تخرج على العلماء، وتفتق ذهنه، وهضم قواعد الفهم، وآلات العلم، طلب الحديث والفقه مستقلا، وكان كلما أوغل في الطلب، اشتدت الرغبة، كمن يذوق طعاما فيستطيبه؛ اذ الرغبة بعد الذوق تشتد، بيد أن فهم العلم، لا يشبعه كثرته، ونهم الطعام يشبعها القليل؛ لأن الأولى معنوية، والمعاني لا تتخم، والثانية مادية، وقليل المادة يتخم.

كان ابن عبد البر يحب الهدوء، والابتعاد عن ضوضاء الحياة وبهرجتها(42)، ليتفرغ الى دراسة الكتب والتأليف، خاصة وأن قرطبة كانت زاخرة بالكتب، وبالمكتبات العامة والخاصة، حيث كان النشاط في جميع الكتب المصححة المحررة عاما بين المسلمين في اسبانيا، ولم تكن قرطبة وحدها مركزا للمكتبات، وإن تميزت عما عداها في ذلك، بل كانت تلك المكتبات في المدن الأخرى مثل طليطلة، واشبيلية، وفي القرى الصغيرة أيضاً(43)، وقد ترك ابن خير في فهرسته أيضا صورة أخرى للكتب التي هاجرت الى الأندلس، وكذلك رسالة ابن حزم في فضل أهل الأندلس، التي قارن فيها بين بعض المؤلفات الأندلسية والمشرقية في بعض الفنون(44). ومن الكتب المشرقية التي كانت موجودة بالأندلس اذ ذاك، كتب الأصمعي، والكسائي، والفَراء، والرياشي، وأبي حاتم، وابن الأعرابي، وكتابا الغرض والمثال في العروض للخليل، وإصلاح المنطق(45).

وبجانب هذه المكتبات العامة، كانت هناك بلا شك مكتبة أبيه يجد فيها كل ما يريده من الحديث والفقه، حيث كان يشير دائما الى ذلك بقوله :

---

(42) مقدمة البهجة لمحققها محمد الخولي ــ الطبعة الأولى.

(43) تاريخ الأدب الأندلسي، للدكتور احسان عباس ــ ص. 39 ــ دار الثقافة ــ بيروت.

(44) نفس المصدر السابق.

(45) تاريخ الأدب الأندلسي ــ للدكتور احساب عباس ــ ص 49 ــ دار الثقافة ــ بيروت.

«وجدت بخط أبي كذا وكذا...» في التمهيد(46)،وكتاب «جامع بيان العلم وفضله(47).

وتدل وفرة الكتب التي ينقل عنها في مؤلفاته، على أنه كان يتوفر عليها في خزانتها وفي خزانة الأمراء الذين كان يتصل بهم.

وقد شغلت دراسة ابن عبد البر الخاصة حيزاً واسعا من وقته؛ حيث استمرت الى وفاته، كما تركزت على الكتاب والسنة وآراء الصحابة، فالقرآن والحديث والآثار هي الأعمدة الأساسية(48)، التي بنى عليها آراءه واجتهاداته، ولذا فإن دراسته غالبها انصبت على الحديث، سندا ومتنا، وهكذا بذل كل طاقاته في إتقان العلوم التي لها علاقة بالقرآن والحديث، فدرس علوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلوم اللغة العربية، والأنساب والأخبار.

والكتب التي اعتمدها في دراسته بعد القرآن الكريم، كتب الحديث، ومن أهمها : «موطأ الامام مالك»، فهي عنده أهم كتب الحديث وأصحها، وأجمعها لحديث الرسول، ولذا فدراسة ابن عبد البر الاستقلالية، جلها دارت حول «موطأ الإمام مالك»؛ حيث جعلها القلب والمحور الذي يدور حوله اهتمامه.

وقد أشار ابن عبد البر نفسه الى العلوم التي ينبغي لمن يريد أن يكون عالما أن يهتم بها في كتابه «جامع العلم وفضله» بقوله : «ان حفظ كتاب الله واجب على من أحب أن يكون عالما، ثم لسان العرب، وبعد هذا ينظر في ناسخ القرآن ومنسوخه وأحكامه، ويقف على اختلاف العلماء واتفاقاتهم في ذلك، ثم ينظر في السنن الماثورة الثابتة عن رسول الله ــ ﷺ ــ (49).

فهذا النص وحده كاف في إعطائنا صورة واضحة على الدراسة التي كان ابن عبد البر يهتم بها، ويجد في تحصيلها، فهو عنده أن حفظ القرآن هو من أوجب

(46) التمهيد ــ ج 282/4 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.
(47) ج 50/1 ــ64 ــ دار الفكر بيروت.
(48) جامع بيان العلم وفضله ــ ج ــ 41/2 ــ دار الفكر بيروت.
(49) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 205،204/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

الواجبات لكل من يريد أن يكون عالما، ثم بعده علوم القرآن، ثم أقوال الفقهاء، وأخيرا النظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله ــ ﷺ ــ . فالنص يمثل الطريقة التي سار عليها ابن عبد البر في دراسته، والعلوم التي أتقنها استعدادا لدراسة السنن الماثورة.

والأئمة الذين كان يعتمد عليهم في دراسته الاستقلالية، ويدعو الى الاستئناس بأقوالهم، والاسترشاد بآرائهم، الإمام مالك، وشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، والأوزاعي، وابن عيينة ومعمر ، وسائر أصحاب ابن شهاب، كابن جريج، وعقيل، ويونس، وشعيب، والزبيري، والليث، وحديث هؤلاء عن ابن وهب وغيره(50).

وكان يرى أن جمع العلوم والاكثار منها دون فهم أو تدبر، ودون دراستها، عمل مذموم لا ينبغي لعالم يحترم نفسه، أن يشتغل به، حيث عاب ذلك على علماء عصره، فقال : «واعلم رحمك الله أن طلب العلم في زماننا هذا، وفي بلدنا، قد حاد أهله عن طريق السلف وسلكوا في ذلك، ما لم يعرفه أئمتهم وابتدعوا في ذلك فأبان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم، فطائفة منهم تروي الحديث وتسمعه، قد رضيت بالدؤوب في جميع ما لا تفهم، وقنعت بالجهل في حمل ما لا تعلم، فجمعوا الغث والثمين، والصحيح والسقيم، والحق والكذب في كتاب واحد، وربما في ورقة واحدة، ويدينون بالشيء وضده، ولا يعرفون ما في ذلك عليهم، قد شغلوا أنفسهم بالاستكثار عن التدبر والاعتبار(51)».

فابن عبد البر في هذا النص، صور لنا الحالة التي آل اليها علماء عصره، من عدم دراسة الأشياء وتدبرها، وفي نفس الوقت يشير الى أنه كان يقوم بدراسة كل شيء كتبه، أو سمعه، فهو لا يكتفي بجمع الحديث والاكثار منه.

---

(50) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 205/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(51) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 208/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

فالعالم هو الذي يدرس أقاويل الصحابة والتابعين والأئمة في الفقه، والنظر أيضا في تفسير القرآن(52)، ويتحمل في سبيل ذلك النَّصَب والتعب، وضيق العيش(53).

وبهذا التحمل والصبر وصل الى درجة العلماء المجتهدين الراسخين في العلم والمعرفة، والى مرتبة الحفاظ.

ثانياً : أنواع معارفه ومميزاتها :

سبق أن قلنا: إن ثقافة ابن عبد البر عامة وشاملة لجميع المعارف والفنون، التي كانت سائدة في عصره؛ اذ كانت له في جميعها مشاركة فعالة، بجانب تخصصه في الحديث وعلومه، وفي الفقه وخلافه، والأدب وفنونه، والتاريخ وأنواعه، والفلك ومطالعه، والطب والموسيقى والحساب بل وحتى اللغة الأجنبية.

فهو لم يقتصر على فن دون آخر، لذا أردت أن أضع لها قائمة موجزة، مبينا فيها مدى قدرته وامتيازه في كل علم وفن، حتى يطلع القراء على عظمة هذا الرجل، وحبه الشديد للعلم، دون تعصب لنوع دون آخر.

أ ــ الحديث وعلومه :

ففي الحديث كان من المحدثين الذين اتجهوا الى الحفظ، وتمحيص الرواية الصادقة، واستخراجها من بين الدخيل، ليتميز الخبيث من الطيب، فدرس رواة الحديث، وتعرف أحوالهم، وعرف الأمين الضابط للرواية، الفاهم من غيره(54)، فبلغ بذلك الذروة من علم السنة، ويكفي دليلا على هذا أنه وصف بالحافظ(55)، وبالإمام(56)، وبالشيخ(57)، وما أدراك بهذه الألقاب العلمية، فالعلماء لا يطلقون الحافظ والمحدث الا اذا كان الحافظ يختزن في ذاكرته مجموعة هامة من الأحاديث،

(52) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 207/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(53) نفس المصدر السابق.
(54) انظر كتاب التمهيد، وكتاب الاستذكار، فتجد فيه العجب العجاب من ذلك.
(55) الجذوة، ص. 344 ــ الطبعة الأولى ــ مصر، والبغية، والتكملة، ج 371/1، والمدارك ج 808/4.
(56) نفح الطيب ج. 597/12. تحقيق د. احسان عباس ــ توزيع دار الفكر ــ بيروت.
(57) المدارك ــ ج. 808/4. ط. بيروت.

لا تقل عن عشرين ألفا، وعارفا بسنن رسول الله ــ ﷺ ــ، بصيرا بطرقها، مميزا لأسانيدها، يحفظ منها ما أجمع أهل المعرفة على صحته، وما اختلفوا فيه للاجتهاد في حال نقلته، يعرف أن يفرق بين قولهم : فلان حجة، وفلان ثقة، ومقبول، ووسط، ولا بأس به، وصدوق وصالح، وشيخ، ولين، وضعيف، ومتروك، وذاهب الحديث، وهذه الألقاب ورتب المحدّثين كلها كان ابن عبد البر يعرفها، ويعرف الرجال الذين اتصفوا بها، وكتابه «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» مملوء بها، فلا تخلو منها أية صفحة من صفحاته، أو فصل من فصوله، بجانب هذا، أنه كان من الرجال الذين يميزون الروايات بتغاير العبارات، نحو عن فلان، وأن فلانا، ويعرف اختلاف الحكم في ذلك بين أن يكون المسمى صحابيا، أو تابعيا، والحكم في قول الراوي، قال فلان، وعن فلان، وأن ذلك مقبول من المدلسين، دون إثبات السماع على اليقين، ويعرف اللفظة في الحديث تكون وهما وما عداها صحيحا، ويميز الألفاظ التي أُدْرجت في المتون فصارت بعضها لاتصالها بها، ويكون قد أنعم النظر في حال الرواة بمعاناة علم الحديث، دون سواه، لأنه علم لا يعلق الا بمن وقف نفسه عليه، ولم يضم غيره من العلوم اليه(58).

ولعل أهم صفات الحافظ ــ كما يستنبط من أقوال العلماء وتعاريفهم ــ أنه يتوسع في أسماء الرجال حتى يعرف شيوخه، وشيوخ شيوخه، طبقة بعد طبقة، بحيث يكون ما يعرفه عن طبقة أكثر مما يجهله(59).

ويعتقد كثير من نقاد الحديث، أن الذين يجوز تسميتهم بـ «الحافظ» قليلون في كل زمان ومكان، وربما يتعذر وجودهم(60)، وحسبك أن الوصف بالحفظ على الاطلاق ينصرف الى أهل الحديث خاصة، فلا يقال قارىء القرآن لقنني فلان الحافظ، ولا يقول النحوي علمني فلان الحافظ(61).

---

(58) هذه العبارات، والاصطلاحات، كلها موجودة في مؤلفاته بدون استثناء، خاصة مؤلفاته في الحديث والفقه، أتيت بها مجردة عن أرقام صفحاتها، نظرا لكثرتها، ولوجودها في كل مكان من كتبه، فليرجع القارىء اليها، وخاصة التمهيد والاستذكار.

(59) تدريب الراوي ص : 7، وقارن بين قواعد التحديث.

(60) الجامع لأخلاق الراوي ــ ج 150/8.

(61) الجامع لأخلاق الراوي ــ ج. 152/8، و ج. 1.

أما المحدث فهو لقب لا يطلق إلا على من عرف الاسناد والعلل، وأسماء الرجال والعالي والنازل، وحفظ مع ذلك جملة مستكنزة من المتون، وسمع الكتب الستة، ومسند أحمد بن حنبل، وسنن البيهقي، ومعجم الطبراني، وضم الى هذا القدر الف جزء من الأجزاء الحديثية(62).

ولا ريب أن أبا عمر بن عبد البر، لم يطلق عليه لقب الحافظ والمحدث، الا بعد أن توفرت فيه هذه الصفات، وتلك الشروط، اذ لم يطلق عليه لقب الحافظ، ولا المحدث جزافا، وخاصة في بلاد كالأندلس كان التنافس على سؤدد العلم قائما على أكثره بين العلماء، فابن عبد البر كبير محدثي الأندلس، وأحفظ من كان فيها لسنة ماثورة(63).

وكان من أعلى المراتب في تصنيف الحديث، تصنيفه معللا بأن يجمع في كلّ حديث طرقه، واختلاف الرواة فيه؛ لأن معرفة العلل أجل أنواع الحديث، وبها يظهر إرسال بعض ما عُدّ متصلا، أو وقف ما ظُنّ مرفوعا، وابن عبد البر فعل هذا في كتابه «التمهيد» وغيره من مؤلفاته، فهو اتبع طريق التصنيف المعلّل(64).

وفي باب التعديل والتجريح، لم يراع في ذلك الا الأمانة العلمية، والحق والصواب، فلم يمالىء أحدا، ولم يتملق ولو للصحابة، فلم يفلت من نقده أحد(65)، كما في التمهيد وغيره.

وبالجملة، فقد كان ابن عبد البر مبرزا في هذه المادة.

ب ــ الفقه وأصوله :

وفي الفقه، فقد وصل فيه درجة الاجتهاد، حيث خالف في كثير من فروعه الامام مالكاً وغيره من الأئمة(66)، ففتح فيه باب الاجتهاد بعد إغلاقها في الأندلس

(62) تدريب الراوي ــ ص 6، وعبارة الفاسي في «قواعد التحديث 53».
(63) المدارك ــ ج 808/4. ط. بيروت.
(64) التمهيد في كل باب، مفتاح السنة.
(65) التمهيد عبارة عن كتاب التجريح والتعديل.
(66) من ذلك مخالفته في بسم الله الرحمن الرحيم حيث ألف في ذلك كتابا سماه «الانصاف فيما في بسم الله من الخلاف».

وغيرها من البلاد الاسلامية؛ لأن الفقهاء في عصره، أي في القرن الرابع، اتجهوا الى التقليد والاعتماد عليه، واتخذوا أقوال الأئمة أصولا لهم، وابتعدوا عن الكتاب والسنة، فجاء أبو عمر بن عبد البر، ودعا الى نبذ التقليد، والرجوع الى طريق السلف، وهي الأخذ من الكتاب والسنة(67)، فاجتهد، واستنبط، وصحح، ورجح، واختار، وقارن المذاهب بعضها ببعض، وأتى بالشواهد والحجج والبراهين، فخلف بذلك فقه السنة المقارن، أو فقه المذاهب المقارن. وكان في فقهه يميل الى الفقه الشافعي، ويظهر هذا في كتابه «الانصاف فيما في بسم الله من الخلاف(68)»، وفي كثير من المسائل الأخرى الموجودة في «التمهيد» و «الاستذكار»، وغيرهما من مؤلفاته يصعب حصرها في هذه العجالة.

وقد امتاز أبو عمر بن عبد البر في فقهه، بسعة الاطلاع حتى عند قراءة فقهه، تعتقد أنه لم يترك أي كتاب فقهي دون أن يقرأه، كما يمتاز فقهه بالواقعية، ومسايرة الحياة، وهو صالح في كل عصر ومكان، وخاصة في عصرنا العاضر.

أما الأصول التي اعتمد عليها أبو عمر بن عبد البر في فقهه، فهي أصول الإمام مالك، وهي الكتاب والسنة(69)والاجماع والقياس(70)وسد الذرائع(71)، وبجانب هذه الأصول، كان يبني المسائل الفقهية ويستنبطها من قواعد ونظريات أصولية، منها : الترتيب بين الكلمات، والعطف بالواو والفاء في الكتاب والسنة(72)، وتخصيص العموم بالاجماع(73)، وأدوات التخيير(74)، ونص الحديث

(67) جامع بيان العلم وفضله ج 208/2، اعلام الموقعين 278/1.
(68) هذا الكتاب أحسن أن يسمى فتوى من أن يسمى كتابا، وقد اخترته في الفصل السادس من الباب الثاني كنموذج من فتاويه.
(69) التمهيد ــ ج. 346/6 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.
(70) جامع بيان العلم وفضله ج 32/2 ــ دار الفكر بيروت.
(71) التمهيد ــ ج 121/3 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.
(72) التمهيد ــ ج. 147/6 ــ الذبعة الأولى ــ المغرب.
(73) التمهيد ــ ج 116/2 ــ الطبعة الأولى المغرب.
(74) التمهيد : ج 233/2 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

وظاهره[75]، وعنده أن اضطراب الحديث حجة على النفي[76] والناسخ والمنسوخ[77]، والخصوص والعموم[78]، والأصل في الأشياء الاباحة حتى يصح المنع بوجه لا معارض له، ودليل غير محتمل للتأويل[79]، وغير ذلك من القواعد المنثورة هنا وهناك في مصنفاته وكتبه المختلفة.

وأبو عمر بن عبد البر لم يؤلف أي كتاب في أصول الفقه، ولكنه تكلم على ذلك في كتابه «جامع بيان العلم وفضله»، حيث خصص لذلك بابا سماه «معرفة أصول العلم وحقيقته، وما الذي يقع عليه اسم الفقه والعلم مطلقا[80]»، وهو في ذلك يعطينا صورة جلية على الأصول التي كانت اذ ذاك، أو على أنه كان أصوليا.

ج ــ القرآن وعلومه :

وبجانب الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، كان من القراء المجيدين، ومن المفسرين المعتمدين، فقد أبلى أبو عمر بن عبد البر في القرآن وعلومه، بلاءً حسنا، فقد كان على اطلاع واسع بالقراءات، والتفسير، وأما القراءات فقد تكلم عليها أبو عمر بن عبد البر في كتابه «التمهيد» عند مناقشته للحديث الذي رواه مالك عن ابن شهاب عن عروة عن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القارى، والمعنون في كتاب الموطأ للإمام مالك بـ«ما جاء في القرآن»[81]، كما ألف في ذلك أربعة كتب هي : البيان عن تلاوة القرآن، والتجويد، والمدخل الى علم القرآن بالتجديد، والاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو بن العلاء، والإنصاف فيما بين العلماء في قراءة بسم الله الرحمن الرحيم من الاختلاف[82]، وكلها تدل على أن ابن عبد البر كان من علماء القراءات العظام، وأنه لم يكن متخلفا في هذا الفن من العلوم الاسلامية.

(75) التمهيد ــ ج 288/2 و ج 12/3.
(76) التمهيد ــ ج. 178/3.
(77) التمهيد ــ ج 141/6 ــ 160.
(78) التمهيد ــ ج 344/6.
(79) التمهيد ــ ج 344/6.
(80) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 29/2 ــ دار الفكر بيروت.
(81) شرح الزرقاني ــ ج 10/2، 11، 12. ملتزم الطبع والنشر ع. المجيد احمد.
(82) فهرست ابن خير ط. مدريد 1893، المدارك ــ ج 808/4، 809.

وأما التفسير، فلم يؤلف فيه كتابا خاصا، ولكنه ترك لنا كثيرا من تفسير الآي القرآنية، منثورة هنا وهناك في كتبه المختلفة، وخاصة كتاب «التمهيد»، ففيه كثير من تفسير آيات الأحكام[83]، وقد اعتمد كثير من المفسرين على تفسير أبي عمر بن عبد البر، وتأويلاته لعدة آيات من القرآن الكريم، ومنهم المفسر الكبير أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، في كتابه «الجامع لأحكام القرآن»، وكذلك ابن العربي في كتابه «أحكام القرآن»، وغيرهما من المفسرين.

وكيف لا يكون له تفسير، وهو الذي يحث على حفظ القرآن، وفهم معانيه.

ومصادر التفسير القرآني لدى أبي عمر بن عبد البر، القرآن بالقرآن[84]، والتفسير بالحديث، وأقوال الصحابة، وأسباب النزول[85]، واللغة[86]، والتأويل[87]، والرأي، فالتفسير عنده ينقسم الى أربعة أقسام :

1) التفسير بالماثور.
2) التفسير اللغوي.
3) التفسير العملي من طرف الصحابة.
4) التفسير بالتاويل والرأي.

د ــ التصوف وعلم الكلام :

ولأبي عمر بن عبد البر جولات في التصوف وعلم الكلام، ولكن تصوفه وعلم الكلام قائمان على الكتاب والسنة، فتصوفه التصوف السني، وكلامه علم كلام أهل السنة، أما غير ذلك فهو ضرب من البدع، فالمعتزلة عنده مبتدعون، وكذلك

(83) التمهيد ــ ج 5/186، 187، 188، 199، 192، 193، 349، 346، وفي أجزاء أخرى منه.
(84) التمهيد ــ ج 5/199 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.
(85) التمهيد ــ ج 5/186،188، الطبعة الأولى ــ المغرب.
(86) التمهيد ــ ج 5/147.
(87) التمهيد ــ ج 5/192،193 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

أهل التصوف المتطرف، وقد خصص صفحات كثيرة في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» للكلام على المعتزلة والشيعة وغيرهما من الفرق الاسلامية، وناقشهم في كثير من القضايا الكلامية(88)، بل قد حذر من مخالطة أهل البدع(89)، مثل الخوارج والمعتزلة، ولم يؤلف في هذا الموضوع أي كتاب، وانما كان يتعرض للمسائل الكلامية أثناء شرحه للأحاديث التي لها علاقة بعلم الكلام.

ومعنى هذا، أنه كان على اطلاع بما يدور حوله من جدال ومراء في قضايا لاهوتية، وسنتعرض لهذا في آرائه.

هـ ــ التاريخ :

وفي التاريخ والجغرافية المكانية، كان من المؤرخين الكبار، والجغرافيين المطلعين على الأقاليم والبلدان، فقد أتى بالعجب العجاب في ميدان الأخباروالأنساب، حيث كان نبراسا في أخبار الرجال، وقدوة في الأنساب، وهو في معلوماته التاريخية والجغرافية يتحرى الدقة والواقعية، فهو في الأحداث التاريخية ناقل أمين، ومؤرخ حكيم، وراو عظيم، لا يبارى، فقد عني بترجمه الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء(90)، ومعلوماته التاريخية غالبا تنصب على المحدّثين، والأشخاص الذين لهم علاقة بالحديث، وقد ألف في ذلك عدة مؤلفات، أهمها كتاب «الاستيعاب في أسماء الأصحاب».

و ــ الأدب :

وفي الأدب واللغة ناقد ماهر، ومحيط تباعدت أطرافه، وتلاطمت أمواجه، ويبدو ذلك من خلال أشعاره وتحليلاته، وشروحه لمعاني الأشعار، والمفردات الغريبة وكل ما أغلق من كلام الآخرين(91)، وقوته الأدبية تظهر في كتابه «بهجة المجالس

---

(88) التمهيد ــ ج 291/2، شرح الزرقاني على الموطأ للامام مالك ج 87/2،88،38، 62. ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد حنفي ــ مصر.

(89) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 122/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(90) أنظر كتابيه : «الانتقاء» و «الاستيعاب».

(91) ارجع الى كتبه : «التمهيد» «الاستذكار» جامع بيان العلم وفضله».

وأنس المجالس»، ففي هذا الكتاب نقد وتحليل وتعليق، الأمر الذي يدل على براعة أدبه، وقوة خياله وإبداعه، كما تظهر براعته في تحليلاته لأشعار الجاهليين وما بعدهم، المنثورة في كتاب التمهيد والاستذكار وغيرهما من مؤلفاته، كما تبدو مهارته الأدبية في المقاطع الشعرية(أ) التي تركها في بطون كتبه، والتي نقلها عنه كثير من المؤرخين(92).

أما اللغة فقد أتقنها كثيرا؛ لأنه كان يعتبرها وسيلة من وسائل العلم والفهم. وآلة للوصول الى استنباط الأحكام الفقهية، ولذا فقد اعتنى بها كثيرا، وغاص وراء غريبها في الأعماق، فهو أحيانا يظهر كأنه بحر زاخر من المفردات اللغوية، وسنسوق على سبيل المثال لفظة «العرايا» فهو يقول فيها : «وأما العَرَايا فواحدتها عَرِيَّة، والجمع عرايا، ومعناها عَطية تمر النخل دون الرقاب، كانت العرب اذا داهمتهم سنة تطوع أهل النخل منهم على من لا نخل له، فيعطونه من تمر نخلهم، فمنهم المكْثر، ومنهم المقِل، ولهم عطايا منافع لا يملك بشيء منها رقبة الشيء الموقوف، منها الافقار، والأخيال، والاعراب، ومنها المنحة، كانوا اذا أعطى أحد منهم صاحبه ناقة أو شاة من غنمه يشرب لبنها...(93)».

وهكذا نراه بحرا في اللغة العربية، ولو تتبعنا ذلك لجمعنا ما يعادل أسفارا متعددة من اللغة(94).

وأما النحو فهو لا يقل عن الكِسَائي والفَرّاء، رغم أنه لم يؤلف في ذلك أي كتاب، ولكننا نراه ينافس النحويين كأنه سيبويه. فانظر الى هذه المناقشة في كسر «إن» وفتحها في (لبيك لا شريك لك لبيك إِن الحمد) روي بكسر الهمزة استئناف وفتحها تعليل، والكسر أجود عند الجمهور. قال ابن عبد البر : المعنى عندي واحد؛ لأن من فتح أراد لبيك؛ لأن الحمد لك على كل حال(95).

(أ) ارجع إلى شعره في الفصل السابق من الباب الثاني.

(92) نفح الطيب — ج 4/28،29، الذخيرة القسم الأول — المجلد الثاني، ص. : 131، 132 — ط. القاهرة.

(93) التمهيد — ج. 2/324 — الطبعة الأولى — المغرب.

(94) التمهيد — ج. 3/7،8، وبعدهما.

(95) شرح الزرقاني على موطأ مالك — ج 2/243. ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد حنفي — مصر.

وبالجملة، فإن ابن عبد البر كان يتقن النحو، حيث كان يناقش النحاة كأنه مختص فيه.

ز ــ اللغة الأجنبية :

وبجانب هذه المعارف المتنوعة، والثقافة الواسعة، كان يعرف اللغة الأجنبية من لاتينية(96)، وفارسية(97).

أما اللغة اللاتينية، فقد ورد في كتابه : « ورأيت في بعض كتب العجم، سئل جالينوس بم كنتَ أعلَمَ أقرانك بالطب ؟ قال لأني أنفقت في زيت المصباح لدرس الكتب مثل ما أنفقوا في شرب الخمر». وروي مثل هذا عن افلاطون(98).

فهذا النص قد يدل دلالة واضحة على أن أبا عمر بن عبد البر كان يعرف اللغة اللاتينية، كتابة وقراءة، وهذا واضح من قوله : «رأيت في بعض كتب العجم»؛ لأن التعبير برأيت، يدل وبكل جلاء أن ابن عبد البر كان يقرأ ويكتب باللغة الأجنبية؛ رأيت تقتضي أنه رأى ذلك بنفسه دون أن يقرأ عليه ذلك أحد، أو يترجم له.

ومما يؤكد أن ابن عبد البر كان يعرف اللغة الأجنبية (اللاتينية) ما ذكره ابن حزم في كتابه : «جمهرة أنساب العرب»، حيث قال : إنه يتعجب ممن يسكن في قرطبة وضواحيها، ولا يعرف اللغة اللاتينية(99).

ومما يقوي هذا أيضا، أن القضاة في الأندلس كانوا يعرفون الاسبانيةالقديمة (رمانسي)، ويناقشون بها مجالس الحكم، وكان المسلمون يطلقون على هذه اللغة، اللغة الأعجمية، أو العجمية، أو اللاطينية(100).

---

(96) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 123/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(97) الانتقاء ــ ص. 172 ــ الطبعة الأولى.

(98) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 123/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(99) دعوة الحق عدد : 1 سنة 19، مقتبس من «جمهرة أنساب العرب» ص 443 ــ نشر دار المعارف بمصر.

(100) تاريخ الاسلام السياسي والديني لحسن ابراهيم حسن، مقتبس من كتاب «القضاة بقرطبة» للخشني الذي نشره خوان ريبرا ــ مدريد 1944 ص : 96 ــ 138.

ومعنى هذا، أن القضاة كانوا يختارون ممن يتقن اللغة اللاتينية، حتى يتمكنوا من مخاطبة الاسبان الذين لا يعرفون اللغة العربية، والتفاهم معهم، وبما أن ابن عبد البر تولى القضاء على عهد الأمير ابن الأفطس في لشبونة وشنترين، فقد كان يعرف اللغة اللاتينية بالتأكيد، وقد أثبت هذه الحقيقة، أي تعلم العرب اللغة اللاتينية، واللغة القشتالية في اسبانيا، غوستاف لوبون حيث قال : «تعلم العرب اللغة اللاتينية واللغة القشتالية في اسبانيا كما يشهد بذلك ما في مكتبة الاسكوريال من المعجمات العربية اليونانية، والعربية اللاتينية، والعربية الاسبانية، التي ألفها علماء من المسلمين(101)».

أما الفارسية، ربما كان يعرفها، أو كان له ــ على الأقل ــ إلمام بها، ويبدو ذلك من قوله في كتابه «الانتقاء(102)» عند ما ترجم لأبي يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة، فقد قال : «وذكر ابن الكلبي أيضا أن خنيس بن سعد بن حبتة جد أبي يوسف، تنسب الى خنيس، اليه تنسب رحبة خنيس بالكوفة، ويقال لها بالفارسية : «جهار سوج» وتفسيرها بالعربية رحبة مربعة تفترق منها أربعة طرق(103).

ومعنى هذا، أن ابن عبد البر اذا لم يكن يتقن الفارسية، فانه على الأقل كان له المام، لأنه ليس من الذين يتكلمون في شيء وهم لا يعرفونه.

أما العلوم الأخرى، فلا شك أنه كان يلم بها، وربما كان يتقنها، كالطب والهندسة والموسيقى وعلم الكلام والحساب، ولكن وضعيته كرجل الدين، كانت تجعله قليل الاهتمام بهذه الفنون(104).

---

(101) حضارة العرب لغوستاف لوبون ــ ترجمة عادل زعيتر، ص : 434، ط. 3

(102) ص. : 172 ــ الطبعة الأولى.

(103) نفس المصدر السابق.

(104) انظر كتابه «جامع بيان العلم وفضله» ج 47/2 وما بعدها ــ دار الفكر بيروت، تجده يتكلم كلام العارف في الموسيقى والطب والحساب والفلك والهندسة.

الفصل الثاني

ـ آ ر ا ؤ ه ـ

تمهيد :

كان ابن عبد البر محدثا وفقيها، ومؤرخا وأديبا، ولم ينسب نفسه لأي فرقة من الفرق الإسلامية؛ لأنه ما كان يرى عِلْما أحق غير كتاب الله وسنة رسوله، وما كان عليه السلف الصالح، فكان المحدث الفاحص للرجال، الناقد الممحص لما يتلقى، الذي يعمل به على التوفيق بين الماثور عن النبي ـ ﷺ ـ، وبين كتاب الله عز وجل، وكان في الفقه الإمام الذي يُقتدى به، وتوزن الآراء على رأيه، يستنبط من كتاب الله، ثم من سنة رسول الله، طبق الأصول والقواعد المتفق عليها.

لهذا فعقيدته هي عقيدة أهل السنة، والسلف الصالح. وقد نسبه بعض المؤرخين الى الأشعرية، وقال انه كان سنيا أشعريا[1]، ومعلوم أنه ليس للأشعري آراء خاصة به خارجة عن جماعة أهل السنة عما جاء به الإسلام، لأن الأشعري كان يقول : قولنا الذي نقول به، وعقيدتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب (الله) ربنا عز وجل، وبسنة نبينا عليه السلام، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون[2]».

ورغم تطابق آراء ابن عبد البر، لآراء الإمام الأشعري، فانه لم يشر اليه ولو مرة واحدة، في تعرضه للكلام على العقائد الإيمانية، وهذا ليس بغريب؛ لأن شعور

(1) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادة ـ ج 222/8 ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(2) تاريخ الفكر العربي لعمر فروح ـ ص : 251 ـ الطبعة الأولى.

المومنين يتطابق ولو لم يقف بعضهم على آراء البعض الآخر، خاصة وأنهم يستقون من أصل واحد، ألا وهو كتاب الله وسنة رسوله.

وكما لابن عبد البر آراء حول العقائد، فله آراء في السياسة، والرأي، والاجتهاد، والتقليد، والاتباع.

ولهذا سأخصص هذا الفصل لآرائه في العقائد والخلافة والرأي والاجتهاد، مقتصرا في ذلك على ما وجدته في كتبه.

أولا : ــ آراؤه حول العقائد :

1 ــ الصفات الإلهية :

قال ابن عبد البر : «واتفق أهل الأديان، أن العلم الأعلى هو علم الدين، واتفق أهل الاسلام أن الدين تكون معرفته على ثلاثة أقسام : أولها معرفة خاصة بالإيمان والاسلام، وذلك معرفة التوحيد والاخلاص، ولا يتوصل الى ذلك الا بالنبي ــ ﷺ ــ، فهو المؤدي عن الله والمبيّن لمراده، وبما في القرآن من الأمر بالاعتبار في خلق الله بالدلائل من آثار صنعته في بريته على توحيده وأزليته سبحانه، والإقرار والتصديق بكل ما في القرآن، وبملائكة الله وكتبه ورسله[3]».

ويرى أن الجدال في صفات الله، وفي الجنة والنار، وغيرهما من الحياة الأخرى مذموم، وأن القول في ذلك بالرأي والظن والقياس على غير أصل ممنوع، وهو من البدع المخالفة للسنن، وخاصة في الاعتقاد[4].

ومن أجل ذلك، يرى أنه يجب على المومن أن يصف الله بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله ــ ﷺ ــ ؛ لأن صفات الله عز وجل عنده توقيفية، ولا تكون بالرأي، أي لا تدرك بالرأي، لذا فلا مجال لاستعمال العقل فيها كما فعل أهل البدع، من معتزلة وغيرهم[5]، ومن ثم فآراؤه في صفات الله،

(3) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 49/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(4) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 169/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(5) شر ح الزرقاني على موطأ مالك ــ ج 38/2 ــ ملتزم الطبع والنشر عبد الحميدأأحمد حنفي ــ مصر ــ القاهرة.

هي الصفات التي وصف الله بها نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله ــ ﷺ ــ ، وبما اجتمعت عليه الأمة، وبما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله، أو نحوه يسلم له، ولا يناظر فيه، وأن الأحاديث في الصفات ينبغي أن نتركها كما جاءت، مثل حديث التنزل، وحديث أن الله خلق آدم على صورته، وأنه يدخل قدمه في جهنم، وما كان مثل هذه الأحاديث : «رواها السلف، وسكتوا عنها، وهم كانوا أعمق الناس عِلْما، وأوسعهم فهما، وأقلّهم تكلفا، ولم يكن سكوتهم عن عدم وعي، فمن لم يَسَعْه ما وسِعَهم فقد خاب وخسر[6]».

اذَنْ ،فصفات الله تعالى عنده توقيفية، ولا تكون بالرأي، أي لا تدرك بالعقل، بل توخذ من كتاب الله، ومن سنة رسول الله ــ ﷺ ــ ، ومن الإجماع، فلا مجال لاستعمال العقل فيها، وعنده أن معرفة الله بالصفات فرض عين[7].

والصفات التي أجمع عليها أهل السنة، وهي أنه لم يزل بصفاته وأسمائه، ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخرته انقضاء، وهو على العرش استوى، المحيي والمميت الذي لا يموت[8]، اليه مرجع كل شيء».

ويبدو من تعبيره «أنه على العرش استوى» بأنه يقول بالجهة والمكان، أي أن الله تعالى فوق العرش وعلى العرش.

2 ــ الإيمان :

وقد عرف ابن عبد البر الإيمان بقوله : «الإيمان هو الشهادة باللسان، والإقرار بالقلب بأن الله وحده لا شريك له، لا شبيه له ولا مثل، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، خالق كل شيء، واليه مرجع كل شيء، المحيي والمميت الحي

(6) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 2/117،118 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(7) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 1/12 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(8) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 1/12 ــ دار الفكر ــ بيروت.

الذي لا يموت، والشهادة بأن محمدا عبده ورسوله، وخاتم أنبيائه حق، وأن البعث بعد الموت للمجازاة بالأعمال والخلود في الآخرة لأهل السعادة بالإيمان والطاعة في الجنة، ولأهل الشقاوة بالكفر والجحود في السعير حق، وأن القرآن كلام الله، وما فيه حق من عند الله يجب الإيمان بجميعه، واستعمال محكمه، وأن الصلوات الخمس فرض، ويلزمه من علمها علمُ ما لا تتم إلا به من طهارتها وسائر أحكامها وأن صوم رمضان فرض ويلزمه علم ما يفسر صومه وما لا يتم إلا به وان كان ذا مال وقدرة على الحج لزمه فرضا أن يعرف ما تجب فيه الزكاة، ومتى تجب، وفي كم تجب، ويلزمه أن يعلم بأن الحج عليه فرض مرة احدة في دهره ان استطاع اليه سبيلا[9]».

فالإيمان كما يبدو من كلامه هذا هو التصديق بالقلب، والقول باللسان، والعمل بالأركان، وأركانه الإيمان بالله وملائكته ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيْره وشَره.

ومعنى هذا أن ابن عبد البر يتفق مع أهل السنة في أن الإيمان هو التصديق بالقلب، والنطق باللسان، والعمل بالجوارح والأركان.

3 ــ علم الله تعالى :

هو قديم وواحد وشامل، يتعلق بجميع المعلومات : المستحيل منها والجائز والواجب، والموجود والمعدوم، لا أول له ولا آخر له، فهو أزلي وأبدي، وجميع المخلوقات يجرون في علم الله وقدره، فلا يخرج شيء من خلقه عن ذلك، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ولا بينهما، ولا فوقهما، أو تحتهما.

فابن عبد البر يرى كباقي أهل السنة أن علم الله قديم أزلي أبدي وأن كل ما هو كائن وما سيكون سبق في علم الله[10].

---

(9) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 12/1، 13 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(10) التمهيد ــ ج 138/3، 139، 140 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

4 ــ القضاء والقدر وأفعال الإنسان :

عرف ابن عبد البر القدر بقوله : «القدر أنه سر الله، لا يدرك بجدال ولا نظر، ولا يشفي منه خصومة، ولا احتجاج، وحسب المومن من القدَر أن يَعلم أن الله لا يقوم شيء دون ارادته، ولا يكون شيء دون مشيئته، له الخلق والأمر كله، لا شريط له، نظام كونه قوله تعالى : (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) وقوله : «إنا كل شيء خلقناه بقَدَر»،وحسْب المومن من القدَر أن يعلم أن الله لا يَظلِم مثقال ذرة، ولا يكلف نفسا إلا وُسعَها، وهو الرحمن الرحيم، فمن رد على الله تعالى خيره في الوجهين، أو في أحدهما كان عنادا وكفرا، وقد ظاهرت الآثار في التسليم للقدر والنهي عن الجدل فيه، والاستسلام له، والإقرار بخيره وشره، والعلم بعدل مُقدِّره وحكمته(11).

فمن هذا النص يبدو رأي ابن عبد البر جليا في صفات الله تعالى، وفي القضاء والقدر، فرأيه هو أن القضاء والقدر هو سر الله لا يدركه إلا هو وحده، ويجب على المومن أن يجزم بأن كل ما قضاه الله تعالى هو عدل منه، وأنه رحمن رحيم في كل ما قدره، فمذهبه فيه مذهب أهل السنة، وضد رأي المعتزلة، والفرق الكلامية الأخرى.

ومن ثم فأفعال الإنسان كلها من عند الله، وأنها سبقت في علم الله الأزلي، وما الإنسان وأفعاله إلا تنفيذ لإرادة الله وانجاز لمشيئته الأزلية، فالشر والخير كل من عند الله، وهو خالقها، لا شريك له، ولا اله غيره، لقوله تعالى : (يضل من يشاء ويهدي من يشاء(12).) .

5 ــ التداوي والمعالجة :

يرى أي ابن عبد البر ــ انطلاقا من عقيدته السُنّية ــ أن التداوي والمعالجة، انما هي مباحة وليست بواجبة، وأن القدر هو العلاج، فقال : «الذي

(11) التمهيد ــ ج 3/138،139 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.
(12) التمهيد ــ ج. 6/62،63 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

أقول به أنه كان من خيار هذه الأمة وسلفها وعلمائها، قوم يصبرون على الأمراض حتى يكشفها الله، ومعهم الأطباء، فلم يُعابوا بترك المعالجة، ولو كانت المعالجة سنة من السنن الواجبة، لكان الذم قد لحق من ترك الاسترقاء والتداوي، وهذا لا نعلم أحدا قاله، ولكان أهل البادية، والمواضيع النائية عن الأطباء قد دخل عليهم النقص في دينهم؛ لتركهم ذلك، وانما التداوي ــ والله أعلم ــ إباحة على ما قدمنا، لميل النفوس اليه، وسكونها نحوه، (ولكل أجَلٍ كتابٌ)، لا أنه سنة، ولا أنه واجب، ولا أن العلم بذلك علم موثوق به، لا يخالَف، بل هو خطر وتجربة موقوفة على القدر، والله نسأل العصمة والتوفيق[13]»».

ومعنى هذا، أن الأمر كله لله، ولا شريك له في قدرته وارادته، فلا ينفع لا تداوي ولا علاج، إلا إذا صادف مشيئة الله تعالى[14].

6 ــ مرتكب الكبيرة :

مسألة مرتكب الكبيرة خاض فيها المسلمون خوضا شديدا، وكانت أساسا لخروج الخوارج على علي (ض)، وقد شغلت عقولَ كثير من المسلمين في العهد الأموي، فالخوارج عموما يكفّرون مرتكب الكبيرة، والإباضية منهم يرون أنه كافر نعمةٍ، لا كافرُ إيمان. والمعتزلة وعلى رأسهم واصِلُ بن عطاء، الذي عاصر مالكا (ض) يرون أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المومن والكافر، وهو مُخلّد في النار، إلا أن يتوب توبة نصوحا، فيتوب الله عليه، ويطلقون عليه المسلم الفاسق. والحسن البصري يرى أن مرتكب الكبيرة منافِق يعلن الإسلام. والمرجئة يرون أن مرتكب الكبيرة مومن بكل معاني الإيمان، ولكنهم افترقوا إلى فريقين : فريق معتدل يراه مومنا عاصيا، يرجي له عفو الله، فرحمة الله وسعت كل شيء، وإن عذبه فبما ارتكب، وفريق قال : لا يضر مع الإيمان معصيته، كما لا ينفع مع الكفر طاعته، ففتحوا الباب على مصراعيه للمذنبين الإباحيين، فعطلوا الشرائع تعطيلا.

---

(13) التمهيد ــ ج. 5/278،279 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

(14) التمهيد ــ ج 6/12،13،14 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

أما أكثر المسلمين فمنهم من ذهب على أن مرتكب الكبيرة مومن فاسق، إن شاء الله عفا عنه، وأن عذبه فبذنبه، وهذا رأي المرجئة.

أما ابن عبد البر، فقد رد هذا ولم يقبل به، ويرى أنه يجب على مرتكب الكبيرة أن يتوب وينوي عدم الرجوع اليها، وإلا فلا تنفعه الصلاة والطهارة، خلافا لمن قال إن الصلاة والطهارة يكفران الكبائر والصغائر.

وفي هذا الصدد قال ردا على أصحاب هذا الرأي : «وقال بعض المنتمين إلى العلم من أهل عصرنا : إن الكبائر والصغائر يكفرها الصلاة والطهارة، واحتج بظاهر حديث الصنابحي هذا[15]»، وبمثله من الآثار، وبقوله ــ ﷺ ــ : «فما ترون ذلك يبقي من ذنوبه، وما أشبه ذلك، وهذا جهل بيّن، وموافقة للمرجئة فيما ذهبوا اليه في ذلك، وكيف يجوز لذي لب أن يحمل هذه الآثار على عمومها، وهو يسمع قول الله عز وجل : «يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا»، وقوله تبارك وتعالى : (وتوبُوا إلى الله جميعا أيه المومنون لعلكم تفلحون).

ثم قال لو كانت الطهارة والصلاة وأعمال البر مكفرة للكبائر، والمتطهر المصلي غير ذاكر لذنبه الموبق، ولا قاصدا اليه، ولا حضره في حينه ذلك أنه نادم عليه، ولا خطرت خطيئته المحيطة به بباله، لما كان لأمر الله عز وجل بالتوبة معنى، ولكان كل من توضأ وصلى يشهد له بالجنة بإثر سلامه من الصلاة، وإن ارتكب قبلها ما شاء من الموبقات الكبائر، وهو لا يقوله أحد ممن له فهم صحيح، وقد اجمع المسلمون أن التوبة على المذنب فرض، والفرض لا يصلح أداء شيء منه إلا بقصد ونية، واعتقاد أن لا عودة، فأما أن يصلي وهو غير ذاكر لما ارتكب من الكبائر، ولا نادم على ذلك فمحال[16]».

وعلى هذا يرى ابن عبد البر أن مرتكب الكبائر غير مومن، يدخل النار، ويعاقب على ذلك اذا لم يتب وينوي أن لا يعود إلى ذلك، خلافا للمرجئة، ولأهل

---

(15) التمهيد ــ ج 4/44،45 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

(16) التمهيد ــ ج 4/44،45 ــ الطبعة الأولى ــ مصر.

السنة، وخاصة من يقول بأن الصلاة والطهارة تكفر الكبيرة دون اعلان التوبة، ودون النية بعدم الرجوع اليها، لأن التوبة على المذنب فرض، والفرض لا يصح شيء منه إلا بقصد ونية.

7 ــ الوعد والوعيد :

الوعد هو الثواب الذي وعد الله به عباده على الأعمال الصالحة يوم القيامة، والوعيد هو العقاب الذي يعاقب به مرتكب الكبيرة.

وكل من الوعد والوعيد هو من المسائل الاعتقادية التي اختلف فيها العلماء من سنيين ومعتزلة وغيرهما من الفرق الإسلامية.

فالمعتزلة ربطوا الثواب والعقاب بالأعمال ربطا حتميا، وغلا بعضهم فقال : «يجب على الله أن يثيب المطيع، ويعاقب مرتكب الكبيرة، فصاحب الكبيرة اذا مات ولم يتب لا يجوز أن يعفو الله عنه؛ لأنه أوعد بالعقاب على الكبائر وأخبر به، فلو لم يعاقب لزم الخلف في وعيده، ولأن الطاعات والأمر بها، والمعاصي والنهي عنها، وضعت لتحقيق غايات، فمن لم يطع فقد أخل بهذه الغايات، فاستوجب العقاب، وهذا هو معنى أصلهم الذي وضعوه وعنونوه بالقول بالوعد والوعيد، يعنون بذلك أن الثواب على الطاعات، والعقاب على المعاصي قانون حتمي التزم به الله تعالى.

وكان مخالفوهم يرون أن ثواب الله فضل منه وعد الله به، وخلف الوعد نقص ــ تعالى الله عنه ــ ، والعقاب عدل، وله العفو عنه، وليس في خلف الوعيد نقص، وهذا الرأي هو مذهب أهل السنة والجماعة.

آما ابن عبد البر، فيرى في الوعيد أنه لا يتحتم على الله، بل إن شاء غفر، وإن شاء عذب، لقوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يُشرَكَ به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء).

ويرى أيضا أن إخلاف الوعيد ليس كذبا، ولو كان كذبا ما مدح الشاعر نفسه بقوله :

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

فمدح نفسه بإخلاف الوعيد، ولو كان كذبا ما مدح به نفسه. وقد قال تعالى : (وعد غير مكذوب)، و (إنه كان صادق الوعد)، فوصف الوعد بالصدق(17).

ومن ثم، فإن مذهب ابن عبد البر في الوعد والوعيد هو مذهب أهل السنة، وهو أن الله تعالى متصرف في ارادته ومشيئته، إن شاء عذب، وإن شاء غفر، فلا يتحتم عليه أن يحقق وعده ووعيده، ولا يجب عليه أن يخلفه؛ لأن الأمور كلها سبقت في علمه، وأن أحكامه كلها عدل وفضل منه تعالى، ولا يكون في مُلكه إلا ما يريد (وما ربك بظلام للعبيد(18)).

8 ــ مشكلة خلق القرآن :

اختلف علماء الإسلام في صفات الله تعالى ، ومنها كلامه، اختلافا شديدا، وانقسموا الى ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : تنفي أن يكون الله سبحانه متصفا بصفة من صفات المعاني، كالقدرة، والإرادة، والعلم، والكلام، والسمع، والبصر؛ لأنه تعالى لو وصف بها لكانت تلك الصفات قديمة بقدم ذاته، فيتعدد القدماء، وهؤلاء هم المعتزلة الذين يقولون بأن القرآن كلام الله خلقه وأنشأه وجعله دالاً على نبوة محمد ــ ﷺ ــ بإعجاز العرب على أن ياتوا بمثله.

الطائفة الثالثة : تثبت الصفات لذاته تعالى، ولكنها تقر أن الأفعال التي تكون بقدرة الله تعالى مخلوقة له، جلت قدرته، فالله سبحانه متكلم، ولكنه يخلق الألفاظ والمعاني، فالقرآن على هذا مخلوق.

(17) شرح الزرقاني على موطا مالك ــ ج 2/4 ــ ملتزم الطبع والنشر : عبد الحميد حنفي ــ مصر.
(18) التمهيد ــ ج 12/6، 13، 14 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

الطائفة الثانية : وهي الطائفة السلفية، تقول إن الله سبحانه وتعالى متصف بالصفات التي ذكرت في القرآن نعتا لذاته العلية، فهو متصف بالقدرة، والإرادة، والعلم، والبصر، والسمع، والكلام، وغير ذلك من الصفات التي جاءت الآثار بها، ولا يحكمون بأن الأفعال التي تصدر عن ذات الله سبحانه تسمى مخلوقة، فلا يسمى القرآن مخلوقا؛ لأنه قائم بذات الله سبحانه وتعالى.

أما رأي ابن عبد البر في القرآن، فهو أن القرآن كلام الله وما فيه حق من عند الله، يجب الإيمان بجميعه، واستعمال محكمه[19].

ومعنى هذا أن القرآن عنده ليس بمخلوق، وإنما هو كلام الله، فهو لا يقول بخلق القرآن، ويصف من يقول بخلقه بالمبتدع، وبالخارج عن مذهب أهل السنة[20].

ويرى أن الجدال والمراء في القرآن والمناظرة فيه لا يجوز؛ لأن ذلك كفر[21]، استنادا الى قول النبي ــ ﷺ ــ «المراء في القرآن كفر»، بمعنى أنه يتمارى اثنان في آية يجحدها أحدهما، ويدفعها أو يصير فيه الى الشك فذلك هو المراء الذي هو الكفر[22].

هذا في القرآن، أما الجدال في أحكامه ومعانيه، فيرى ابن عبد البر أنه جائز؛ لأن أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ قد تنازعوا في كثير من ذلك[23].

9 ــ **رؤية الله** : ومن المسائل الاعتقادية التي اختلف فيها علماء المسلمين، رؤية الله يوم القيامة، فمنهم من قال إن الله لا يُرى سواء في الدنيا أو في الآخرة، بناء على قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)، وتأولوا قوله

(19) جلمع بيان العلم وفضله ــ ج 13/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(20) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 78/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(21) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 78/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(22) نفس المصدر السابق.
(23) نفس المصدر السابق.

تعالى : (وجوه يومئذ الى ربها ناظرة) تأويلا مخالفا للغة والأثر، كما فردوا قول رسول الله ــ ﷺ ــ : «إنكم ترون ربكم يوم القيامة[24]».

أما ابن عبد البر فيرى مثل أهل السنة والجماعة ــ أن الله سنراه يوم القيامة، وسننظر اليه كما ننظر البدر ليلة تمامه وكماله[25].

10 ــ الجنة والنار مخلوقان أم لا ؟

اختلف في الجنة والنار هل هما مخلوقتان أو غير مخلوقتان ؟ ، فأهل السنة يقولون بأن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن، وأنهما لا تَبِيدان؛ لأنهما اذا كانتا لا تبيدان حتى تبيد الدنيا، ومعلوم أن الدنيا اذا انقرضت بقيام الساعة، جاءت الآخرة، والآخرة غير خالية من جهنم، كما أنها غير خالية من الجنة؛ لأن الجنة رحمة الله تعالى، والنار عذابه يصيب بها من يشاء من عباده.

أما ابن عبد البر فيرى أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن، وأنهما لا تبيدان، ويستدل على ذلك بقوله : «إن النار مخلوقة دائمة لقول الله عز وجل : (وحاق بآلِ فرعون سوءُ العذاب، النار يُعرَضون عليها غُدُوا وعَشيا) الآية، وقول رسول الله ــ ﷺ ــ : «اذا مات أحدكم عُرِضَ عليه مقعده بالغداة والعشي»، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له هذا مقعدك حتى يبعث الله اليه يوم القيامة[26].

ورأيه هذا مأخوذ كما ترى من الكتاب والسنة؛ لأن ابن عبد البر أَثَرِيٌّ دائما في آرائه، وسني في مذهبه.

11 ــ عذاب القبر والحوض والشفاعة والدجال :

إن هذه الأمور اختلف فيها أهل السنة والخوارج والمعتزلة، فنفاها الخوارج والمعتزلة، وأثبتها جماعة المسلمين، وقالوا الإقرار بها واجب، والإيمان بها ضروري،

(24) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 169/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(25) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 169/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(26) التمهيد ــ ج. 10/5، 11 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

ومنهم ابن عبد البر، الذي قال يجب أن نومن بهذه الأشياء ونصدق بها كما وردت في الأحاديث، فذكر أن «الأحاديث في حوضه ــ ﷺ ــ متواترة صحيحة ثابتة كثيرة، والإيمان بالحوض عند جماعة علماء المسلمين واجب، والإقرار به عند الجماعة لازم، وقد نفاه أهل البدع من الخوارج والمعتزلة، وأهل الحق على التصديق بما جاء عنه في ذلك ــ ﷺ ــ»[27].

ويوخذ من هذا النص أن ابن عبد البر يرى ما لا يراه أهل البدع وهو وجود الحوض، ووجوب الإيمان بذلك.

أما الشفاعة والدجال، فمذهبه فيهما هو مذهب أهل السنة أيضا، وأنهما سيقعان لا محالة، فيجب الإيمان بهما والتصديق بوقوعهما، كما جاءت الآثار.

وفي هذا الصدد قال : على هذا جماعة المسلمين إلا من ذكرنا (من أهل البدع : الخوارج والمعتزلة) فإنهم لا يصدقون بالشفاعة ولا بالحوض ولا بالدجال، خلافا للخوارج والمعتزلة؛ لأنها ماخوذة من جهة الأثر لا ينكرها من يُرضَى قولُه ويحمَد مذهبُه[28].

أما عذاب القبر فيرى أنه سيقع لا محالة، وأنه يجب الإيمان به، ولكن يرى أن عذاب القبر هو من باب التغليب، أي أن الميت يعذب بعد فراق روحه جسده، سواء كان في القبر أو في غير القبر، فيعذب المحروق والمغروق، والمفقود وغيرهم ممن لم يدفن ويوارى في القبر.

12 ــ الروح :

اختلف في الروح أيضا، فقيل الروح هي النفس، وقيل الروح غير النفس.

أما ابن عبد البر فيرى أن الروح والنفس شيء واحد، بدليل أن النبي ــ ﷺ ــ قال : «إن قبض أرواحنا ولو شاء لردها الينا، وبدليل ما جاء في حديث

(27) التمهيد ــ ج 291/2 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.
(28) التمهيد ــ ج 291/2 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

سعيد بن المسيب أن بلالا قال : «أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك»، كما استدل أيضا على أن الروح والنفس شيء واحد بأقوال جماعة من العلماء الذين قالوا إن الروح والنفس شيء واحد.

وبعد أن نقل حجج العلماء في الموضوع، وتحليل قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) قال : «وهذا يدل على أن النفس والروح شيء واحد؛ لأنهم فسروا الآية ــ وقد جاءت بلفظ يتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ــ فقالوا بقبض الأرواح كما رأيت(أ)، وذلك واضح أن النفس والروح سواء[29]، ثم زاد قائلا : ويشهد بصحة ذلك قول رسول الله ــ ﷺ ــ في هذا الحديث : «إن الله قبض أرواحنا»، ولم ينكر على بلال قوله : أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، فالقرآن والسنة تشيران الى معنى واحد بلفظ النفس مرة، وبلفظ الروح أخرى.

ثم قال : «وقال آخرون النفس غير الروح، واحتجوا بأن النفس مخاطبة منهية مامورة، واستدلوا بقول الله عز وجل : (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مَرضية) الآية، وقوله : «أن تقول نفس يا حسرتَى على ما فرطت في جنب الله»، ومثل هذا في القرآن كثير، قالوا والروح تخاطَب ولم تؤمَر ولم تُنْهَ في شيء من القرآن، ولم يلحقها شيء من التوبيخ، كما لحق النفس في غير آية من كتاب الله عز وجل[30]».

ويتلخص رأي ابن عبد البر في هذه المسألة بقوله : «قد قالت العلماء بما وصفنا والله أعلم بالصحيح من ذلك، وما احتج به القوم فليس حجة واضحة، ولا هو مما يقطع بصحته؛ لأنه ليس فيه خبر صحيح، يقطع العذر، ويوجب الحجة، ولا هو مما يدرك بقياس ولا استنباط، بل إن العقول تتحسر وتعجز عن ذلك.

(أ) ارجع إليه في التمهيد ــ 5 / 246 ــ 247.

(29) التمهيد ــ ج 5/146،247 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

(30) التمهيد ــ ج 5/246،247 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

ثم قال : «ولو كانت الأمور على النظر والقياس والاستنباط في معنى الروح من حديث الموطأ، لقلنا إن النظر يشهد للقول الأول، وهو الذي نزل عليه الآثار والله أعلم[31]».

ثانيا : آراؤه السياسية :

رغم أن ابن عبد البر يسلك في السياسة سبيل أهل السنة، ويتبع الأثر في ذلك، فإنه لا يخلو من الإدلاء في هذا الموضوع ببعض الآراء، يجمل بنا أن نستعرضها حتى نكون على بينة من آرائه، وخاصة في الصحابة والخلافة، والخليفة واختياره.

فبالنسبة للخلافة والخليفة وكيف يختار، فقد كان رجلا واقعيا، حيث يتجنب الفتن، ويميل الى هذه القاعدة التي تقول : «اذا اجتمع ضرران، ارتكب أخفهما»، لذا فهو يرى أن يكون شمل المسلمين ملتئما، خير من أن يكون مشتتا، ويفضل الطاعة لإمام متغلب ولو كان ظالما على الخروج عن الجماعة.

وفي هذا يشابه نظره في القضايا السياسية، مع نظر الإمام مالك، واحمد ابن حنبل، فهما يتفقان في ترتيب منازل الصحابة، وفي اختيار الخليفة، ويتفقان أيضا في أن الخروج على الخليفة ولو كان ظالما لا يجوز، لأنه يرتكب في فتن الخروج من الظلم ما لا يرتكبه الحاكم المستبد من ظلم.

أما بالنسبة للخلفاء الراشدين، فيرى أن الخلفاء الراشدين المهديين هم : أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأنهم كلهم أفضل الناس بعد رسول الله ـــ ﷺ ـــ[32].

وهو إذ ذكرهم على هذا الترتيب، اعتبر في ذلك الترتيب الزمني لا الترتيب القيمي، فالخلفاء الأربعة عنده في الفضل سواء، لا فرق بين الأول والأخير، أو الثاني

---

(31) نفس المصدر السابق.

(32) جامع بيان العلم وفضله ـــ ج 224/2 ـــ دار الفكر ـــ بيروت.

والثالث، فكلهم فضلاء راشدون مهديون، وأن كلام الحرورية ضلالة، وكلام الشيعة هلكة[33]، فهو يقدم الأربعة، ويقر لهم بالفضل والخلافة.

أما عمر بن عبد العزيز، فلا يرى أنه من الخلفاء الراشدين، خلافاً للإمام مالك الذي يقول بذلك، وفي هذا يذهب مع الشافعي، كما انه يخالف أحمد بن حنبل في تفضيل الخلفاء الراشدين بعضهم على بعض.

أما اختيار الخليفة، فيرى أنه يجب أن يختار من أهل الفضل والعدل والإحسان والدين، فإذا وجد من توفرت فيه هذه الشروط، واجتمع عليه أهل الحل والعقد، فيجب على المسلمين طاعته، فإن لم يكن هذا فالصبر على طاعة الخليفة الجائر الظالم أولى بالخروج عليه؛ لما فيه من استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء، وشن الغارات والفساد، وذلك أعظم من الصبر على جوره وفسقه. ثم قال : والأصول تشهد، والعقل والدين،أن أولى المكروهَين أولاهما بالتّرك[34].

وهو في هذا يخالف المعتزلة وعامة الخوارج الذين يقولون بمنازعة الظالم الجائر؛ لأنه يرى جواز خلافة المفضول مع وجود الأفضل.

أما مخالطة العلماء للسلطان، فيرى أنه يجب على العلماء أن يخالطوه، ويداخلوه، اذا كان عدلا فاضلا؛ لأن مداخلته ورؤيته وعونه على الصلاح من أفضل أعمال البر[35]، واستشهد على ذلك بمصاحبة العلماء الأجلاء لعمر بن عبد العزيز، مثل عروة بن الزبير، وطبقته وابن شهاب وطبقته[36]، والشعبي وقبيصة وابن ذؤيب، ورجاء بن أنس، والأوزاعي والشافعي، وجماعة يطول ذكرهم.

بل إن ابن عبد البر يرى أن العالم اذا حضر عند السلطان وقال خيرا ونطق بعلم كان حسنا، وكان في ذلك رضوان الله الى يوم يلقاه[37].

---

(33) نفس المرجع السابق.

(34) شرح الزرقاني ــ ج 9/3 ــ ملتزم الطبع والنسر عبد الحميد أحمد حنفي.

(35) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 223/1 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(36)و(37) نفس المصدر السابق.

ثالثا ــ آراؤه حول الاجتهاد والرأي :

الاجتهاد في اللغة هو بذل المجهود واستفراغ الوسع في فعل من الأفعال للحصول على أي غرض كان مما يقتضي الوصول اليه ببذل الجهد والمعاناة الذي لا يستعمل إلا فيما فيه كُلْفَةٌ ومشقة.

وأما في اصطلاح الأصوليين فقال فيه ابن السبكي : الاجتهاد استفراغ الفقيه الوُسْعَ لتحصيل ظن بحكم، وهو على ضربين : أحدهما لا يمكن أن ينقطع حتى ينقطع أصل التكليف، وذلك عند قيام الساعة، والثاني يمكن أن ينقطع قبل فناء الدنيا(38).

أما الرأي في الأصل، مصدر رأى الشيء يراه رأيا ثم غلب استعماله على المرئي نفسه، من باب استعمال المصدر في المفعول، كالهوى في الأصل مصدر هوي يهواه، هوى ثم استعمل في الشيء الذي يهوى، فيقال هذا هوي فلان، والعرب تفرق بين مصادر فعل الرؤية بحسب مجالها، أي في النوم واليقظة، والعقل والعين.

وأقسام الرأي ثلاثة : رأي باطل بلا ريب، ورأي صحيح، ورأي هو موضوع الاشتباه، والقسم الثالث هو المقصود هنا، وهو الذي سوغوا العمل والفتيا والقضاء به، عند الاضطرار اليه حيث لا يوجد منه بد، وهو الاجتهاد على الأصول أو القياس على الأصول.

ونحن نقصد الاجتهاد الذي لا ينقطع إلا بقيام الساعة، الذي استغنى الناس عنه في زمن ابن عبد البر، واكتفوا بتقليد أقوال الأئمة والفقهاء، إذ ركن العلماء في أواخر القرن الثالث إلى التقليد والانشغال بأقوال الأئمة، والاعتماد على الفروع وترك الأصول والاستنباط منهما، فتركوا الاجتهاد جانبا، وشغلهم كتب الفروع عن السنة، والاستنباط منها، فتركوا الاجتهاد جانباً وشغلتهم كتب الفروع

(38) الموافقات للشاطبي ــ ج 4، قسم 89/3 ــ دار المعرفة للطباعة والنشر ــ لبنان.

عن السنة والاستنباط منها، على أن ذلك لم يمنع من وجود أعلام تابعين في العصور المختلفة، درسوا السنة، وعرفوها حق معرفتها، وأطلقوا لأنفسهم حرية الأخذ منها، ومن هؤلاء أبو عمر بن عبد البر وابن حزم، [39] وغيرهما، فقام ابن عبد البر يدعو الى الاجتهاد، والرجوع الى الأصل وهو الكتاب والسنة والاستنباط منهما، متحسرا على الحالة التي آل اليها المفتون والفقهاء في عصره، حيث قال : «واعلم رحمك الله أن طلب العلم في زماننا هذا، وفي بلدنا (الأندلس) قد حاد أهله، عن طريق سلفهم، وسلكوا في ذلك ما لم يعرفه أئمتهم، وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم[40].

ثم قال : «... فهم يقيسون على ما حفظوا من تلك المسائل. ويفرضون الأحكام فيها، ويستدلون منها، ويتركون طريق الاستدلال من حيث استدل الأئمة وعلماء الأمة، فجعلوا ما يحتاج أن يستدل عليه دليلا على غيره، ولو علموا أصول الدين وطريق الأحكام، وحفظوا السنن، كان ذلك قوة لهم على ما ينزل بهم، ولكنهم جهلوا ذلك، فعادوه وعادوا صاحبه» «وأن المفرط في حفظ المولدات لا يومن عليه الجهل بكثير من السنن إذا لم يكن تقدم علمه بها، وأن الفروع لا حد لها تنتهي اليه أبدا، ولذلك تشعبت، فمن رام أن يحيط بآراء الرجال، فقد رام ما لا سبيل له ولا لغيره اليه» ولذا يقول لا بد من حفظ الأصول والعناية بها، وأن يتخذ أقوال الفقهاء عونا له على اجتهاده، ومفتاحا لطرائق النظر، وتفسيرا لحمل السنن المحتملة للمعاني، ولم يقلد أحدا منهم تقليد السنن، التي يجب الانقياد اليها على كل حال دون نظر؛ لأن السنة والقرآن هما أصل الرأي والمعيار عليه، وليس الرأي على السنة، بل السنة معيار عيار عليه، ومن جهل الأصل لم يصل إلى الفرع[41].

---

(39) مفتاح السنة، تأليف محمد عبد العزيز الخولي ص : 163، 164 ــ ط. 3.

(40) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 2/207، 208 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(41) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 2/208.

فابن عبد البر يرى أنه لا بد من الاجتهاد، وفتح بابه في الفقه للقادر عليه، فما تخلف الفقه الإسلامي عن القافلة إلا ليسد هذا الباب منذ قرون، فهو يرى أن الجمود من سمات الموت، ومن علامات الجهل والبدع، وأن الحركة هي الخاصة الأولى للحياة، وأن القرآن العظيم، والسنة النبوية، هما الأصلان اللذان يجب الرجوع إليهما، والقياس عليهما في أحكام النوازل الطارئة لا أقوال الأئمة، والفروع التي تفرعت عنها.

فالاجتهاد عنده لا بد منه، ولا يجوز إلا بعد فقدان النص من الكتاب والسنة والإجماع، وعمل أهل المدينة، فإذا فقدت هذه الأصول، واضطر إلى استعمال الرأي والاجتهاد، فيجب أن يكون ذلك الاجتهاد على الأصول، لا على التقليد الأعمى، أي عند ما ينزل بالعلماء نوازل، يجتهدون الرأي في الأحكام، معتمدين على ذلك في الأصول(42).

ولهذا فالمجتهد عنده هو من يرجع إلى الأصول من الكتاب والسنة والإجماع، وعمل أهل المدينة، ويستنبط الأحكام منها، لا من يرجع إلى أقوال الفقهاء وقلدهم تقليدا أعمى، أي بدون ارجاع أقوالهم إلى الأصول.

ومعنى هذا أنه لا يُلتَجأ إلى الاجتهاد إلا بعد انعدام النص من الكتاب والسنة، وحينئذ يباح اجتهاد الرأي والقياس على الأصول في النازلة تنزل(43).

ويرى ابن عبد البر، أن الرأي ليس بعلم إذا لم يكن مبنيا على الأصول.

ويشترط في المجتهد أن يكون جمع خمسة علوم، : علم كتاب الله عز وجل، وعلم سنة رسول الله ــ ﷺ ــ ، وأقاويل علماء السلف من إجماعهم واختلافهم للاستئناس بها، وعلم اللغة، وعلم القياس، وطريق استنباط الحكم من الكتاب والسنة إذا لم يجده صريحا في نص كتاب أو سنة أو اجماع(44).

---

(42) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 209/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(43) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 140/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(44) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 86/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

فاذا اتبع المجتهد هذا المنهج، وتوفرت فيه شروط الاجتهاد فحينئذ يجتهد، فإذا أخطأ فيؤجر، ولا يلام ما دام لم ينو الخطأ.

وفي هذا الصدد يرى ابن عبد البر، أن اختلاف العلماء ليس بحجة، ولا يعتمد عليه، ولذا فيجب آنذاك أن يطلب الدليل من الكتاب والسنة والإجماع والقياس عند اختلافهم، فإذا استوت الأدلة وجب الميل مع الأشبه بالكتاب والسنة، فإذا لم يتبين ذلك، وجب التوقف، ولم يجز القطع إلا بيقين(45).

رابعا : ــ **آراؤه في التقليد والاتباع :**

الفرق بين التقليد والاتباع : التقليد في الشرع معناه الرجوع الى قول لا حجة لقائله عليه، وذلك عند ابن عبد البر ممنوع منه في الشريعة. والاتباع هو الرجوع إلى قول الدليل والحجة؛ إذ كل من أوجب عليه الدليل اتباع قوله، فأنت متبعه، والاتباع في الدين جائز، ومسوغ، والتقليد ممنوع(46).

والتقليد ثلاثة أنواع : أحدها الاعراض عما أنزل الله، وعدم الالتفات اليه، اكتفاء بتقليد الآباء، وهذا كفر، الثاني تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يوخذ بقوله، الثالث التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف المقلد، والفرق بين هذا وبين النوع الأول، أن الأول قلد قبل تمكنه من العلم والحجة، وهذا قلد بعد ظهور الحجة له، فهو أولى بالذم ومعصية الله ورسوله(47).

ويرى ابن عبد البر، أن التقليد بجميع أنواعه فاسد وباطل، وقد استدل على ذلك بحجج نقلية وعقلية.

فمن الحجج النقلية قوله تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله)، فقد ذم الله تعالى بهذه الآية التقليد؛ لأن الأحبار والرهبان أحلوا لأتباعهم

---

(45) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 99/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(46) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 143/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(47) اعلام الموقعين ــ ج 187/2،188 ــ دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ــ بيروت، لبنان.

وحَرّموا عليهم، فاتبعوهم. وقوله تعالى : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم)، فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء فقالوا : (انا بما ارسلتم به كافرون)، ومثله قال الله عز وجل : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون)، وقال : (اذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين اتّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم). وقال عز وجل عائبا لأهل الكفر وذاما لهم : (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين)). وقال : «وقالوا ربَّنا إنَّا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا»، ومثل هذا كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء[48]».

وقد احتج العلماء بهذه الآيات في ابطال التقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها؛ لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وايمان الآخر، وانما وقع التشبيه بين التقليد بغير حجة المقلد، كما لو قلد رجل فكفر، وقلد آخر فأذنب، فقلد آخر في مسألة دنياه فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة؛ لأن كل ذلك تقليد ينسبه بعضه بعضا وان اختلفت الآثام[49].

وكقول النبي ــ ﷺ ــ : «اني لأخاف على أمتي من بعدي من أعمال ثلاثة، قيل وما هي يا رسول الله ؟ قال : أخاف عليكم من زلة العالم ومن حكم جائر ومن هوى مُتّبَع». وقال : «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة رسوله[50]».

أما الحجج العقلية عند ابن عبد البر على فساد التقليد فهي التي ضمنها هذا الحوار الذي ورد في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) :

---

(48) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 2/ /13 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(49) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 134/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(50) نفس المصدر السابق.

«قال أبو عمر : يقال لمن قال بالتقليد لم قلتَ به وخالفتَ السلف في ذلك، فانهم لم يقلدوا ؟ فان قال قلدت لأن كتاب الله جل وعز لا علم لي بتأويله، وسنة رسوله لم أحصها والذي قلدته قد علم ذلك، فقلدت من هو أعلم مني، قيل له : أما العلماء اذا اجتمعوا على شيء من تأويل الكتاب أو حكاية سنة عن رسول الله ــ ﷺ ــ . أو اجتمع رأيهم على شيء، فهو الحق لا شك فيه، ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضم دون بعض فما حجتك في تقليد بعض دون بعض، وكلهم عالم، ولعل الذي رغبت عن قوله أعلم من الذي ذهبت الى مذهبه، فإن قال قلدته لأني علمت أنه صواب، قيل له : علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سنة أو اجماع فقد أبطل التقليد، وطولب بما ادعاه من الدليل، وإن قال قلدته لأنه أعلم مني، قيل له : فقلد كل من هو أعلم منك، فانك تجد من ذلك خلقا كثيرا، ولا تخص من قلدته، اذ علتك فيه أنه أعلم منك، فان قال قلدته لأنه أعلم الناس، قيل له : فهو ليس أعلم من الصحابة، وكفى بقول مثل هذا قبحا، وان قال انما أقلد بعض الصحابة، قيل له : فما حجتك في ترك من لم تقلد منهم، ولعل من تركت قوله منهم أفضل ممن أخذت بقوله، على أن القول لا يصح لفضل قائله، وانما يصح بدلالة الدليل[51]».

ومعنى هذا، أن ابن عبد البر يرى أن التقليد بدون دليل شر وفاسد ولا يحفل به، وصاحبه لا فرق بينه وبين بهيمة، كما قال :

لا فرق بين مقلد وبهيمة تنقاد بين جنادل ودعاثر[52].

وهذا رأيه في العلماء الذين يقلدون، أما العامة فيقول بجواز تقليدهم، وأنهم هم المرادون بقوله تعالى : (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون)، ومثلهم في ذلك مثل الأعمى؛ لأنه لا بد لـه من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة اذا أشكلتْ عليه.

---

(51) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 143/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

(52) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 140/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

وعلى هذا فهو لا يرى الاقتداء الا بالكتاب والسنة، ويقول ان القول في دين الله بالرأي والظن والقياس على غير أصل مذموم، وقد نهى الأئمة أنفسهم رضوان الله عليهم عن تقليدهم بلا حق، وقد نقل هذا النهي عن أبي حنيفة وغيره، ومن ذلك قول الشافعي : «مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل، يحمل حزمة من حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري».

وليس لأحد هنا أن يخلط بين التقليد المنهي عنه، وبين الاتباع الذي أثنى عليه بقولة عز وجل : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان) فيقول بأن في التقليد اتباعا يرضاه الله جل ثناؤه، نعم ليس لنا أن نلجأ لمثل هذا القول، فإن اتباع الجِلة من المهاجرين والأنصار ـــ في هذه الناحية ـــ هو احتذاؤهم في طرق استدلالهم واستنباطهم الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، والفرق كبير بين هذا وبين التقليد.

الفصل الثالث

فقهه (أ) ومنهجه (ب)

لقد كانت عقيدة ابن عبد البر صافية لم يشبها أدنى تعكير، وعقليته وتفكيره سَنية، لم يمسها الزعازع والانحرافات؛ اذ لم يعبأ بما في ميدان العقيدة[1] والفقه بأي منهج الا بمنهج الله ورسوله، اقتداء بقول الرسول — ﷺ — : «تركتكم على المحجة البيضاء فلم يزغ عنها إلا هالك»، ولذلك لما أراد الاستدلال على وجود الله وصفاته والعالَم الغيبي اتبع منهج القرآن[2] في هذا الاستدلال، منهج الفطرة النقية، والذوق السليم، فقال : «نصف الله بما وصف به نفسه» و «أن العالم الغيبي توقيفي» والنظر الغائب «انظر في نفسك وفيما حولك تعرف الله»، فلم يستعمل في ذلك نظريات الفلاسفة والعقلانيين من المعتزلة وغيرهم من الفرق الاسلامية وغير الاسلامية، وتأملاتهم البعيدة والمغرقة في التفكير.

وهذا المنهج هو الذي اتبعه السلفيون من الصحابة والتابعين والأئمة من بعدهم، وهو المنهج الذي دعا إليه القرآن، وحث على استعماله، في قوله تعالى: «نحن خلقناكم فلولا تصدقون، أفرايتم ما تمنون آنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟.. نحن

(أ) أريد بفقهه هنا اجتهاداته واتجاهته فيه والأصول التي بناه عليها لا وصفة كمادة من معارفه، فهذا قد تقدم في الفصل الأول من هذا البـــاب.

(ب) أما منهجه فأعني به الطريقة العلمية التي اتبعها في استنباط الأحكام الفقهية من السنة.

(1) جامع بيان العلم وفضله — ج 1/12، 13 — دار الفكر — بيروت.

(2) نفس المصدر السابق.

قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالك وننشئكم في ما لا تعلمون، ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون؟. أفرايتم ما تحرثون آنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟.. لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون، أفرايتم الماء الذي تشربون آنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون؟.. لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون؟.. أفرايتم النار التي تورون آنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون»(3).

أيّ المنهج الذي يقوم على تأمل حال العالم ــ عُلْويّه وسُفْليه بجميع أجزائه، تجده شاهداً بإثبات صانعه وفاطره ومَلِكه ومتصرف فيه، فأنكر صانعه وجاحده في العقول والفطرة بمنزلة إنكار العلم وجحده لا فرق بينهما.

ومعلوم أن وجود الله تعالى أظهرُ وأبيَنُ للعقول والفطر من وجود النهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فيتممها وليعد النظر في ذلك.

ولقد كان من أهداف ابن عبد البر هذا المنهج القرآني، وخاصة في العقيدة، الرجوع إلى منابع الدين سهلا صافياً، لم يكدره آراء أهل البدع والأهواء والضالين المضلين؛ لأن عنده القول في دين الله بالرأي والظن والقياس على غير أصل مذمومٌ(4)، وخاصة البِدع المخالفة للسنن في الاعتقاد، كرأي جهم وسائر مذاهب أهل الكلام(5).

ولذا فمنهجه لم تشبه حيل المتلاعبين من زنادقة ومنحرفين، فنادى بالرجوع الى مذهب السلف الذين تلقوا عن رسول الله ــ ﷺ ــ بلا واسطة، فهم ورثة النبي، فالرسول ــ عليه السلام ــ «لم يورث لا دينارا ولا درهما وانما ورث العلم».

(3) سورة الواقعة.
(4) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 162/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(5) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 169/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

فمنهجه في العقيدة يقوم على الاتباع وعدم الاجتهاد لأنها توقيفية، لا مجال للعقل فيها، ولا مجال للقياس في التوحيد عنده؛ لأن هذا يكون في الأحكام لا في العقيدة(6).

ويقوم أيضا على مبدأ : «نَصِفُ الله بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله»(7).

أما في الفقه، فقد دعا ابن عبد البر الى الاجتهاد والتوسع في استنباط الأحكام من القرآن والأحاديث الصحيحة، فأبطل بذلك مذهب التقليد، وأحدث في التشريع الاسلامي ما يسمى بفقه الحديث، أو فقه السنة، والفقه المقارن؛ لأن فقهه يقوم على مقارنة أقوال أئمة المذاهب، والأخذ بالصحيح والأصوب منها، اذ جرَّبه أولا مذهب أهل الظاهر وهو حقيقي أن يجذب مثله ابتداء لشدة تمسكهم بظاهر النص، والتزام الوقوف عنده في استنباط الأحكام، ولما هدأت الثورة ووضحت الرؤية، دعت دواعي النظر والاجتهاد تحوله الى مذهب مالك لا يعدل عنه، لكنه لم يكن من المقلدين الذين يعطلون الرأي، أو يفرون من أقوال وآراء الآخرين لا ينظرون فيها ولا يحاولون تاويلها، أو التماس وجه لها، فقد كان متفتحا مسامحا وغير متعصب لمذهب دون آخر، فهو على غزارة روايته،، وتعويله مع الرواية على عمل أهل المدينة ــ لا يغفل القياس والرأي كمذهب أهل الظاهر، أو يتنكر له، ومذهب الإمام الشافعي بما فيه من أصول مذهب الإمام مالك، حقيق أن يكون له هوى فيه، وأن يكون عنده نزوع اليه، ولذا فقد كان كثيرا ما يخرج على المالكية، مستنبطا رأيا جديدا بعد مقارنته للمذاهب الفقهية، أو مرجحا احداها على رأي المالكية، بل أحيانا كان يرد على الإمام مالك(8)، مثل ما قصد في تقديم المكتوبة على الفجر، فمالك يقول اذا فات وقت صلاة الفجر، تقدم صلاة الصبح ثم بعد ذلك يصلى الفجر، فرد ذلك ابن عبد البر وقال : «ليس في رواية

(6) جامع بيان العلم وفضله ــ ج81/2 ــ دار الفكر ــ بيروت، والاستذكار ج 1/ ــ الطبعة الأولى ــ القاهرة.
(7) شرح الزرقاني على موطأ مالك ــ ج 38/2.
(8) رد روايته عن أنس.

مالك أن رسول الله ﷺ ركع ركعتي الفجر في ذلك، وانما صار في ذلك الى ما روى، وعلى مذهبه في ذلك جمهور أصحابه إلا أشهب وعلي بن زياد... ثم قال ابن عبد البر : «أما صلاة ركعتي الفجر لمن نام عن صلاة الفجر ولم ينتبه لها الا بعد طلوع الشمس فان مالكا قال : يبدأ بالمكتوبة، وقد كان يجب على أصل مالك أن يركعهما قبل أن يصلي الصبح[9]...»، بل رد عليه في كثير من المسائل الفقهية، فانه كان ممن بلغ رتبة الاجتهاد[10].

وهكذا خلق فقهاً جديداً مطبوعاً بطابعه ويكاد يكون مستقلا عن جميع المذاهب، يمكن أن نسميه فقه الحديث المقارن، أو فقه السنة المقارن، وهو فقه مزيج من المذاهب الفقهية الاسلامية جميعا، يمتاز بالواقعية والمرونة ومسايرة التطور الانساني[11].

أما منهجه في الفقه فهو الارتفاع بشأن النصوص، لا يفرِّغُ عليها حوادث لم تقع، ما يعطيه النص فهو الحق، أي في دراسته الفقهية للنصوص يسير فيها حسب الأصول والقواعد الاجتهادية المتفق عليها، فإن صادف رأيه في ذلك رأي أحد أئمة المذاهب صوبه أو رجحه أو اختاره أو أيده، وإن خالف رأيه في رأيهم رد عليهم وعارضهم، وناقشهم مناقشة مريرة[12] مؤيدا قوله بالحجج والبراهين النقلية والعقلية والواقعية بعد استشهاده بآيات قرآنية وأحاديث الرسول، وبأبيات من الشعر العربي، ولا يفلت أحد من معارضته اذا رأى ذلك مخالفا للكتاب والسنة والاجماع وعمل الصحابة والقياس.

ولهذا فإن منهجه في الفقه والأحكام التشريعية يقوم على الاجتهاد المتقيد بالنصوص، والتمسك بعمل السلف الصالح، وهذا التقيد الشديد بالنصوص، جعله يخالف كثيراً من الأئمة والفقهاء، فأحيانا ذهب مع هذا، وأخرى عارض هذا،

(9) أنظره في الاستذكار ــ ج 1/114،115 ــ الطبعة الأولى القاهرة، فهناك كلام ويل.

(10) جميع من أقر له صرح بذلك.

(11) سأترك الكلام فيه إن شاء الله الى الأطروحة (الدكتورة).

(12) التمهيد والاستذكار، وجامع بيان العلم وفضله، شاهد على ذلك.

ومن ثم يمكن القول بأن ابن عبد البر كان يتميز في فقهه ومنهجه في البحث والنقد بالاستقلال الفكري، ويبدو هذا جلياً في المسائل الفقهية التي خالف فيها مالكا كالصلاة الوسطى التي يقول فيها بأنها جميع الصلوات الخمس(13)، والبسملة في الصلاة(14).

فمنهجه في الدراسة الفقهية منهج استقرائي واستنباطي في نفس الوقت، فهو منهج ازدواجي يستعمل المنهج الاستقرائي حينما يكون يبحث على الصواب، ويستعمل المنهج الاستنباطي بعد أن يصل الى أصل من الأصول، فيستنبط به الأحكام من النصوص؛ اذ كان ياخذ الحديث أو أية مسألة فقهية، ويستقرىء جميع الأوجه والطرق التي رُوِيَ بها، ثم يستعرض أيضا كل الآراء التي دارت حول الفقه المستنبط منها والمعنى الذي فهم منه، وذلك بواسطة الروايات والأحاديث الأخرى، أو بواسطة التفاسير والشروح اللغوية فيتتبع الأقوال والآراء المختلفة، والمفردات اللغوية واشتقاقها وتطورها، واختلاف معانيها، وبعد ذلك يبدي رأيه النهائي(15)، وهذا المنهج الاستقرائي قد أخضع له جميع دراساته. وابن عبد البر قد أشار الى هذا المنهج في مقدمة «التمهيد» بقوله : «أما بعد فإني رأيت كل من قصد الى تخريج ما في موطأ مالك بن أنس ــ رحمه الله ــ من حديث رسول الله ــ ﷺ ــ قصد بزعمه الى المسنَد، وأضرَبَ عن المنقطع والمرسَل، وتأملت ذلك في كل ما انتهى اليّ مما جمع في سائر البلدان، وألّف على اختلاف الأزمان، فلم أر جامعيه وقفوا عند شروطه، ولا يسلم لهم في ذلك ما أمّلوهُ، بل أدخلوا من المنقطع شيئا في باب المتصل، وأتوا بالمرسَل مع المسنَد».

فهذا يمثل منهجه الازدواجي، فهو يقول ثم يُصدر حكمه على من اشتغل بموطأ مالك بأنهم خالفوا الشروط التي اشترطوها على أنفسهم، ولم يقفوا عندها الا

(13) إلتمهيد ــ ج 294/4 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

(14) الانصاف فيما في بسم الله الرحمن الرحيم من الخلاف، والاستذكار ج 175/1، 177، الطبعة الأولى ــ القاهرة، وتفسير ابن كثير ج 16/1 ــ ط. دار الفكر ــ بيروت.

(15) جميع مؤلفاته شاهدة على ذلك : التمهيد، والاستذكار... الخ.

بعد استقراء ذلك، وتتبعهم جميعا في كل البلدان واختلاف الأزمان، فهذا الاستقراء الذي يوطد من صريح العبارة، فكلمة (كل) و (سائر) و (اختلاف الأزمان) كافية في الاستدلال على أن ابن عبد البر اتبع في فقهه وأحكامه على الأشياء المنهج الاستقرائي القائم على تتبع كل الجزئيات وملاحظتها، ثم مقارنتها، ثم النتيجة والحكم.

ثم بعد هذا الاستقراء ياتي دور الاستنباط، فبالنتيجة التي يتوصل اليها بالمنهج العلمي السابق، يستنبط الأحكام الفقهية، والقوانين التشريعية.

أما الأصول التي اعتمد عليها في منهجه الفقهي فهي الأصول التي اعتمد عليها الإمام مالك والأئمة الذين جاءوا بعده وهي : الكتاب والسنة والإجماع والقياس، والذرائع، والمصالح المرسلة، وإجماع أهل المدينة.

فالكتاب والسنة لهما نص الخطاب، وظاهره[16] والخصوص والعموم[17]، ويخصص عنده العموم بالإجماع[18].

ففي حديث أول لاسحاق عن أنس، قال ابن عبد البر : «فيه استعمال ظاهر الخطاب وعمومه، وأن الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ لم يفهموا من فحوى الخطاب غير، ألا ترى أن أبا طلحة حين سمع : «**لن تنالوا البرِّ حتى تنفقوا مما تحبون**» لم يحتج أن يقف حتى يرد عليه البيان عن الشيء الذي يريد الله أن ينفق منه عباده باية أخرى، أو سنة مبينة لذلك، فإنهم يحبون أشياء كثيرة، وفيه بادر أبو طلحة الى استعمال ما وقع عليه معنى حبه في الانفاق منه، دليل على استعمال معنى العموم وما احتمل الاسم الظاهر منه في أقل ذلك أو أكثره.

---

(16) التمهيد ــ ج 121/3 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

(17) التمهيد ــ ج 117/6، 118 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

(18) التمهيد ــ ج 116/2 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.

وفي هذا رد على من أبى من استعمال العموم لاحتماله التخصيص، وهذا أصل من أصول الفقه كبير[19]».

وكذلك فيهما الناسخ والمنسوخ[20]، وعنده أن اضطراب الحديث حجة على النفي[21]، وأن الأمر الاخير من أوامر رسول الله ــ ﷺ ــ ناسخ كما تقدم، إذا لم يمكن استعماله وصح تعاضده[22]، وأن كل أمر ياتي في الكتاب والسنة بعد حصر ومنع تقدمه، فمعناه الإباحة لا غير، وأن الأصل في الأشياء الإباحة، حتى يصح المنع بوجه لا معارض له، ودليل غير محتمل للتأويل[23].

أما الاجماع فعنده من الأصول المهمة في استنباط الأحكام، والاجماع حسبما له في كتبه ربما يقصد منه اجماع الصحابة وأهل المدينة، ويقول فيها : «ان أحكام الدنيا على الظاهر وأن أمر السرائر الى الله[24]»، أو يقصد بالاجماع الأغلبية من العلماء والفقهاء[25].

ومن الأسس التي بنى عليها منهجه الفقهي القياس، فاجتهاداته وآراؤه قائمة كلها أو غالبها على هذا الأصل، وقد عقد بابا كاملا في اثبات القياس والانتصار له سماه «باب مختصر في اثبات المقايسة في الفقه[26]»، استدل على ثبوته بآيات كثيرة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وعملهم، وأقوال التابعين. وقال : «القياس والتشبيه من لغة العرب الفصيحة التي نزل بها القرآن[27]».

---

(19) التمهيد ــ ج 198/1 الى 203 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.
(20) التمهيد ــ ج 141/6 ــ 160 الطبعة الأولى ــ المغرب.
(21) التمهيد ــ ج 178/3 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.
(22) التمهيد ــ ج 216/3 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.
(23) التمهيد ــ ج 217/3 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب.
(24) ترتيب المدارك ــ ج 102/1 ــ الطبعة المغربية تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.
(25) في استقراءاته لاجتماعاته في التمهيد والاستذكار وجامع بيان العلم وفضله.
(26) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 81/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(27) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 84/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

لكنه يشترط في القياس أن يكون على الأصول لا على الفروع[28].

وكذلك كان يعتمد منهجه الفقهي على أسباب النزول[29]، وتفسير القرآن بالقرآن[30]، وسد الذرائع[31].

هذا وقد استغل اللغة استغلالا كبيرا في استنباط المسائل الفقهية، ورد أقوال مخالفيه، وكذلك قواعدها مثل الترتيب بالفاء، وثم، وواو العطف في الكتاب والسنة[32]، وأداة التخيير (أو)[33].

وأخيرا اجتهاده وقدرته العقلية على التأويل وتحليل الأحاديث اللغوي، ويمثل هذا تحليله للحديث الرابع لإسماعيل بن حَكيم، وهو : «مالك عن اسماعيل بن أبي حكيم أنه بلغه أن رسول الله ــ ﷺ ــ سمع امرأة تصلي من الليل فقال من هذه، فقال الحولاء بنت تويب لا تنام الليل، فكره ذلك رسول الله ــ ﷺ ــ حتى عرفنا الكراهة في وجهه، ثم قال : «إن الله لا يَمل حتى تملوا إكلفوا من العمل ما لكم به طاقة».

قال أبو عمر : قوله : «ان الله لا يمل حتى تملوا» معناه عند أهل العلم أن الله لا يمل من الثواب والعطاء على العمل حتى تملوا أنتم، ولا يسأم من إفضاله عليكم بسآمتكم عن العمل له، وأنتم متى تكلفتم من العبادة ما لا تطيقون لحقكم الملل، وأدرككم الضعف والسآمة، وانقطع عملكم، فانقطع عنكم الثواب لانقطاع العمل، يحضهم ــ ﷺ ــ على القليل الدائم، ويخبرهم أن النفوس لا تحتمل الاسراف عليها، وأن الملل سبب الى قطع العمل[34].

(28) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 91/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.
(29) التمهيد ــ ج 186/5، 188 ــ ط. 1 المغرب.
(30) التمهيد ــ ج 199/5 ــ ط. 1 المغرب.
(31) التمهيد ــ ج 121/3 ــ ط. 1 ــ المغرب.
(32) نفس المصدر السابق.
(33) التمهيد ــ ج 233/2 ــ ط. 1. المغرب.
(34) التمهيد ــ ج 191/1، 194 ــ ط. 1 ــ المغرب.

فانظر الى قدرته العجيبة على فهم الأحاديث وتأويلها، فانه بهذا العقل الجبار استطاع أن يصل الى مرتبة المجتهدين وأن يحدث في الفقه الاسلامي فقها جديدا سمي بفقه الحديث المقارن، أو فقه السنة.

وهذا المنهج الفقهي لدى ابن عبد البر قد لخصه بنفسه في قوله : «إن الاجتهاد لا يكون إلا على أصول يضاف اليه التحليل والتحريم، وأنه لا يجتهدُ إلا عالم بها، ومن أشكل عليه شيء لزمه الوقوف، ولم يجز له أن يحيل على الله قولا في دينه لا نظير له من أصل، ولا هو في معنى الأصل، وهو الذي لا خلاف فيه بين أئمة الأمصار قديما وحديثا فتدبره[35]».

اذن منهجه الفقهي يقوم على المنهجية الازدواجية : المنهج النقلي، أو منهج المحدِّثين الذي يقتصر على ذكر المنقول بالسّند المتصل، والمنهج العقلي الذي يعتمد على التجربة والاستقراء والاستنباط، وهو المنهج الذي يسمى بالاجتهاد وبالرأي والقياس.

ومعلوم أن ابن عبد البر، دعا الى الاجتهاد ونبّذ التقليد الذي اعتنقه الفقهاء في عصره، واشتغلوا بالفروع وأقوال الأئمة.

أما منهجه في الحديث والتاريخ والأخبار والسير والأدب، والتأليف، والتدريس، فيقترب كثيرا من منهجه في الفقه، وقد سبق أن أشرت اليه في تحليل بعض كتبه في الفصول الخاصة بذلك، أما الآن فسأتناول منهجه في الحديث والتاريخ بشيء من التفصيل.

المنهج الدي سار عليه في الحديث وعلومه من التجريح والتعديل، ومصطلح الحديث، وتاريخ الرواة وأحوالهم، هو منهج المحدثين، أو المنهج النقلي الذي يعتمد على الرواية والسماع في الدرجة الأولى، لكن ليس معنى هذا أن ابن عبد البر أهمل منهج العقليين الذي يقوم على التجربة والمقارنة، والنقد المعلل، بل استعان به كثيرا

(35) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 71/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

بجانب المنهج النقلي، خاصة في الجرح والتعديل، والوقائع التاريخية، والأحداث المتصلة بالرواية والرواة.

والأسس التي بنى عليها منهجه في الحديث والعلوم النقلية، هي تقريبا نفس طرق التحمل وصوره ومنها :

أولا : ــ السماع، وهو المشافهة والسماع المباشر من الشيخ، وذلك على طريقة الرواة الأولين، والمحدثين السابقين، وهذه الطريقة اعتمد عليها كثيرا في التأليف أو الدراسة والبحث، أو في الناحية التاريخية، فكتبه كلها مليئة بسماعه من الشيوخ، وبالسند المتصل، إذ جل الاحاديث يرويها بالسند المتصل وبصيغة سمعت أو أخبرني أو حدثني نظراً إلى أن السماع أعلى صور النقل وأرفعها وأقواها، اذ تجد في الصفحة الواحدة أكثر من أربع مرة، قوله : أخبرنا وحدثنا[36].

والسماع من المحدثين هو أن يسمع المتحمل من لفظ شيخه، سواء أحدثه الشيخ من كتاب يقرأه، أم من محفوظاته، وسواء أأملى عليه أم لم يُمْلِ عليه.

ثانياً : ــ القراءة، وهي أن يقرأ التلميذ على الشيخ حفظا من قلبه، أو من كتاب ينظر فيه، وكتب ابن عبد البر مليئة أيضا بالأحاديث التي يقول فيها قرأت.

ثالثا : ــ الإجازة، وقد أجازه كثير من شيوخه في الأندلس أو خارجها[37].

رابعاً : ــ المكاتبة، وقد كاتبه أبو الفتح بإجازة ما رواه، فقد قال في التمهيد :

«قال أبو عمر : وقد كتب إلينا أبو الفتح بإجازة ما رواه، وأباح لنا أن نحدث عنه، وكتب ذلك بخطه[38].

---

(36) ارجع الى بيان العلم وفضله، والتمهيد، والاستذكار، وجميع كتبه وفتاويه.

(37) انظر الشيوخ الذين أجازوه في الفصل الخاص بهم في الباب الأول.

(38) الجزء الرابع، ص. 7 ــ 8.

خامسا : ــ الوجادة، والوجادة (بكسر الواو) مصدر مولد غير مسموع من العرب، اصطلح المحدّثون على إطلاقه على أخذ العلم من صحيفة من غير سماع ولا إجازة ولا مناولة، وذلك إذا وجَد الشخص حديثا بخط شيخ كان قد لقيه، فألِفَ خطه وعرفه ووثِقَ به، أو لم يلقه ولكنه استيقن من أن هذا المخطوط صحيح النسبة إليه، وكذلك إذا وجد بعض الأحاديث في كتب مشهورة لمؤلفين مشهورين.

وكان ابن عبد البر يحدث كثيراً عن كتاب أبيه، فيقول : «وجدت في سماع أبي بخطه[39] وهذه العبارة مكررة كثيرا في جامع بيان العلم وفضله والتمهيد وغيرهما من كتبه، وأحياناً يقول : «وجدت في أصل سماع أبي بخطه[40]».

وهذا المنهج النقلي قد حث هو نفسه على اتباعه والاقتداء بأصحابه، بقولـه :

«ومَن طَلب السنن فليكن معوّلُه على حديث الأئمة الثقات الحُفّاظ الذين جعلهم الله خزائن لعلم دينه وأمناء على سنن رسول الله ﷺ كمالك بن أنس الذي اتفق المسلمون طراً على صحة نقله، وتفاوت حديثه، وشدة توقيه وانتقاده، ومن جرى مجراه من ثقات علماء الحجاز والعراق والشام، كشُعبة بن الحجاج وسفيان الثوري والأوزاعي، وابن عيينة، ومعمر، وسائر أصحاب ابن شهاب الثقات، كابن جُرَيج، وعُقيل، ويونس، وشعيب، والزبيدي، والليث، وحديث هؤلاء عند ابن وهب وغيره، وكذلك حديث حماد بن زيد وحماد بن سلمة، ويحيى بن سعيد القطان، وابن المبارك وأمثالهم من أهل الثقة والأمانة، وعلى حديثهم اعتمد المصنّفون للسنن الصحاح، ومسلم وأبو داود والنسائي ومن سلك سبيلهم...[41]....».

---

(39) التمهيد ــ ج 394/1 ــ الطبعة الأولى ــ المغرب، والصلة م. 239/1 ط. مجريط.

(40) التمهيد ــ ج 65/5 ــ 66 ــ الطبعة الأولى.

(41) جامع بيان العلم وفضله ــ ج 205/2 ــ دار الفكر ــ بيروت.

ثم قال : «ومما يستعان به على فهم الحديث العلم بلسان العرب ومواقع كلامها وسعة لغتها واستعارتها ومجازها، وعموم لفظ مخاطبتها وخصوصه، وسائر مذاهبها لمن قدر عليها، فهو شيء لا يستغنى عنه[42]».

وقال : «ويلزم صاحب الحديث أن يعرف الصحابة المؤدين للدين عن نبيهم — ﷺ — ويُعنى بسيَرهم وفضائلهم، ويعرف الناقلين عنهم وأيامهم وأخبارهم، حتى يقف على العدول منهم من غير العدول، وهو أمر قريب على من اجتهد[43]...».

ومن هذه النصوص ندرك منهج ابن عبد البر في الحديث، والأسس التي بناه عليها، فهو منهج قائم على الرواية والدراية والاجتهاد. وهكذا قام بتمحيص الرواية واستخراجها من الدخيل ليميز الخبيث من الطيب، فدرس رواة الحديث، وتتبع أحوالهم وأماكنهم ودرجاتهم، ودرس التاريخ واللغة وقواعدها ومذاهبها، واستعمل كل طاقته في ذلك، حتى خلق منهجا جديدا في الحديث وعلومه، يمكن أن نسميه بمنهج ابن عبد البر في الحديث، أو بفقه ابن عبد البر المبني على التعليل.

ومعلوم أن دراسة الحديث دراسة معللة بأن يجمع في كل حديث طرقه، واختلاف الرواة فيه، تكفي للدلالة على منهج ابن عبد البر الاستقرائي والنقدي، فإن معرفة العلل والأسباب أجل أنواع علم الحديث، استطاع بذلك أن يكوّن لنفسه مُسندا خاصا به، وفلسفة فقه الحديث قائمة بذاتها.

---

(42) جامع بيان العلم وفضله — ج 206/2 — دار الفكر — بيروت.

(43) جامع بيان العلم وفضله — ج 207/2.

منزلته ومكانته بين العلماء

استطاع ابن عبد البر بالعمل المتواصل في سبيل العلم، وحبه الشديد والإخلاص له، أن ينال ثناء العلماء وشهادتهم بعلمه وتفوقه، وأن ينتزع تقديرهم واحترامهم، ومن بين هؤلاء العلماء الذين شهدوا له بالعلم والتقوى فيه :

1 ــ ابن حزم : وما أدراك ما ابن حزم، فقد قال في رسالته في فضل الأندلس، وذكر رجالها ما نصه : «... ومنها كتاب التمهيد لصاحبنا أبي عمر يوسف بن عبد البر، وهو الآن يعد في الحياة، لم يبلغ سن الشيخوخة، وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلا، فكيف أحسن منه، ومنها كتاب الاستذكار، وهو اختصار التمهيد المذكور، ولصاحبنا أبي عمر بن عبد البر المذكور كتب لا مثل لها منها كتابه المسمى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر كتابا اقتصر فيه على ما بالمفتي الحاجةُ اليه وبوّبه وقرّبه، فصار مغنيا عن التصنيفات الطوال في معناه، ومنها كتابه في الصحابة ليس لأحد من المتقدمين مثله، على كثرة ما صنفوا في ذلك[44]».

2 ــ وقال تلميذه الحُميدي : «انه فقيه حافظ مكثر عالم بالقراءات والخلاف في الفقه، وبعلوم الحديث والرجال، قديم السماع، كثير الشيوخ. وألف مما جمع تواليف نافعة، وكان يميل الى فقه الشافعي[45].

3 ــ وقال أبو علي سكره : «سمعت شيخنا القاضي أبا الوليد الباجي يقول : لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر بن عبد البر في الحديث، وقال الباجي أيضا : أبو عمر أحفظ أهل المغرب[46]». وشهادة أبي الوليد الباجي بعلم ابن عبد البر، شهادة لها قيمة كبيرة، نظرا لما كان بينهما من التنافس على سؤدد العلم[47].

(44) نفح الطيب ــ ج 767/2 ــ تحقيق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر ــ بيروت.
(45) الجذوة ص : 344.
(46) وفيات الأعيان ــ ج 66/7، دائرة المعارف ج 333/3 ــ بيروت.
(47) القاضي عياض : المدارك ــ ج 808/4،809، ط. بيروت.

4 ــ وقال تلميذه أبو علي الغساني : «وعنه (ابن الفرضي) أخذ كثيراً من علم الرجال والحديث، وهذا الفن كان الغالب عليه، وكان قائما بفهم القرآن[48]».

وقال تلميذه أبو علي الجَيّاني : «وصبر أبو عمر على الطلب ودأب فيه ودرس وبرع براعة فاق فيها من تقدمه من رجال الأندلس، وعظم شأن أبي عمر في الأندلس، وعلا ذكره في الأقطار»، وقال أيضا : «سمعت أبا عمر يقول : لم يكن ببلدنا أفقه من قاسم بن محمد بن قاسم (شيخ ابن عبد البر[49])، وأحمد بن خالد. قال أبو علي : وأنا أقول : إن أبا عمر لم يكن دونهما، ولا متخلفا عنهما، وكان مع تقدمه في علم الأثر، وتبصره بالفقه ومعاني الحديث، له بسطة كبيرة من علم النسب والخبر[50].

6 ــ وقال فيه احمد الضبي : «فقيه، حافظ مكثر، عالم بالقراءات والخلاف[51]».

7 ــ وقال ابن بشكوال : «وكان مع تقدمه في علم الأثر، وبصره بالفقه، ومعاني الحديث، له بسطة كبيرة في علم النسب والخبر[52].

8 ــ وقال ابن الأبار[53] : «أبو عمر الحافظ وكبير محدثيها».

9 ــ وقال فيه القاضي عياض : «ابن عبد البر الحافظ شيخ علماء الأندلس، وكبير محدثيها في وقته، وأحفظ من كان بها لِسُنّة مأثورة[54]».

10 ــ وقال ابن فرحون : «ابن عبد البر الحافظ، شيخ علماء الأندلس وكبير محدثيها في وقته، وأحفظ من كان فيها لسنة مأثورة، سمع منه عالم كثير من

---

(48) القاضي عياض : المدارك ــ ج 4/808،809.
(49) انظر فصل شيوخه فيما بعد.
(50) القاضي عياض : المدارك ــ 4/808،809.
(51) البغية، ص 474 ــ فقرة 1442، ط. مجريط.
(52) الصلة مجلد 2/618 ــ طبعة مجريط.
(53) التكملة 1/371.
(54) المدارك ج 4/808.

جلة أهل العلم[55]»، وزاد قائلا : « (كان) موفقا في التأليف، معانا عليه، ونفع الله بتآليفه، فكان مع تقدمه في علم الأثر، وتبصره بالفقه ومعاني الحديث، له بسطة كبيرة في علم النسب[56]».

11 ــ وقال الفتح بن خاقان في مطمح الأنفس(أ) : «أبو عمر يوسف بن عبد البر الفقيه الامام العالم الحافظ، إمام الأندلس، وعالمها الذي تتحدث به معالمها، صحح المتن والسند، ومَيّز المرسل من المسند، وفرق بين الموصول والقاطع (المنقطع)، وكسا الملةَ منه نور ساطع، حصر الرواة، وأحصى الضعفاء منهم والثقات، وجَدّ في تصحيح السقيم، وحدد ما كان منه بالكهف والرقيم، مع معلقات العلل وإرهاق ذلك العلل، والتنبيه والتوقيف، والاتقان والتثقيف، وشرح المقفل واستدراك المغفل،وله فنون هي للشريعة رتاج وفي مفرق الملة تاج أشهرت للحديث طُبيَ، وفرعت لمعرفته رُبَى، وهبت لتفهمه شمالا وصَبَا، وكان ثقة والأنفس على تفضيله متفقة».

وأما أدبه فلا تُعْبَر لَجَّته، ولا تُدحض حُجته، وله شعر لم نجد منه الا ما نفث به أفقه، وأقصى فيه عن معرفة[57]».

12 ــ وقال ابن العماد : «هو العلامة العالم الحافظ أبو عمر، أحد الأعلام، وصاحب التصانيف، وليس لأهل المغرب أحفظ منه مع الثقة والدين والنزاهة، والتبحر في الفقه والعربية[58]».

13 ــ وقال ابن خلكان : «الخطيب أبو بكر بن علي بن ثابت البغدادي الحافظ، انه كان حافظ المشرق، وابن عبد البر حافظ المغرب، وماتا في سنة

---

(55) الديباج ص 357. طبعة مصر 1351.

(56) الديباج ص : 358. طبعة مصر 1351.

(57) المقري : نفح الطيب ج 29/4، 30 ــ تحقيق محمد محيي الدين ع. الحميد. مقتبس من مطمح الأنفس للفتح ابن خاقان.

(58) شذرات الذهب ج 314/3،313. المكتبة التجارية للطباعة والنشر ــ بيروت.

واحدة، وهما إمامان في هذا الفن»، وقال أيضا : «إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما[59]».

14 ــ وقال فقيه تطوان المرِّير : «وبرِع (ابن عبد البر) في علم الحديث حتى لقِّب بحافظ المغرب، تنويها بسعة محفوظه، وضبط روايته[60]».

وقال أفرام البستاني : «وعُدّ (ابن عبد البر) أحفظَ المغرب[61].

هذا غيض من فيض، وقليل من كثير، وإلا لو تتبعنا ما قيل من طرف معاصريه وتلاميذه والمؤرخين الذين جاءوا بعده، لما اتسع لذلك هذه الرسالة كلها؛ لأن ابن عبد البر كان عبارة عن دائرة المعارف الكبرى، أفاد منها خلق كثير لا يُحصَى عددهم، فانتزع بذلك الاعترافَ من أعدائه قبْل الأصدقاء. فهذا القاضي أبو الوليد الباجي ينوه به في كتاب «الفروق»، رغم أنه لم يكن بينهما علاقة حسنة، نظرا لتجاذبهما سؤدد العلم في وقتهما[62].

وبالجملة فان أبا عمر بن عبد البر كان حافظ المغرب[63]، وامام المحدثين فيه، طلب الحديث قبل مولد حافظ المشرق بأعوام[64]، ومن الطبقة الثالثة من أصحاب مالك، ممن لم يَرَ مالكا[65]، ومن الطبقة العاشرة من طبقات أئمة الحديث[66]، ومن الفقهاء المجتهدين الذين أحيَوْا السنة، وأماتوا البدعة.

---

(59) وفيات الأعيان ــ ج 7/66، 71. ــ تحقيق د. احسان عباس، دار صادر بيروت.
(60) الابحاث السامية ــ منشورات معهد فرانكو ج 258/1 ــ ط. تطوان.
(61) دائرة المعارف ج 333/3.
(62) المدارك ــ ج 808/4 ــ ط. بيروت.
(63) تذكرة الحفاظ مجلد 1128/3 ــ الطبعة الرابعة.
(64) نفس المصدر السابق.
(65) الديباج المذهب ص : 357.
(66) نفح الطيب ــ ج ــ63/3 ــ تحقيق د. احسان عباس، توزيع دار الفكر ــ بيروت.

خاتمة :

عاش أبو عمر بن عبد البر في عصر مَلِيءٍ بالاضطرابات السياسية، والفوضى الشاملة، والتمزق العام للدولة الأندلسية، فشاهد ذُبول الخلافة الأموية، وأُفولَ نجمها، واشتعال نار الفتن بقرطبة، والتي أتت على الأخضر واليابس، حيث راح ضحيتها آلاف من الناس، قتلا ونهبا وتشريدا، كما شاهد قيام دويلات صغيرة مستقلة، سميت في التاريخ بملوك الطوائف.

ولد ابن عبد البر ونشأ بقرطبة، وبها تعلم ودرس، لكن بعد الفتنة البربرية جلا عنها — أو فر منها هاربا — وراح يتنقل في ربوع الأندلس شرقا وغربا، باحثا عن الهدوء والاطمئنان والعلم، ليتفرغ للدراسة والبحث والتأليف.

فاتجه الى دانية بشرق الأندلس، ثم إلى غرب الأندلس حيث ولاه الأمير المظفر بن الأفطس، صاحب بطليوس، القضاء على لشبونة وشنترين، وأخيرا رجع الى شرق الأندلس حيث عاش البقية الباقية من عمره، متنقلا بين بلنسية وشاطبة حيث توفى سنة 463 هـ.

ومن تتبع حياة ابن عبد البر يبدو أنه عاش شبه مضطهد؛ لأنه لم يستقر في أي مكان بصفة دائمة ومستمرة، وربما ذلك راجع الى عدم تملقه للملوك والأمراء؛ لأنه كانت له نفسية أبِية، وأنه كان يشعر بالعز والكرامة، وعلو درجته في العلم.

وكان خلال تنقله في ربوع الأندلس ومدنها، يتصل بالعلماء ويسمع منهم الحديث ويأخذ عنهم العلم، حتى وصل الى درجة الاجتهاد، فاشتهر وطار صيته، فبدأ الملوك والأمراء يتنافسون في جذبه اليهم، ويقدمون له الهدايا والصلات.

عمَّر أبو عمر بن عبد البر طويلا؛ اذ عاش أكثر من خمس وتسعين سنة، قضاها كلها في الجهاد في سبيل العلم والمعرفة، حتى أصبح من كبار المحدثين

وحفاظهم، فكثر طلابه، وتسابق الناس الى اقتناء سنده، والأخذ عنه، لضبطه واتقانه وصحته.

احتل أبو عمر بن عبد البر مكانة ممتازة في الثقافة الاسلامية والأدبية، حتى لقب بحافظ المغرب، وأضفيت عليه عدة نعوت وألقاب علمية، لم ينلها أحد غيره في المغرب الاسلامي، وذلك بما ألّف من الكتب المفيدة والنافعة، وبآرائه السديدة، وأقواله الوجيهة.

وقد فتح باب الاجتهاد بعد إغلاقها، ودعا الى الرجوع الى الكتاب والسنة والاستنباط منهما، ونبذ التقليد والاقتصار على الفروع وأقوال الأئمة والفقهاء. وهكذا رجع الى المنابع الأصلية التي استقى منها السلف الصالح، واستنبط منها، فأحدث بذلك فقها جديدا، يمكن أن نسميه بفقه السنة المقارن، أو فقه المذاهب المقارن، حيث خلف وراءه في مؤلفاته آراء واجتهادات في العبادات والمعاملات تتلاءم وعصرنا هذا، اذ كان يتسم في اجتهاداته بالمرونة، وعدم التعصب لمذهبه، فهو مجتهد مالكي، ولكنه كان يتعاطف مع جميع المذاهب، فتارة كان يميل الى رأي الإمام الشافعي، وتارة كان يذهب مع أبي حنيفة، وتارة مع الامام أحمد بن حنبل، ولذا جاء فقهه مَرِنا.

ألف ابن عبد البر كتبا كثيرة، أفاد بها الاسلام والمسلمين، وسد بها فراغا كبيرا في المكتبة الاسلامية، اتبع في تأليفها منهجا فريدا من نوعه، لم يَسبق اليه أحد من حيث الدقة والشمولية والتنظيم، شهد بذلك أعداؤه قبل أصدقائه، وأصبحت مطلوبة كالمعدن النادر، وكان لها اشعاعات في الكتب التي جاءت بعدها، وذلك بالمنهجية التي امتازت بها وبما احتوت عليه من تمحيص الرواية، وتمتين السند، والنقد المبني على التعليل.

وقد سبق ابن عبد البر زمانه في تنظيم الكتب وتبويبها، ووضع الفهارس لها كما فعل في كتابه «التمهيد» الذي جعل له فهرسا سماه «تجريد التمهيد»، أو «التقصي»؛ لأنه اعتاد المحققون والناشرون أن يخصصوا جزءا من كتبهم للفهارس

العامة في الكتب الضخمة التي تحتوي على عدة أجزاء، وهي طريقة كنت أعتقد أنها من حضارة هذا العصر بينما نجد ابن عبد البر سبق اليها منذ زمن بعيد.

وكما كان لكتبه ومؤلفاته اشعاعات في الكتب التي جاءت بعدها، كان لأقواله وآرائه تأثير كبير فيمن جاء بعده من العلماء والمؤلفين، فهذا محمد بن سعيد الأنصاري المعروف بابن زرقون الاشبيلي المتوفى سنة 586 هـ. جمع كتابه «الاستذكار» مع كتاب القسطاس الذي يوجد منه أربع مجلدات في الزاوية الحمزاوية، وله صورة في الخزانة العامة بالرباط ضمن مقصورة الزاوية الحمزاوية(67). وهذا محمد بن عبد الحق التلمساني المتوفى سنة 560 هـ.(68) جمع الاستذكار مع الانتقاء، وقد نسخه بفاس عبد المالك بن عبد العزيز اللخمي الشامي الأصل، ونزيل فاس حيث نسخه وفرغ منه في رجب عام 498هـ.(69).

أما من أخذ من كتبه فكثير جدا، ومنهم :

1 ــ ابن حزم الذي ملأ كتابه «المحلى» بكثير من روايات ابن عبد البر، وفي كتابه «جوامع السيرة» استقى كتيبا من درر ابن عبد البر في اختصار المغازي والسِّيَر.

2 ــ ابن سيد الناس، وهو من سلالة أندلسية، انتقلت اليه مجموعات ابن عبد البر لم يكتف باحتذاء عبارته، بل نقل فصولا برمتها(70).

أما الذين شرحوا الموطأ ــ وما أكثرهم ــ فهم كلهم عيال على ابن عبد البر وكتبه منهم :

1 ــ الزرقاني في شرح موطأ الإمام مالك، فشرحه لا تخلو أية صفحة من صفحاته من أقوال ابن عبد البر.

---

(67) مجلة تطوان ــ العدد الثامن، من تحقيق الأستاذ المنوني.

(68) التكملة رقم : 232 ــ نشر عزت العطار.

(69) مجلة البحث العلمي عدد : 16 ص : 40.

(70) دعوة الحق عدد : 10، سنة 16، صفر 1395 هـ. مارس 1975.

2 ــ جلال الدين السيوطي في شرحه موطأ مالك (تنوير الحوالك)، فقد أشبعه بآراء ابن عبد البر وأقواله.

وقل مثل ذلك في كتب الفقه والتفسير، وأحيلك على بعضها حتى تدرك مدى الأثر والاشعاعات التي أصابت العلماء والكتب التي ألفت بعد ابن عبد البر، ومدى تأثيره :

1 ــ بداية المجتهد لابن رشد.

2 ــ الموافقات للشاطبي.

3 ــ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي.

4 ــ أحكام القرآن لابن العربي.

5 ــ فتح الباري في شرح البخاري للحافظ ابن حجر.

6 ــ إرشاد الساري في شرح البخاري للعلامة القسطلاني.

7 ــ أعلام الموقعين من رب العالمين لابن القيم الجوزية، وغيرهم كثير.

أما كتب السِّير والأخبار المتعلقة بالصحابة والرواة، ورجال الحديث وأئمته، فجلها أخذت من كتابه «الاستيعاب» و «الانتقاء»، ومن الذين أخذوا عنه القاضي عياض في ترتيب المدارك، وخاصة فيما يتعلق بالإمام مالك.

وكان لكتبه دور كبير في تهيىء الأفكار لقبول دعوة الموحدين الى توحيد الاتباع ونبذ التقليد والحكم بما أنزل الله[71].

وهذه المكانة الرفيعة التي وصل اليها ابن عبد البر، وتلك السمعة الذائعة، وذلك التأثير الفعال في توجيه العلم والعلماء ربما جاءت من :

ــ علمه الواسع بالعلوم الاسلامية والأخبار والأنساب.

(71) دعوة الحق عدد ــ 43/4 ــ السنة العاشرة، مارس 1967.

ـــ علو سنده وصحته الذي كان الناس يتنافسون عليه، ويرحلون اليه من أماكن نائية لسماعه وأخذه.

ـــ كثرة تآليفه وقيمتها العلمية والأدبية.

ـــ تمسكه بمنهج السلف الصالح.

ـــ شخصيته القوية التي لا تخاف في الله لومةَ لائم، واستقامتُه، وصلاحُه.

ـــ عمره الطويل، ومعلوم أن الناس يميلون الى زيارة العلماء المسنين والتبرك بهم، والأخذ عنهم.

ورغم هذه المكانة العلمية، أرى أن ابن عبد البر ظل مجهولا لدى المؤرخين والكتّاب وخاصة المحدثين، اذا قيس بابن حزم؛ اذ لم يكتبوا عليه إلا قليلا جدا، فكتب التاريخ والتراجم والسير القديمة والحديثة، لم يحتَلّ على صفحاتها الا حيّزا بسيطا لا يتعدى صفحة أو صفحة ونصف على أكثر تقدير، بينما ابن حزم كتبت حوله المجلدات، سواء من طرف المؤرخين القدامى، أو المحْدَثين، وربما ذلك راجع الى أن ابن عبد البر لم يكن من أسرة سياسية كابن حزم، ولم يشتغل هو نفسه بالسياسة، وكذلك لم يكن له اهتمام بالفلسفة، حتى يثير حوله الجدل، ويلفت الانتباه اليه، بل اقتصر على الاشتغال بالحديث والفقه.

وجدير بالذكر أن الكتاب وخاصة المحدثين منهم، يهتمون بالشخصيات العقلانية والفلسفية في الاسلام، أو الذين لهم مواقف مخالفة من حيث العقيدة.

وهذه الظاهرة ـــ ظاهرة عدم العناية بابن عبد البر ـــ تلاحظ حتى لدى تلاميذه رغم كثرتهم، ورغم اعترافهم بمكانته، فلم يصدر عنهم فيه إلا نُتَف قليلة من الكلام لا تسمن ولا تغني من جوع.

هذا وكان المغرب موفقا الى حد كبير لما اقبل على احياء التراث الاسلامي، وجعل في طليعته كتاب التمهيد، كذلك القاهرة حينما تجاوبت معه بنشر كتاب «الاستذكار» وكتاب «بهجة المجالس وأنس المجالس»، وغيرهما من التراث الاسلامي في المغرب.

أرجو أن يستمر هذا العمل، ويكثر ذووا النيات الطيبة نحو الاسلام وتراثه.

تم بعون الله تحرير هذه الرسالة يوم الاثنين 25 صفر عام 1400 موافق 14 يناير سنة 1980.

نسأل الله السلامة والعافية من الخطأ والزلل، ومن الأقوال والآراء الواهية.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس كتاب: الإمام أبي عمر
يوسف بن عبد البر النمري

حياته ـــ آثاره ـــ منهجه في فقه السنة

صفحة

تقديم 5
مقدمة 7
المدخل 11
الفصل الأول : الحياة السياسية 13
أولا : الصراع على السلطة 13
ثانيا : أحداث عاصفة 15
ثالثا : ملوك الطوائف 18
رابعا : دول لها علاقة بابن عبد البر 19
الفصل الثاني : الحياة الاجتماعية 23
الفصل الثالث : الحياة الثقافية 29
الفلص الرابع : قرطبة 35
الباب الأول : حياة ابن عبد البر 39
الفصل الاول : التعريف بابن عبد البر وترجمته 41
أولا : اسمه وكنيته 41
ثانيا : نسبه وأصله 44
ثالثا : أسرته 47
رابعا : مولده ونشأته 52
الفصل الثاني : دراسته ورحلاته 57
أولا : دراسته ومكانها 57
ثانيا : الكتب التي درسها 63
ثالثا : خروج ابن عبد البر من قرطبة (رحلاته) 70
الفصل الثالث : أساتذته وشيوخه 75
أولا : الشيوخ الذين قرأ عليهم أو روى عنهم ولهم رحلة الى المشرق 76
ثانيا : الشيوخ الذين ليست لهم رحلة الى المشرق 91
ثالثا : الشيوخ الذين أجازوه أو كاتبوه 101

الفصل الرابع : ميدان نشاطه في الحياة العلمية 103
أولا : اتصاله بذوي السلطان 103
ثانيا : توليته القضاء 106
ثالثا : اشتغاله بالتدريس والتأليف 109
رابعا : معيشته ومصادر رزقه 113
الفصل الخامس : شخصيته وأخلاقه 115
أ ــ هيأته وتكوينه 115
ب ــ أخــلاقــه 118
وفــاتــه 125
الباب الثاني : آثــاره 127
الفصل الاول : تلاميذه 129
القسم الاول : التلاميذ الذين سمعوا منه ولم يُجزْهم 129
القسم الثاني : التلاميذ الذين أجازهم ابن عبد البر وأخذوا عنه 140
الفصل الثاني : قائمة اجمالية لمؤلفاته 145
الفصل الثالث : **دراسة تحليلية لكتاب «التمهيد»** 157
أولا : التعريف بالكتاب 157
ثانيا : الباعث على تأليفه 158
ثالثا : الهدف من تأليف «التمهيد» 159
رابعا : موضوع الكتاب 160
خامسا : وصف الكتاب 161
سادسا : منهج الكتاب 173
سابعا : أسلوب التمهيد 176
ثامنا : قيمة التمهيد 176
الفصل الرابع : دراسة تحليلية لكتاب : «جامع بيان العلم وفضله» 181
أولا : أسباب تأليفه 181
ثانيا : موضوعه 182
ثالثا : وصف الكتاب 183
رابعا : منهج الكتاب 188
خامسا : أسلوبه 191
سادسا : قيمة الكتاب 194

الفصل الخامس : عرض وتحليل لكتاب «الانتقاء» 199
أولا : موضوع «الانتقاء» وأقسامه 199
ثانيا : أسلوبه 207
ثالثا : قيمته 208
رابعا : نماذج من كتاب «الانتقاء» 209
الفصل السادس : نماذج من فتاويه 211
النموذج الاول : فتواه في أكل طعام الأمراء 211
النموذج الثاني : فتوى ابن عبد البر في قراءة البسملة وعدمها 213
ذكر ما احتج به من رأى الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم 234
الفصل السابع : مقاطع من شعره 245
الباب الثالث : ثقافته وآراؤه ومناهجه 253
الفصل الاول : ثقافته وأنواعها 255
أولا : ثقافته وعواملها 255
ثانيا : أنواع معارفه ومميزاتها 269
الفصل الثاني : آراؤه 279
أولا : آراؤه حول العقائد 280
ثانيا : آراؤه السياسية 292
ثالثا : آراؤه حول الاجتهاد والرأي 294
رابعا : آراؤه في التقليد والاتباع 297
الفصل الثالث : فقهه ومنهجه 301
منزلته ومكانته بين العلماء 313
خاتمة 317
فهرس الموضوعات 323
المصادر والمراجع 327

المصادر والمراجع

1 ــ الاستذكار لمذاهب لأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار ــ لابن عبد البر (1ــ2) ــ تحقيق علي النجدي ناصف، ط. القاهرة.

2 ــ الاستيعاب في طبقات الأصحاب ــ لابن عبد البر ــ مطبعة السعادة ــ مصر 1328 هـ.

3 ــ الانتقاء في فضل الثلاثة الفقهاء ــ لابن عبد البر ــ مطبعة القدسي ــ مصر 1350 ه.

4 ــ الإنصاف فيما بين العلماء في بسم الله الرحمن الرحيم من الخلاف لابن عبد البر، مطبوع في مصر ضمن مجموعة الرسائل المنيرية سنة 1343 ه.

5 ــ الإحاطة في أخبار غرناطة ــ للسان الدين بن الخطيب ــ تحقيق محمد عبد الله عنان ــ دار المعارف ــ القاهرة 1955 م.

6 ــ أعمال الأعلام ــ للسان الدين بن الخطيب ــ تحقيق أ. ليفي بروفنسال ــ طبعة دار المكشوف ــ بيروت 1956 م.

7 ــ الإحكام في أصول الأحكام ــ لابن حزم ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة 1345 ــ هـ.

8 ــ أحكام القرآن لابن العربي (1 ــ 4) ــ الطبعة الأولى 1376 هـ 1957 م.

9 ــ أعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم الجوزية (1 ــ 4) ــ دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ــ بيروت.

10 ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (1 ــ 10) ــ الطبعة الأولى.

11 ــ الأعلام للزركلي ــ الطبعة الثانية.

12 ــ الأبحاث السامية في المحاكم الاسلامية ــ لمحمد المرير ــ منشورات معهد فرانكو تطوان.

13 ــ ابن الأبار لعبد البر بن عبد المجيد ــ طبعة تطوان.

14 ــ أبو حنيفة لأبي زهرة ــ دار الفكر العربي.

15 ــ ابن حزم رائد الفكر العلمي، منشورات المكتبة التجارية للطباعة والنشر ــ بيروت.

16 ــ أعلام العرب،ابن زيدون لعلي عبد العظيم ــ دار الكتاب العربي 1967.

17 ــ أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، لبطرس البستاني ــ دار المكشوف ودار الثقافة.

18 ــ بهجة المجالس وأنس المجالس، لابن عبد البر ــ تحقيق محمد مرسي الخولي ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة ــ دار الجيل للطباعة.

19 ــ بُغْية الملتمس، للضبي ــ مطبعة روخس مجريط 1884.

20 ــ البيان المُغْرِب في أخبار المَغرب، لابن عذاري ــ طبعة بيروت 1950.

21 ــ بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لأبي الوليد بن رشد (1 ــ 2) ــ مكتبة الكليات الأزهرية 1386 هـ 1966 م.

22 ــ البداية والنهاية، لأبي الفداء بن كثير الدمشقي ــ الطبعة الأولى.

23 ــ التمهيد لابن عبد البر، الأجزاء المطبوعة، وباقي الأجزاء المخطوطة.

24 ــ البحث العلمي عدد : 61 ــ بحث محمد المنوني. نشر وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمغرب.

25 — التقصي لحديث الموطأ، لابن عبد البر، مطبعة القدسي — القاهرة.
26 — تاريخ علماء الأندلس، لابن الفرَضي (1 — 2) — الدار المصرية للتأليف والترجمة 1960 م.
27 — التكملة لابن الأبّار — نشر عزت العطار 1375 هـ 1956 م.
28 — ترتيب المدارك للقاضي عياض — طبعة بيروت.
29 — ترتيب المدارك للقاضي عياض — الأجزاء المطبوعة بالمملكة المغربية تحت اشراف وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.
30 — تنوير الحوالك في شرح موطأ مالك للسيوطي — ط. الأولى.
31 — تذكرة الحفاظ للذهبي — الطبعة الرابعة.
32 — الترغيب والترهيب للمنذري — دار إحياء التراث العربي — بيروت.
33 — تفسير القرآن لابن كثير — مطبعة الاستقامة بمصر 1373هـ 1954 م.
34 — تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني — طبع دار صادر — بيروت.
35 — تيسير الوصول لابن الربيع الشيباني — طبع مصطفى الحلبي 1953 م.
36 — تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني — طبع دار المعرفة — بيروت.
37 — تاريخ الأدب الأندلسي : عصر سيادة قرطبة للدكتور احسان عباس، دار الثقافة بيروت.
38 — تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري — ط. ثانية — منشورات المطبعة البوليسية.
39 — تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي للدكتور حسن ابراهيم حسن، ط. السابعة — مكتبة النهضة المصرية 1964.
40 — جامع بيان العلم وفضله (—1 — 2) — دار الفكر — بيروت.
41 — جذوة المقتبس للحميدي — تحقيق محمد بن تاويت الطنجي — القاهرة 1952.
42 — جمهرة أنساب العرب لابن حزم — تحقيق محمد عبد السلام هارون — دار المعارف مصر 1962.
43 — الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي — الطبعة الثانية — دار الكتب المصرية 1387 هـ —1967 م.
44 — الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي — طبع الهند.
45 — الحلة السيّراء لابن الأبار — تحقيق د. حسين مؤنس — القاهرة 1963.
46 — الحلل السندسية لشكيب أرسلان — مطبعة عيسى النلعوري 1355 هـ — 1936 م.
47 — حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون — ترجمة عادل زعيتر — الطبعة الثانية.
48 — الحضارة الاسلامية لادم متز — الترجمة العربية لمحمد عبد الهادي.
49 — الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر — طبع دار المعارف.
50 — الديباج المذهّب لابن فرحون — طبعة مصر 1851 هـ.
51 — دائرة المعارف لافرم فؤاد البستاني — بيروت 1876.
52 — الذخيرة لابن بسام، الأجزاء الأول والثاني والرابع — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة 1942.

53 ــ رسائل ابن حزم ــ تحقيق د. إحسان عباس ــ القاهرة 1954.
54 ــ روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات للميرزا محمد الاصبهاني ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت.
55 ــ الرسائل المنيرية ــ طبعة مصر 1343 هـ .
56 ــ سير النبلاء : جزء خاص بترجمة الامام ابن حزم الأندلسي، لسعيد الافغاني ــ دار الفكر ــ بيروت 1389 هـ ــ 1966 م.
57 ــ سلوة الأنفاس، مخطوط بالخزانة العامة بتطوان رقم : 881 ــ 883.
58 ــ السيرة الحلبية ــ طبع مصر 1292 هـ .
59 ــ شذرات الذهب، لابن العِمّاد ــ المكتبة التجارية للطباعة والنشر ــ بيروت.
60 ــ شرح الزرقاني على موطأ مالك (1ــ4) ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد حنفي ــ مصر.
61 ــ شرح النووي على صحيح مسلم ــ بهامش ارشاد الساري ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت.
62 ــ الصِلة لابن بشكوال ــ طبعة مدريد 880.
63 ــ الصِلة لابن بشكوال ــ طبعة القاهرة 1374 هـ .
64 ــ ضُحَى الاسلام لأحمد أمين ــ ط. الخامسة ــ مكتبة النهضة المصرية.
65 ــ ظهر الاسلام ــ لأحمد أمين.
66 ــ طبقات الأمم لصاعد ــ ط. مصر.
67 ــ طبقات الأمم لصاعد ــ المطبعة الكاثوليكية ــ بيروت 1912.
68 ــ طوق الحمامة لابن حزم ــ تحقيق حسن الكامل الصيرفي ــ القاهرة 1952.
69 ــ طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ــ المطبعة الحسنية بمصر.
70 ــ طبقات الشيرازي ــ نشر الرائد العربي ــ بيروت لبنان 1970.
71 ــ الطبقات الكبرى لابن سعد ــ طبع دار صادر ــ بيروت 1377.
72 ــ طبقات المفسرين للسيوطي ــ طبع ليدن 1839.
73 ــ العقد الفريد لابن عبد ربه ــ طبعة لجنة التأليف والنشر ــ القاهرة 1952.
74 ــ اعلام العرب : عبد الرحمن الناصر بقلم علي أدهم ــ الهيأة المصرية العامة للكتاب 1972.
75 ــ العِبَر في خبَرِ مَن غَبَر، الذهبي ــ نشر مكتبة الكويت 1960.
76 ــ غاية النهاية (طبقات القراء)، لابن الجوزى ــ طبع مصر 1351 هـ / 1932 م.
77 ــ الفصل في الأهواء والملل والنحل لابن حزم ــ دار المعرفة للطباعة والنشر ــ بيروت.
78 ــ فهرست ابن خَيْر ــ طبعة دمشق ــ مدريد 1893.
79 ــ فوات الوفيات لابن شاكر ــ الطبعة الأميرية ــ القاهرة 1283 هـ .

80 ــ فتح الباري على صحيح البخاري لابن حزم ــ مطبعة مصطفي البابي الحلبي 1378 هـ / 1959 م.
81 ــ قضاء قرطبة للخشني ــ الطبعة الأولى ــ القاهرة 1372.
82 ــ قلائد العِقيان للفتح بن خاقان ــ المطبعة الأميرية ــ القاهرة 1282.
83 ــ القاموس المحيط للفيروز ابادي ــ المطبعة الحسنية بمصر.
84 ــ الكافي لابن عبد البر ــ مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم : 540 ك.
85 ــ كشف الظنون لحاجي خليفة ــ طبعة لندن.
86 كشف الظنون لحاجي خليفة ــ طبعة تركيا.
87 ــ لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ــ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ــ بيروت 1390 ه . 1971 م.
88 ــ المعجِب في تلخيص أخبار المَغرب للمراكشي ــ مطبعة الاستقامة ــ القاهرة.
89 ــ المرقبة العليا للنُباهي ــ تحقيق أ. ليفي بروفنسال ــ ط. دار الكتاب المصري.
90 ــ المقدمة لابن خلدون ــ طبعة القاهرة.
91 ــ معجم البلدان لياقوت الحموي ــ طبعة القاهرة ــ مصر.
92 ــ مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ــ مطبعة دار السعادة ــ مصر.
93 ــ المقتبِس من أنباء أهل الأندلس، لابن حبان ــ تحقيق د. محمود على مكي ــ طبعة لجنة احياء التراث الاسلامي.
94 ــ الموافقات للشاطبي ــ دار المعرفة ــ بيروت.
95 ــ معجم البلدان لياقوت الحمري ــ طبعة بيروت.
96 ــ مالك لأبي زهرة ــ الطبعة الثانية ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة.
97 ــ معطيات الحضارة المغربية لعبد العزيز بن عبد الله (1 ــ 2) ــ دار الكتب العربية ــ الرباط.
98 ــ مجلة دعوة الحق عدد : 10 سنة 1978/19 ــ بحث سعيد أعراب.
99 ــ مجلة دعوة الحق عدد : 10 سنة 1395/16 ــ 1967، بحث سعيد أعراب.
100 ــ مجلة تطوان، عدد : 3 ــ 4 1959 ــ بحث محمد المنوني.
101 ــ المناهل العدد السادس ــ بحث محمد المنوني.
102 ــ المنتخب من محفوظات المدينة المنورة لعمر كحالة، مطبوعات اللغة العربية، دمشق.
103 ــ مجلة دعوة الحق، عدد : 4 السنة العاشرة 1967 ــ بحث الدكتور تقي الدين الهلالي.
104 ــ نفح الطيب للمَقّري ــ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ــ القاهرة.
105 ــ نفح الطيب، تحقيق د. احسان عباس ــ توزيع دار الفكر ــ دار صادر بيروت ــ لبنان.

106 ــ النهاية لابن الاثير ــ طبع عيسى الحلبي 1731 هـ 1952 م.
107 ــ نسب قريش لمصعب الزبيدي ــ طبع مصر.
108 ــ النشر في القراءات العشر لابن الجزري ــ طبع دمشق 1345.
109 ــ هدى الساري، مقدمة فتح الباري لابن حجر ــ طبع مصطفى الحلبي.
110 ــ وفيات الأعيان لابن خلكان ــ مطبعة السعادة بمصر 1367 هـ 1948.
111 ــ وفيات الأعيان لابن خلكان ــ دار الفكر ــ بيروت.

رقـم الإيـداع القانـوني : 253 / 1990

مطبعة فضالة
زنقة ابن زيدون ـ المحمدية (المغرب)
الهاتف: 32.46.45 (03) الفاكس: 32.46.43 (03)